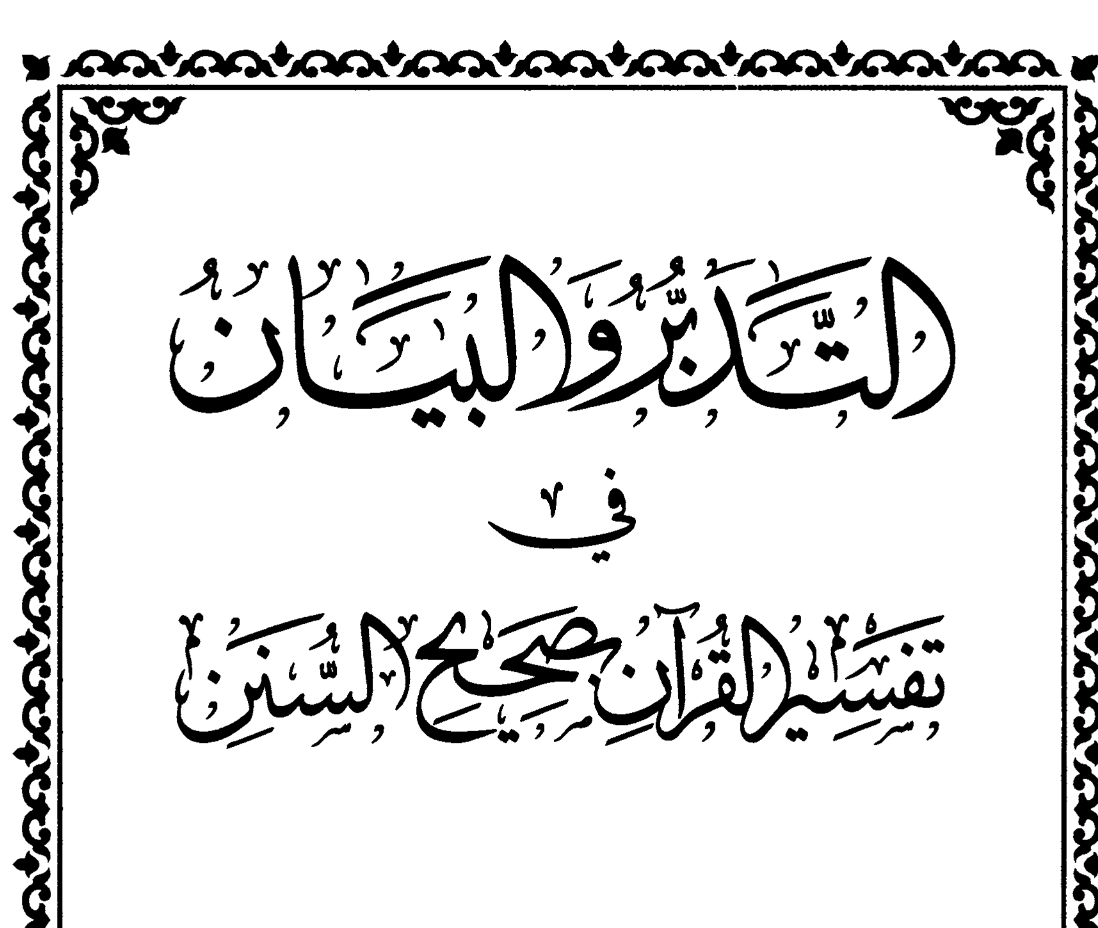


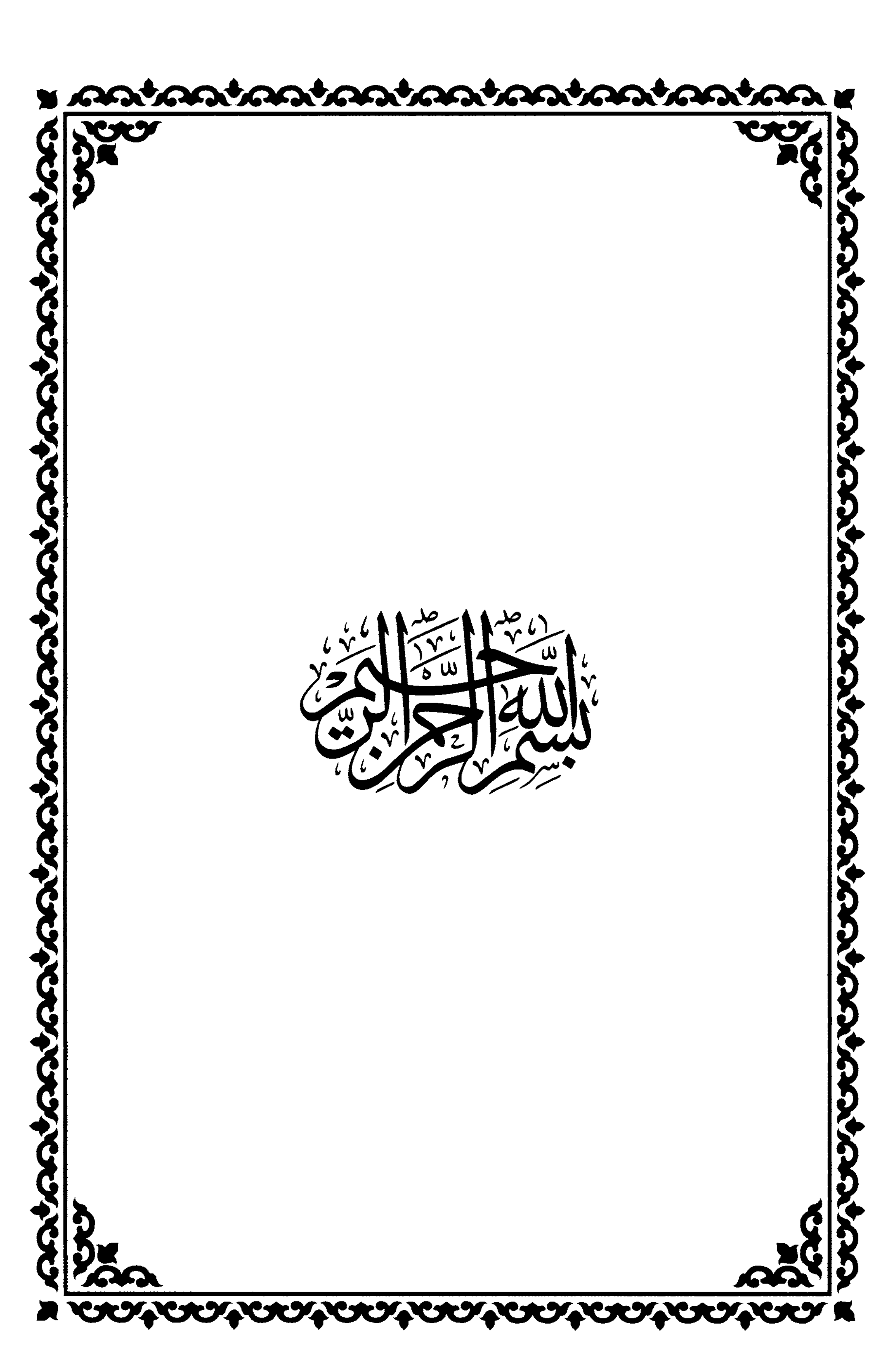
التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن

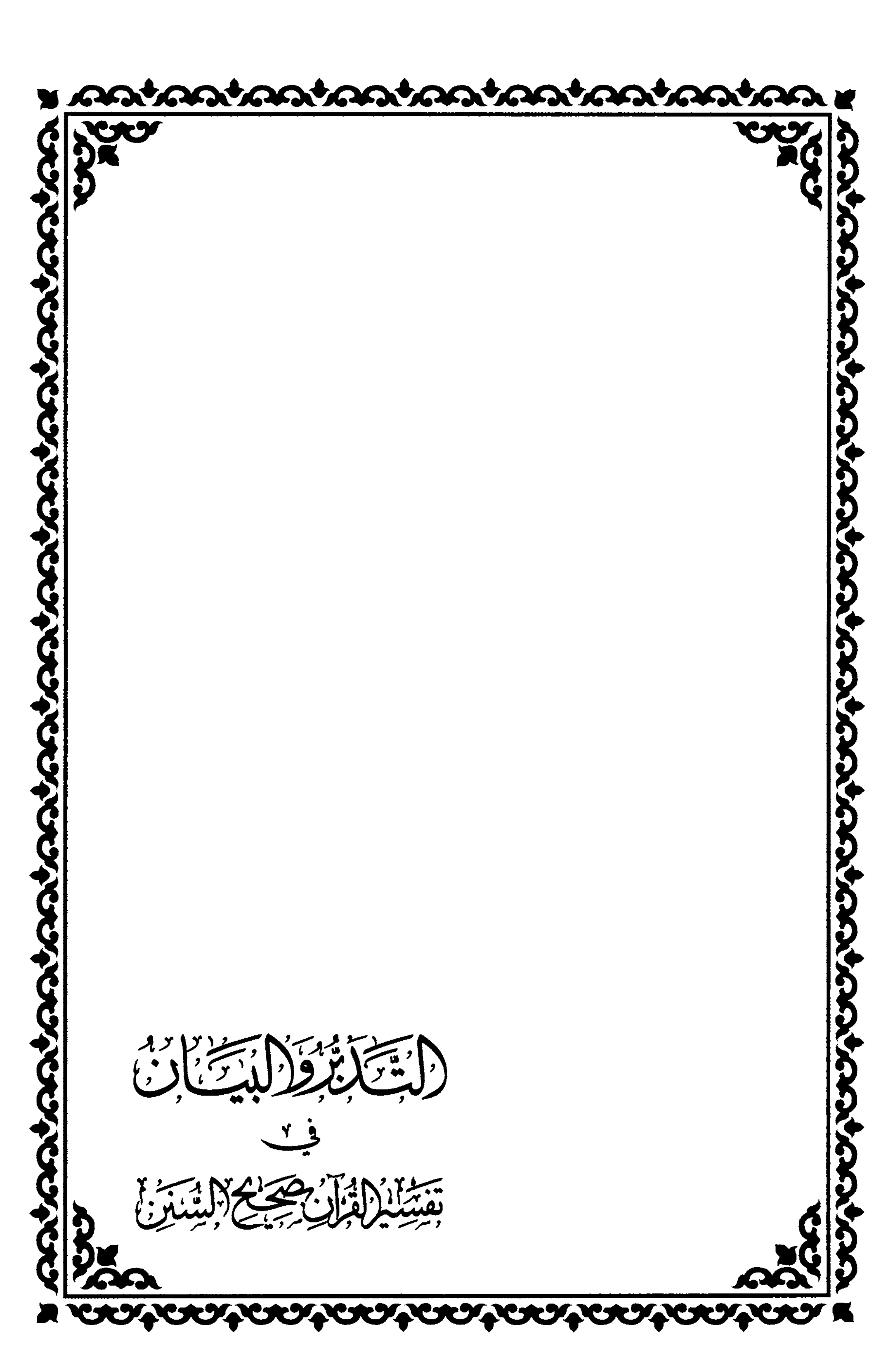
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الثامن عشر

سورة النحل


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَــة الأولى

١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 (40 مجلداً) عدد الصفحات

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon — بلد الطباعة : لبنــان

Edition : 1st — الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٠٤٢٨ MO ٢٠١٤

ردمك : ٩٧٨ ـ ٩٩٥٤ ـ ٣٣ ـ ١٤٧ ـ ٧







سورة النحل

أغراض هذه السورة

قال ابن عاشور: «معظم ما اشتملت عليه السورة إكثار متنوع الأدلة على تفرد اللَّه تعالى بالإلهية، والأدلة على فساد دين الشرك، وإظهار شناعته، وأدلة إثبات رسالة محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه ﷺ، وأن شريعة الإسلام قائمة على أصول ملة إبراهيم عليه السلام.

وإثبات البعث والجزاء؛ فابتدِئَت بالإنذار بأنه قد اقترب حلول ما أنذِر به المشركون من عذاب اللَّه الذي يستهزئون به، وتلا ذلك قرع المشركين وزجرهم على تصلبهم في شركهم وتكذيبهم.

وانتقل إلى الاستدلال على إبطال عقيدة الشرك؛ فابتدئ بالتذكير بخلق السماوات والأرض، وما في السماء من شمس وقمر ونجوم، وما في الأرض من ناس وحيوان ونبات وبحار وجبال وأعراض الليل والنهار، وما في أطوار الإنسان وأحواله من العبر.

وخصت النحل وثمراتها بالذكر لوفرة منافعها والاعتبار بإلهامها إلى تدبير بيوتها وإفراز شهدها.

والتنويه بالقرآن وتنزيهه عن اقتراب الشيطان، وإبطال افترائهم على القرآن.

والاستدلال على إمكان البعث وأنه تكوين كتكوين الموجودات.

والتحذير مما حل بالأمم التي أشركت باللَّه، وكذبت رسله عليهم السلام عذاب الدنيا وما ينتظرهم من عذاب الآخرة. وقابل ذلك بضده من نعيم المتقين المصدقين

والصابرين على أذى المشركين والذين هاجروا في اللَّه وظُلموا.

والتحذير من الارتداد عن الإسلام والترخيص لمن أكره على الكفر في التقية من المكرِهين.

والأمر بأصول من الشريعة؛ من تأصيل العدل والإحسان والمواساة والوفاء بالعهد، وإبطال الفحشاء والمنكر والبغي، ونقض العهود وما على ذلك من جزاء بالخير في الدنيا والآخرة.

وأدمج في ذلك ما فيها من العبر والدلائل والامتنان على الناس بما في ذلك من المنافع الطيبات المنتظمة، والمحاسن وحسن المناظر ومعرفة الأوقات، وعلامات السير في البر والبحر، ومن ضرب الأمثال ومقابلة الأعمال بأضدادها.

والتحذير من الوقوع في حبائل الشيطان، والإنذار بعواقب كفران النعمة.

ثم عرض لهم بالدعوة إلى التوبة ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ﴾[1] إلخ..

وملاك طرائق دعوة الإسلام ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾[2].

وتثبيت الرسول ﷺ ووعده بتأييد اللَّه إياه»[3].

* * *

(١) النحل: الآية (١١٩).

(٢) النحل: الآية (١٢٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٩٥-٩٦).

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١﴾

★ **غريب الآية:**

سبحانه: أصل التسبيح التنزيه والتقديس عن كل عيب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ فقرُب منكم أيها الناس ودنا، فلا تستعجلوا وقوعه.

ثم اختلف أهل التأويل في الأمر الذي أعلم اللّه عباده مجيئه وقُربه منهم ما هو، وأيّ شيء هو؟ فقال بعضهم: هو فرائضه وأحكامه..

وقال آخرون: بل ذلك وعيد من اللّه لأهل الشرك به، أخبرهم أن الساعة قد قَرُبت وأن عذابهم قد حضر أجله فدنا.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: هو تهديد من اللّه أهل الكفر به وبرسوله، وإعلام منه لهم قرب العذاب منهم والهلاك وذلك أنه عقَّب ذلك بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ فدلّ بذلك على تقريعه المشركين ووعيده لهم. وبعد، فإنه لم يبلغنا أن أحدًا من أصحاب رسول اللّه ﷺ استعجل فرائض قبل أن تُفرض عليهم، فيقال لهم من أجل ذلك: قد جاءتكم فرائض اللّه فلا تستعجلوها. وأما مستعجلو العذاب من المشركين، فقد كانوا كثيرا.

وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ يقول تعالى تنزيهًا لله وعلوًّا له عن الشرك الذي كانت قريش ومن كان من العرب على مثل ما هم عليه يَدِين به»[1].

وقال ابن عاشور: «لمّا كان معظم أغراض هذه السورة زجر المشركين عن الإشراك وتوابعه وإنذارهم بسوء عاقبة ذلك، وكان قد تكرّر وعيدهم من قبلُ في

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٧٦).

آيات كثيرة بيوم يكون الفارقَ بين الحق والباطل، فتزول فيه شوكتهم، وتذهب شدّتهم. وكانوا قد استبطأوا ذلك اليوم حتى اطمأنوا أنه غير واقع فصاروا يهزأون بالنبي -عليه الصلاة والسلام- والمسلمين فيستعجلون حلول ذلك اليوم.

صدّرت السورة بالوعيد المصوغ في صورة الخبر بأن قد حلّ ذلك المتوعد به. فجيء بالماضي المراد به المستقبل المحققُ الوقوعِ بقرينة تفريع ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ لأن النهي عن استعجال حلول ذلك اليوم يقتضي أنه لما يحل بعد..

والخطاب للمشركين ابتداء لأن استعجال العذاب من خصالهم، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾[١]، ويجوز أن يكون شاملًا للمؤمنين لأن عذاب اللّه وإن كان الكافرون يستعجلون به تهكّمًا لظنّهم أنه غير آتٍ، فإن المؤمنين يضمرون في نفوسهم استبطاءه ويحبّون تعجيله للكافرين..

والمراد من النهي هنا دقيق لم يذكروه في موارد صيغ النهي. ويجدر أن يكون للتسوية كما ترد صيغة الأمر للتسوية، أي لا جدوى في استعجاله لأنه لا يعجّل قبل وقته المؤجّل له»[٢].

قال الشنقيطي: «وعبر بصيغة الماضي تنزيلًا لتحقق الوقوع منزلة الوقوع. واقتراب القيامة المشار إليه هنا بينه -جل وعلا- في مواضع أُخر، كقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[٣]، وقوله -جل وعلا-: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[٥]، وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[٦]، وقوله -جل وعلا-: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[٧]، إلى غير ذلك من الآيات. والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لتحقق وقوعه كثير في القرآن، كقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[٨]، وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾[٩]، وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

---

(١) الحج: الآية (٤٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٩٦-٩٧).
(٣) الأنبياء: الآية (١).
(٤) القمر: الآية (١).
(٥) الأحزاب: الآية (٦٣).
(٦) الشورى: الآية (١٧).
(٧) النجم: الآيتان (٥٧-٥٨).
(٨) الزمر: الآية (٦٨).
(٩) الأعراف: الآية (٤٤).

عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(١) الآية. فكل هذه الأفعال الماضية بمعنى الاستقبال، نُزّل تحقق وقوعها منزلة الوقوع.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، نهى اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة عن استعجال ما وعد به من الهول والعذاب يوم القيامة، والاستعجال هو طلبهم أن يعجل لهم ما يوعدون به من العذاب يوم القيامة.

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله -جل وعلا-: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾(٢)، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾(٣)، وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾(٤) الآية، وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾(٥)، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾(٦)، إلى غير ذلك من الآيات»(٧).

قال ابن كثير: «ذكر دنوّ يوم القيامة واقترابها وأنها آتية وأنها لا تأتي إلا بغتة ولا يُعلم وقتها على التعيين إلا اللَّه تعالى:

قال اللَّه تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾(٨) وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾(٩) وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾(١٠) وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ

---

(١) الزمر: الآيات (٦٩-٧١).
(٢) العنكبوت: الآيتان (٥٣-٥٤).
(٣) الشورى: الآية (١٨).
(٤) هود: الآية (٨).
(٥) ص: الآية (١٦).
(٦) يونس: الآية (٥٠).
(٧) أضواء البيان (٣/ ١٨٩-١٩٠).
(٨) المعارج: الآيات (١-١٠).
(٩) يونس: الآية (٤٥).
(١٠) النازعات: الآية (٤٦).

بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4] وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾[5] وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾[6] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾[7] وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾[8] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾[9]»[10].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أشراط الساعة

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[11].

* عن عقبة بن عامر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**تطلع عليكم قبل الساعة سحابة سوداء من قبل المغرب مثل الترس فما تزال ترتفع في السماء حتى تملأ السماء ثم**

---

(١) الشورى: الآيتان (١٧و١٨).
(٢) طه: الآيات (١٠٢-١٠٤).
(٣) المؤمنون: الآيات (١١٢-١١٤).
(٤) الأعراف: الآية (١٨٧).
(٥) النازعات: الآيات (٤٢-٤٤).
(٦) الأحزاب: الآية (٦٣).
(٧) طه: الآيتان (١٥و١٦).
(٨) النمل: الآيتان (٦٥و٦٦).
(٩) لقمان: الآية (٣٤).
(١٠) النهاية في الفتن (١/ ٢٠١-٢٠٢).
(١١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٠) والبخاري (١١/ ٤٢٢/ ٦٥٠٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨ و٢٢٦٩/ ٢٩٥١) والترمذي (٤/ ٤٣٠/ ٢٢١٤) وقال: حسن صحيح.

ينادي مناد: يا أيها الناس! فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم. ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس! فيقول الناس: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم. ثم ينادي: أيها الناس ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ قال رسول اللَّه ﷺ: فوالذي نفسي بيده إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أو يتبايعانه أبدًا، وإن الرجل ليمدر حوضه فما يسقي فيه شيئًا، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبدًا، ويشغل الناس»[1].

★ **غريب الحديث:**

الترس: ما كان يتوقى به في الحرب.

مَدَر الحوض: أصلحه.

★ **فوائد الحديث:**

ستأتي فوائد هذا الحديث في سورة القمر عند قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ الآية (١).

* * *

(١) الطبراني في الكبير (١٧/ ٣٢٥/ ٨٩٩)، والحاكم (٤/ ٥٣٩) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٣١): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد اللَّه مولى المغيرة وهو ثقة». وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٣٨٢): «رواه الطبراني بإسناد جيد رواته ثقات مشهورون».

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام: ينزل اللَّه ملائكته بما يحيا به الحقّ ويضمحلّ به الباطل من أمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ يعني على من يشاء من رسله ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ فإن الأولى في موضع خفض، ردًّا على الروح، والثانية في موضع نصب بأنذروا. ومعنى الكلام: ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده، بأن أنذروا عبادي سطوتي على كُفرهم بي وإشراكهم في اتخاذهم معي الآلهة والأوثان، فإنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، يقول: لا تنبغي الألوهة إلا لي، ولا يصلح أن يُعبد شيء سواي، ﴿فَٱتَّقُونِ﴾: يقول: فاحذروني بأداء فرائضي وإفراد العبادة وإخلاص الربوبية لي، فإن ذلك نجاتكم من الهلكة»[1].

قال ابن عاشور: «كان استعجالُهم بالعذاب استهزاءً بالرسول ﷺ وتكذيبه، وكان ناشئًا عن عقيدة الإشراك التي من أصولها استحالة إرسال الرسل من البشر.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ رد على فنون من تكذيبهم؛ فقد قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2] وقالوا: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾[3] أي كان ملكًا، وقالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[4]. ومشيئة اللَّه جارية على وفق حكمته، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[5]»[6].

قال ابن الجوزي: «وفي المراد بالروح ستة أقوال: أحدها: الوحي، رواه ابن

(١) جامع البيان (١٤/ ٧٧).
(٢) الزخرف: الآية (٣١).
(٣) الزخرف: الآية (٥٣).
(٤) الفرقان: الآية (٧).
(٥) الأنعام: الآية (١٢٤).
(٦) التحرير والتنوير (١٤/ ٩٨-٩٩).

أبي طلحة عن ابن عباس. والثاني: أنه النبوَّة، رواه عكرمة عن ابن عباس. والثالث: أن المعنى: تنزل الملائكة بأمره، رواه العوفي عن ابن عباس. فعلى هذا يكون المعنى: أن أمر اللَّه كلَّه روح. قال الزجاج: الروح ما كان فيه من أمر اللَّه حياة النفوس بالإرشاد. والرابع: أنه الرحمة. قاله الحسن، وقتادة. والخامس: أن أرواح الخلق: لا ينزل ملك إلا ومعه روح، قاله مجاهد. والسادس: أنه القرآن، قاله ابن زيد»(١).

قال الشنقيطي: «أظهر الأقوال في معنى الروح في هذه الآية الكريمة أن المراد بها الوحي؛ لأن الوحي به حياة الأرواح، كما أن الغذاء به حياة الأجسام»(٢).

قال ابن عاشور: «فشبّه الوحي بالروح كما يشبّه العلم الحقّ بالحياة، وكما يشبّه الجهل بالموت قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾(٣).

ووجه تشبيه الوحي بالروح أن الوحي إذا وعته العقول حلّت بها الحياة المعنوية وهو العلم، كما أن الروح إذا حلّ في الجسم حلّت به الحياة الحسيّة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾(٤)»(٥).

قال ابن كثير: «قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهم الأنبياء، كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(٦)، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾(٧)، وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(٨)»(٩).

* * *

(١) زاد المسير (٤/ ٣١٤).
(٢) أضواء البيان (٣/ ١٩١).
(٣) الأنعام: الآية (١٢٢).
(٤) الشورى: الآية (٥٢).
(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٩٨-٩٩).
(٦) الأنعام: الآية (١٢٤).
(٧) الحج: الآية (٧٥).
(٨) غافر: الآيتان (١٥-١٦).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٥٦).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- معرّفا خلقه حجته عليهم في توحيده، وأنه لا تصلح الألوهة إلا له: خلق ربكم أيها الناس السموات والأرض بالعدل وهو الحقّ منفردا بخلقها لم يشركه في إنشائها وإحداثها شريك ولم يعنه عليه معين، فأنى يكون له شريك ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول -جلَّ ثناؤه-: علا ربكم أيها القوم عن شرككم ودعواكم إلها دونه، فارتفع عن أن يكون له مثل أو شريك أو ظهير؛ لأنه لا يكون إلها إلا من يخلق وينشئ بقدرته مثل السموات والأرض ويبتدع الأجسام فيحدثها من غير شيء، وليس ذلك في قُدرة أحد سوى اللَّه الواحد القَّهار الذي لا تنبغي العبادة إلا له ولا تصلح الألوهة لشيء سواه»(١).

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السماوات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث، بل ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾(٢).

ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئًا وهم يخلقون فكيف ناسب أن يعبد معه غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له»(٣).

وفي الآية -**يقول ابن عاشور**-: «دليل على أن ما يخلق لا يوصف بالإلهية كما أنبأ عنه التفريع عقب هذه الأدلّة بقوله الآتي: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٤).

والاستدلال بخلق السماوات والأرض أكبر من سائر الأدلّة وأجمع لأنها

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٧٨).
(٢) النجم: الآية (٣١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٥٦).
(٤) النحل: الآية (١٧).

محوية لهما، ولأنهما من أعظم الموجودات، فلذلك ابتدِئ بهما، لكن ما فيه من إجمال المَحويات اقتضى أن يعقّب بالاستدلال بأصناف الخلق والمخلوقات فثُنِّي بخلق الإنسان وأطواره، وهو أعجب الموجودات المشاهدة، ثم بخلق الحيوان وأحواله لأنه يجمع الأنواع التي تلي الإنسان في إتقان الصنع مع ما في أنواعها من المنن، ثم بخلق ما به حياة الإنسان والحيوان وهو الماء والنبات، ثم بخلق أسباب الأزمنة والفصول والمواقيت، ثم بخلق المعادن الأرضية، وانتقل إلى الاستدلال بخلق البحار، ثم بخلق الجبال والأنهار والطرقات، وعلامات الاهتداء في السير. وسيأتي تفصيله»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١٠٠-١٠١).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

نطفة: النطفة هنا المني الذي يخلق منه الإنسان.

خصيم: أي شديد الخصومة، وهي المنازعة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومن حججه عليكم أيضا أيها الناس، أنه خلق الإنسان من نطفة، فأحدث من ماء مهين خلقا عجيبا، قلبه تارات خلقا بعد خلق في ظلمات ثلاث، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا بعد ما تمَّ خلقه ونفخ فيه الروح، فغذاه ورزقه القوت ونماه، حتى إذا استوى على سوقه كفر بنعمة ربه وجحد مدبره وعبد من لا يضرّ ولا ينفع، وخاصم إلهه، فقال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾[1] ونسِي الذي خلقه فسوّاه خلقا سويا من ماء مهين، ويعني بالمبين: أنه يبين عن خصومته بمنطقه، ويجادل بلسانه، فذلك إبانته، وعنى بالإنسان: جميع الناس، أخرج بلفظ الواحد، وهو في معنى الجميع»[2].

قال ابن عطية: «قوله: ﴿خَصِيمٌ﴾ يحتمل أن يريد به الكفرة الذين يختصمون في اللّه ويجادلون في توحيده وشرعه، ذكره ابن سلام عن الحسن البصري. ويحتمل أن يريد أعم من هذا على أن الآية تعديد نعمة الذهن والبيان على البشر، ويظهر أنها إذا تقدر في خصام الكافرين ينضاف إلى العبرة وعيد ما»[3].

قال ابن عاشور: «وقد ذُكر للاعتبار بخلق الإنسان ثلاثة اعتبارات: جنسُه المعلومُ بماهيته وخواصه من الحيوانية والناطقية وحسن القوام، وبقيةُ أحوال

---

(١) يس: الآية (٧٨).

(٢) جامع البيان (١٤/ ٧٨).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٣٧٩).

كونه، ومبدأ خلقه وهو النطفة التي هي أمهن شيء نشأ منها أشرف نوع، ومنتهى ما شرفه به وهو العقل. وذلك في جملتين وشبه جملة ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾..

فإقحام حرف المفاجأة جعل الكلام مفهمًا أمرين هما: التعجيب من تطوّر الإنسان من أمهن حالة إلى أبدع حالة، وهي حالة الخصومة والإبانة الناشئتين عن التفكير والتعقل، والدلالة على كفرانه النعمة وصرفه ما أنعم به عليه في عصيان المنعِم عليه. فالجملة في حدّ ذاتها تنويه، وبضميمة حرف المفاجأة أدمجت مع التنويه التعجيب. ولو قيل: فهو خصيم أو فكان خصيمًا لم يحصل هذا المعنى البليغ»[1].

قال الشنقيطي: «وقوله -جل وعلا-: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أظهر القولين فيه: أنه ذم للإنسان المذكور، والمعنى: خلقناه ليعبدنا ويخضع لنا ويطيع؛ ففاجأ بالخصومة والتكذيب، كما تدل عليه (إذَا) الفجائية، ويوضح هذا المعنى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، مع قوله -جل وعلا-: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[3]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾[4]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾[5]، إلى غير ذلك من الآيات»[6].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الإنسان خلق ليكون عبدًا لا ضدًّا

* عن بسر بن جحاش القرشي: «أن النبي ﷺ بزق يومًا في كفه فوضع عليها

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١٠٢-١٠٣).
(٢) الذاريات: الآية (٥٦).
(٣) يس: الآيات (٧٧-٧٩).
(٤) الفرقان: الآيتان (٥٤-٥٥).
(٥) مريم: الآيتان (٦٦-٦٧).
(٦) أضواء البيان (٣/ ١٩٥).

إصبعه ثم قال: قال الله: ابنَ آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمَعت ومنَعت حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتَصَدَّق، وأنّى أوان الصدقة»[1].

★ غريب الحديث:

عدَّلتُكَ: من التعديل: أي: قومتك وجعلتك معتدلا معدل الخلق.

بُرْدَين: البرد: ثوب أو كساء.

وئيد: وئيد الأرض: شدة الوطء على الأرض يسمع كالدوي من بعد.

التراقي: العظام المكتنفة لنقرة النحر عن يمين وشمال، وواحدة التراقي: ترقوة ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاء على الموت.

★ فوائد الحديث:

فيه التنبيه على أن جنس الإنسان خلق من نطفة ضعيفة مهينة، فلما استوى واعتدل، وقوي بدنه، مشى متكبرًا، وترك النظر في أصل خلقه، وفي أمر خالقه، مع أنه فقير إلى اللَّه فقرًا مطلقًا.

قال ابن القيم: «والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه كما أخبر عن ذاته المقدسة، وحقيقته أنه غني حميد، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرًا ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنيًا كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدًا، والرب إلا ربًا.

فالفقر فقران: فقر اضطراري، وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحا ولا ذما ولا ثوابا ولا عقابا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا.

---

(١) أحمد (٤/ ٢١٠)، وابن ماجه (٢/ ٩٠٣/ ٢٧٠٧) قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح». وكذا صحح إسناده ابن حجر في «الإصابة» (١/ ٢٩١) وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٠٩٩).

والفقر الثاني فقر اختياري هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما معرفة العبد بربه، والثاني معرفته بنفسه، فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرًا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين، فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل، فاللَّه سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ولا يقدر على شيء، ولا يملك شيئًا، ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع، ولا شيء البتة، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمرًا مشهودًا محسوسًا لكل أحد، ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها، وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى، بل لم يزل عبدًا فقيرًا بذاته إلى بارئه وفاطره، فلما أسبغ عليه نعمته وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهرًا وباطنًا، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه وأقدره وصرفه وحركه، ومكنه من استخدام بني جنسه، وسخر له الخيل والإبل، وسلطه على دواب الماء واستنزال الطير من الهواء، وقهر الوحش العادية، وحفر الأنهار وغرس الأشجار، وشق الأرض وتعلية البناء، والتحيل على مصالحه، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه، ظن المسكين أن له نصيبا من الملك، وادعى لنفسه ملكًا مع اللَّه سبحانه، ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة، حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأن ذلك شخصا آخر غيره، كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بسر بن جحاش القرشي أن رسول اللَّه ﷺ بصق يوما في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: قال اللَّه تعالى: يا ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق؛ وأنى أوان الصدقة. ومن ههنا خذل من خذل، ووفق من وفق، فحجب المخذول عن حقيقته، ونسي نفسه فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه فطغى وعتا، فحقت عليه الشقوة، قال

تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[١] وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[٢] فأكمل الخلق أكملهم عبودية، وأعظمهم شهودا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين»[٣].

* * *

(١) العلق: الآيتان (٦-٧).

(٢) الليل (٥-١٠).

(٣) طريق الهجرتين (٩-١٠).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾

★ **غريب الآية:**

دفء: الدفء: اسم لما يدفأ به من البرد؛ أي: ما يتخذ من أصوافها وأوبارها من الأكسية والأخبية مما يمنع البرد.

تريحون: الرواح: رجوع الماشية عشيًّا من المرعى.

تسرحون: السراح: إرسال الأنعام للرعي.

شق الأنفس: أي بجهد جهيد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة، ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وهو وقت رجوعها عشيا من المرعى، فإنها تكون أمده خواصر وأعظمه ضروعا وأعلاه أسنمة. ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي غدوة حين تبعثونها إلى المرعى ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل كقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ

وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾[٢] ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾[٣] وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[٤]»[٥].

قال القرطبي: «منَّ اللَّه سبحانه بالأنعام عمومًا، وخص الإبل هنا بالذكر في حمل الأثقال على سائر الأنعام، فإن الغنم للسرح والذبح، والبقر للحرث، والإبل للحمل. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها التفتت إليه البقرة فقالت: إني لم أخلق لهذا، ولكني إنما خلقت للحرث**. فقال الناس: سبحان اللَّه -تعجبًا وفزعًا- أبقرة تكلم؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: **وإني أومن به وأبو بكر وعمر**»[٦]. فدل هذا الحديث على أن البقر لا يحمل عليها ولا تركب وإنما هي للحرث وللأكل والنسل والرسل»[٧].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في لزوم رفق العبد بالدواب والإحسان إليها

* عن عروة البارقي أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الإبل عز لأهلها، والغنم بركة، والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة**»[٨].

---

(١) المؤمنون: الآيتان (٢١-٢٢). (٢) غافر: الآيات (٧٩-٨١).
(٣) يس: الآيتان (٧١-٧٢). (٤) الزخرف: الآيات (١٢-١٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٥٧-٥٥٨).
(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٥-٢٤٦)، والبخاري (٦/ ٦٣٥/ ٣٤٧١)، ومسلم (٤/ ١٨٥٧-١٨٥٨/ ٢٣٨٨[١٣])، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧/ ٨١١١). (٧) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٧٢).
(٨) رواه: ابن ماجه (٢/ ٧٧٣/ ٢٣٠٥)، وأبو يعلى (١٢/ ٢٠٨/ ٦٨٢٨)، وأصله في البخاري (٦/ ٦٧-٦٨/ ٢٨٥٠) ومسلم (٣/ ١٤٩٣/ ١٨٧٣) مختصرًا. قال البوصيري في الزوائد (٢/ ٢٧): «إسناده صحيح على شرط الشيخين بل بعضه في الصحيحين بهذا الوجه وإنما انفرد ابن ماجه بذكر الإبل والغنم فلذلك ذكرته».

★ **غريب الحديث:**

معقود: وفي رواية: «معقوص». ومعناه: ملوي مضفور فيها.

نواصي: المراد بالناصية: الشعر المسترسل على الجبهة. قال الخطابي وغيره: «وكنَّى بالناصية عن جميع ذات الفرس. يقال: فلان مبارك الناصية، ومبارك الغرة؛ أي: الذات».

★ **فوائد الحديث:**

فيه فضل الإبل والغنم من بين الأنعام المذكورة في الآية.

قال ابن العربي: «إنما جمع النبي ﷺ العز في الإبل؛ لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزو، وإن نقصها الكر والفر.

وجعل البركة في الغنم لما فيها من اللباس والطعام والشراب، وكثرة الولادة، فإنها تلد في العام ثلاث مرات، إلى ما يتبعها من السكينة، وتحمل صاحبها عليه من خفض الجناح، ولين الجانب، بخلاف الفدادين أهل الإبل.

وقرن ﷺ الخير بنواصي الخيل بقية الدهر، لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش، وما توصل إليه من قهر الأعداء، وغلبة الكفار، وإعلاء كلمة الله»[١].

وقال البغوي: «فيه الترغيب في اتخاذ الخيل، وفيه أن الجهاد لا ينقطع أبدًا وفيه أن المال الذي يكتسبه بها خير مال»[٢].

وقال الخطابي: «فيه إعلام أن المال الذي يكتسب بإيجاف الخيل من خير وجوه الأموال وأطيبها، والعرب تسمي المال خيرًا. ومنه قول اللَّه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[٣] أي: مالًا، وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾[٤] أي: الخيل»[٥].

(١) أحكام القرآن (٣/ ١١٤٢).
(٢) شرح السنة (١٠/ ٣٨٦).
(٣) البقرة: الآية (١٨٠).
(٤) ص: الآية (٣٢).
(٥) أعلام الحديث (٢/ ١٣٧٤).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السنة فأسرعوا عليها في السير، وإذا عرستم بالليل فاجتنبوا الطريق فإنها مأوى الهوام بالليل**»[١].

★ غريب الحديث:

الخصب: هو كثرة العشب والمرعى، وهو ضد الجدب.

السنة: هي القحط، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾[٢] أي: بالقحوط.

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «والرفق المذكور في هذا الحديث أشير به إلى الرفق بالدواب في الأسفار، وأمر المسافر في الخصب بأن يمشي رويدا ومهلا، ويكثر النزول لترعى دابته وتأكل من الكلأ وتنال من الحشيش والماء. هذا كله إذا كانت الأرض مخصبة، والسفر بعيدا، ولم تضم صاحبه ضرورة إلى أن يجدّ في السير، فإذا كان عام السَّنة وأجدبت الأرض؛ فالسُّنة للمسافر أن يسرع السير ويسعى في الخروج عنها وبدابته شيء من الشحم والقوة إلى أرض الخصب»[٣].

قال القرطبي: «فالدواب عجم لا تقدر أن تحتال لنفسها ما تحتاج إليه، ولا تقدر أن تفصح بحوائجها، فمن ارتفق بمرافقتها ثم ضيعها من حوائجها فقد ضيع الشكر وتعرض للخصومة بين يدي اللَّه تعالى»[٤].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر فإن اللَّه إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم**»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٣٧)، ومسلم (٣/ ١٥٢٥/ ١٩٢٦)، وأبو داود (٣/ ٦٠/ ٢٥٦٩)، والترمذي (٥/ ١٣٢/ ٢٨٥٢).

(٢) الأعراف: الآية (١٣٠).

(٣) فتح البر (٨/ ١٥-١٦).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٧٣).

(٥) أخرجه: أبو داود (٣/ ٥٩/ ٢٥٦٧)، والبيهقي (٥/ ٢٥٥). قال الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٢): «وهذا سند صحيح: يحيى بن أبي عمرو السيباني ثقة، ووقع في ترجمة أبي مريم من التهذيب: الشيباني، بالشين المعجمة، وهو تصحيف».

تنبيه: وقع في نسخة سنن أبي داود: ابن أبي مريم، والصواب: أبو مريم.

* عن معاذ بن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**اركبوا هذه الدواب سالمة، وايتدعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي**»[١].

★ غريب الحديثين:

ايْتَدِعُوها: أي: اتركوها، ورفهوا عنها إذا لم تحتاجوا إلى ركوبها، وهو (افتعل) من (وَدُعَ) -بالضم- وداعة ودعة؛ أي: سكن وترفَّهَ[٢].

★ فوائد الحديثين:

بَيَّن النبي ﷺ ما يجب علينا تجاه الدواب التي نركبها. فإن اللَّه سخّرها لنا لنركبها ونسافر عليها، ولا ينبغي الجلوس عليها واتخاذها كراسي ومنابر لذلك جاء التحذير شديدًا.

قال القاري: «والمعنى: لا تجلسوا على ظهورها فتوقفونها وتتحدثون بالبيع والشراء وغير ذلك، بل انزلوا واقضوا حاجاتكم ثم اركبوا».

وقال الخطابي: «إنه قد ثبت عنه ﷺ أنه خطب على راحلته واقفًا، فدلّ على أن الوقوف على ظهورها إذا كان لإرب أو بلوغ وطر لا يدرك مع النزول إلى الأرض جائز، وأن النهي انصرف إلى الوقوف عليها لا لمعنى يوجبه بأن يستوطنه الإنسان ويتخذه مقعدًا، فيتعب الدابة ويضر بها من غير طائل»[٣].

وقال ابن القيم: «وأما وقوف النبي ﷺ على راحلته في حجة الوداع وخطبته عليها. فذاك غير ما نهى عنه، فإن هذا عارض لمصلحة عامة في وقت ما لا يكون دائمًا، ولا يلحق الدابة منه من التعب والكلال ما يلحقها من اعتياد ذلك لا لمصلحة، بل يستوطنها ويتخذها مقعدًا يناجي عليها الرجل، ولا ينزل إلى الأرض فإن ذلك يتكرر ويطول بخلاف خطبته ﷺ على راحلته ليسمع الناس ويعلمهم أمور الإسلام وأحكام النسك فإن هذا لا يتكرر ولا يطول ومصلحته عامة»[٤].

---

(١) أحمد (٣/ ٤٤٠)، (٤/ ٢٣٤)، والحاكم (١/ ٤٤٤)، (٢/ ١٠٠) وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان (١٢/ ٤٣٧/ ٥٦١٩).

(٢) قاله ابن الأثير في النهاية.

(٣) معالم السنن (٢/ ٢١٩).

(٤) عون المعبود (٧/ ٢٣٥).

* عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**لو غفر لكم ما تأتون إلى البهائم لغفر لكم كثير**»(١).

★ **فوائد الحديث:**

في الحديث: التحذير من إيذاء البهائم وعدم تكليف الدابة ما لا تطيقه على الدوام، وتجنب الضرب لاسيما الوجه وعلى المقاتل، وتعهدهم بالعلف والسقي، والتحذير من الغفلة عن ذلك.

وقوله: «**لو غفر لكم ما تأتون إلى البهائم**» أي: بضرب وعسف وتحميل فوق الطاقة(٢).

* * *

(١) أحمد (٦/ ٤٤١). قال الهيثمي (١٠/ ١٩٠-١٩١): «رواه أحمد مرفوعًا كما تراه، ورواه ابنه عبدالله موقوفًا وإسناده جيد». وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣١٣): «رواه أحمد والبيهقي مرفوعًا هكذا ورواه عبدالله في زياداته موقوفًا على أبي الدرداء وإسناده أصح وهو أشبه». وانظر الصحيحة (٥١٤).

(٢) أفاده المناوي في «فيض القدير» (٥/ ٣٢١).

قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وخلق الخيل والبغال والحمير لكم أيضا لتركبوها وزينة يقول: وجعلها لكم زينة تتزينون بها مع المنافع التي فيها لكم للركوب وغير ذلك، ونصب الخيل والبغال عطفًا على الهاء والألف في قوله: خلقها، ونصب الزينة بفعل مضمر على ما بينت ولو لم يكن معها واو كان الكلام لتركبوها زينة كانت منصوبة بالفعل الذي قبلها الذي هي به متصلة، ولكن دخول الواو آذنت بأن معها ضمير فعل وبانقطاعها عن الفعل الذي قبلها»[1].

وقال: « ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ويخلق ربكم مع خلقه هذه الأشياء التي ذكرها لكم ما لا تعلمون مما أعد في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها مما لم تره عين ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر»[2].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه يخلق ما لا يعلم المخاطبون وقت نزولها، وأبهم الذي يخلقه لتعبيره عنه بالموصول ولم يصرح هنا بشيء منه، ولكن قرينة ذكر ذلك في معرض الامتنان بالمركوبات تدل على أن منه ما هو من المركوبات، وقد شوهد ذلك في إنعام اللَّه على عباده بمركوبات لم تكن معلومة وقت نزول الآية، كالطائرات، والقطارات، والسيارات.

وقد ذكر في موضع آخر: أنه يخلق ما لا يعلمه خلقه غير مقترن بالامتنان بالمركوبات، وذلك في قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]»[4].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٨١).
(٢) نفس المصدر (١٤/ ٨٣).
(٣) يس: الآية (٣٦).
(٤) أضواء البيان (٣/ ١٩٩-٢٠٠).

قال ابن عاشور: « ﴿وَيَخْلُقُ﴾ مضارع مراد به زمن الحال لا الاستقبال؛ أي: هو الآن يخلق ما لا تعلمون أيها الناس مما هو مخلوق لنفعهم وهم لا يشعرون به، فكما خلق لهم الأنعام والكراع خلق لهم ويخلق لهم خلائق أخرى لا يعلمونها الآن، فيدخل في ذلك ما هو غير معهود أو غير معلوم للمخاطبين وهو معلوم عند أمم أخرى كالفيل عند الحبشة والهنود، وما هو غير معلوم لأحد ثم يعلمه الناس من بعد مثل دواب الجهات القطبية كالفقمة والدُب الأبيض، ودواب القارة الأمريكية التي كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن، فيكون المضارع مستعملًا في الحال للتجديد، أي هو خالق ويخلق.

ويدخل فيه كما قيل ما يخلقه اللَّه من المخلوقات في الجنة، غير أن ذلك خاصّ بالمؤمنين، فالظاهر أنه غير مقصود من سياق الامتنان العام للناس المتوسّل به إلى إقامة الحجّة على كافري النعمة.

فالذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنها إيماء إلى أن اللَّه سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه وتسمى (بسكلات)، وأرتال السكك الحديدية، والسيارات المسيّرة بمصفّى النفط وتسمى (أطوموبيل)، ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصفّى في الهواء. فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها.

وإلهام اللَّه الناس لاختراعها هو ملحق بخلق اللَّه، فاللَّه هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرجوا في سلّم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأن الكلّ من نعمته»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل اتخاذ الخيل وبيان بعض أحكامها وتحريم أكل لحوم الحمر

* عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال: «نهى رسول اللَّه ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ١١٠-١١١).

ورخص في الخيل»(١).

* عن أسماء قالت: «نحرنا فرسًا على عهد رسول الله ﷺ فأكلناه»(٢).

⋆ فوائد الحديثين:

اختلف العلماء في إباحة لحوم الخيل. فمذهب الشافعي والجمهور من السلف والخلف أنه مباح لا كراهة فيه. وكرهها طائفة منهم ابن عباس ومالك وأبو حنيفة واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾.

قال ابن حجر: «وأما ما نقل عن ابن عباس ومالك وغيرهما من الاحتجاج للمنع بقوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فقد تمسك بها أكثر القائلين بالتحريم وقرروا ذلك بأوجه:

أحدها: أن اللام للتعليل، فدل على أنها لم تخلق لغير ذلك؛ لأن العلة المنصوصة تفيد الحصر، فإباحة أكلها تقتضي خلاف ظاهر الآية.

ثانيها: عطف البغال والحمير، فدل على اشتراكها معها في حكم التحريم، فيحتاج من أفرد حكمها عن حكم ما عطفت عليه إلى دليل.

ثالثها: أن الآية سيقت مساق الامتنان، فلو كانت ينتفع بها في الأكل لكان الامتنان به أعظم لأنه يتعلق به بقاء البنية بغير واسطة، والحكيم لا يمتن بأدنى النعم ويترك أعلاها ولاسيما وقد وقع الامتنان بالأكل في المذكورات قبلها.

رابعها: لو أبيح أكلها لفاتت المنفعة بها فيما وقع به الامتنان من الركوب والزينة. هذا ملخص ما تمسكوا به من هذه الآية.

والجواب على سبيل الإجمال: أن آية النحل مكية اتفاقًا، والإذن في أكل الخيل كان بعد الهجرة من مكة بأكثر من ست سنين، فلو فهم النبي ﷺ من الآية المنع لما أذن في الأكل. وأيضًا فآية النحل ليست نصًا في منع الأكل، والترك أعم من أن

---

(١) أحمد (٣/ ٣٦١)، والبخاري (٧/ ٦١١/ ٤٢١٩)، ومسلم (٣/ ١٥٤١/ ١٩٤١)، وأبو داود (٤/ ١٥٠/ ٣٧٨٨)، والترمذي (٤/ ٢٢٣/ ١٧٩٣).

(٢) أحمد (٦/ ٣٤٥-٣٤٦-٣٥٣)، والبخاري (٩/ ٨٠٩/ ٥٥١٩)، ومسلم (٣/ ١٥٤١/ ١٩٤٢)، وابن ماجه (٢/ ١٠٦٤/ ٣١٩٠).

يكون للتحريم أو التنزيه أو خلاف الأولى. وإذا لم يتعين واحد منها بقي التمسك بالأدلة المصرحة بالجواز.

وعلى سبيل التفصيل:

أما أولًا: فلو سلمنا أن اللام للتعليل، لم نسلم إفادة الحصر في الركوب والزينة، فإنه ينتفع بالخيل في غيرهما وفي غير الأكل اتفاقًا. وإنما ذكر الركوب والزينة لكونهما أغلب ما تطلب له الخيل. ونظيره حديث البقرة المذكور في الصحيحين حين خاطبت راكبها فقالت: «**إنّا لم نُخلق لهذا، إنما خُلقنا للحرث**»[١] فإنه مع كونه أصرح في الحصر لم يقصد به الأغلب، وإلا فهي تؤكل وينتفع بها في أشياء غير الحرث اتفاقًا. وأيضًا فلو سلم الاستدلال للزم منع حمل الأثقال على الخيل والبغال والحمير ولا قائل به.

وأما ثانيًا: فدلالة العطف إنما هي دلالة اقتران وهي ضعيفة.

وأما ثالثًا: فالامتنان إنما قصد به غالبًا ما كان يقع به انتفاعهم بالخيل فخوطبوا بما ألفوا وعرفوا، ولم يكونوا يعرفون أكل الخيل لعزتها في بلادهم بخلاف الأنعام فإن أكثر انتفاعهم بها كان لحمل الأثقال وللأكل فاقتصر في كل من الصنفين على الامتنان بأغلب ما ينتفع به فلو لزم من ذلك الحصر في هذا الشق للزم مثله في الشق الآخر.

وأما رابعًا: فلو لزم من الإذن في أكلها أن تفنى للزم مثله في البقر وغيره مما أبيح أكله ووقع الامتنان بمنفعة له أخرى، والله أعلم»[٢].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيل لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر. فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طِيَلِها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنه انقطع طيلها فاستنت شرفًا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي كان ذلك حسنات له، فهي لذلك أجر.**

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) فتح الباري (١١/ ٨٥).

ورجل ربطها تغنّيا وتعففًا ثم لم ينس حق اللَّه في رقابها ولا ظهورها؛ فهي لذلك ستر. ورجل ربطها فخرًا ورئاء ونِوَاء لأهل الإسلام فهي على ذلك وزر. وسئل رسول اللَّه ﷺ عن الحمر فقال: **ما أنزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾**[1]»[2].

★ غريب الحديث:

طِيَلِها: بكسر الطاء المهملة وفتح التحتانية بعدها لام: هو الحبل الذي تربط به ويطول لها لترعى ويقال له طول بالواو المفتوحة أيضًا.

المرج: موضع الكلأ وأكثر ما يطلق على الموضع المطمئن والروضة أكثر ما تطلق على الموضع المرتفع.

فخرًا: تعاظمًا.

رياءً: إظهارًا للطاعة والباطن بخلاف ذلك.

نواءً: بكسر النون والمد: هو مصدر، تقول: نوأت العدو مناوأة ونواء، وأصله من ناء: إذا نهض، ويستعمل في المعاداة، قال الخليل: ناوأت الرجل: ناهضته بالعداوة.

★ فوائد الحديث:

في الحديث فضل الخيل وفضل اتخاذها.

قال الحافظ ابن عبد البر: «وفي هذا الحديث من الفقه أن الأعيان لا يؤجر المرء في اكتسابها، إنما يؤجر في استعمال ما ورد الشرع بعمله من النية التي تزكو بها الأعمال إذا نوى بها صاحبها وجه اللَّه والدار الآخرة وما يقربه من ربه إذا كان ذلك على سنة. ألا ترى أن الخيل أجر لمن اكتسبها ووزر على من اكتسبها على ما جاء به الحديث، وهي جنس واحد».

---

(١) الزلزلة: الآيتان (٧و٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨٣)، والبخاري (٥/ ٥٨/ ٢٣٧١)، ومسلم (٢/ ٦٨٠/ ٩٨٧)، والترمذي (٤/ ١٤٨/ ١٦٣٦)، والنسائي (٦/ ٥٢٥-٥٢٦/ ٣٥٦٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٢/ ٢٧٨٨).

ثم قال: «وفيه أن الحسنات تكتب للمرء إذا كان له فيها سبب وإن لم يقصدها، تفضلًا من اللَّه تعالى على عباده المؤمنين ورحمة منه بهم. وليس هذا حكم اكتساب السيئات إن شاء اللَّه، يدلك على ذلك أنه لم يذكر في هذا الحديث حركات الخيل وتقلبها في سيئات المفتخر بها، كما ذكر ذلك في حسنات المحتسب المريد بها البر، ألا ترى أنها لو قطعت حبلها نهارًا فأفسدت زرعًا أو رمحت، فقتلت أو جنت أن صاحبها بريء من الضمان عند جميع أهل العلم. ويبين ذلك أيضًا قوله في هذا الحديث: «**ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات**».

وفي هذا دليل على أن المسلم إذا صنع شيئًا يريد به اللَّه ﷻ، فكل ما كان بسبب منه وإليه، كان له حكمه في الأجر. واللَّه أعلم»[(١)].

وقال: «في هذا الحديث الحض على اكتساب الخيل وتفضيلها على سائر الدواب؛ لأنه ﷺ لم يأت عنه في غيرها مثل هذا القول؛ وذلك تعظيم منه لشأنها، وحض على اكتسابها. وندب إلى ارتباطها في سبيل اللَّه عدة للقاء العدو، إذ هي أقوى الآلات في جهاده؛ فهذه الخيل المعدة للجهاد، هي التي في نواصيها الخير»[(٢)].

* عن ابن عمر ﵄: «أن رسول اللَّه ﷺ جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهمًا». وقال مالك: يسهم للخيل والبراذين منها لقوله: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا﴾ ولا يسهم لأكثر من فرس[(٣)].

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال ابن بطال: وجه الاحتجاج بالآية أن اللَّه تعالى امتنّ بركوب الخيل، وقد أسهم لها رسول اللَّه ﷺ واسم الخيل يقع على البرذون والهجين بخلاف البغال والحمير، وكأن الآية استوعبت ما يركب من هذا الجنس لما يقتضيه الامتنان،

---

(١) فتح البر (٨/ ٢٣). (٢) فتح البر (٨/ ٣٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣)، والبخاري (٦/ ٨٣/ ٢٨٦٣)، ومسلم (٤/ ١٣٨٣/ ١٧٦٢)، وأبو داود (٣/ ١٧٢-١٧٣/ ٢٧٣٣)، والترمذي (٤/ ١٠٥/ ١٥٥٤)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٢/ ٢٨٥٤).

فلما لم ينص على البرذون والهجين فيها دل على دخولها في الخيل»[١].

قال الخطابي: «فيه بيان أن الفارس يأخذ في المغنم ثلاثة أسهم: سهمًا باسمه وسهمين باسم فرسه، وذلك لما يلزمه من زيادة مؤنة الفرس، ولما لفرسه من الغَناء والمعونة.

وأما ما جاء في سائر الروايات من قوله ﷺ: «**للفارس سهمان**» فإنما هما سهمَا فرسه، وسهمه لنفسه ثابت، والمجمل يرد إلى المفسر»[٢].

وقال ابن بطال: «قال المهلب: وفي قسمته ﷺ للفرس سهمين حض على اكتساب الخيل واتخاذها مما جعل اللَّه فيها من البركة في اعتلاء كلمته وإعزاز حزبه ولتعظم شوكة المسلمين بالخيل الكثيرة»[٣].

* عن علي بن أبي طالب قال: «**أهديت لرسول اللَّه ﷺ بغلة فركبها فقال علي: لو حملنا الحمير على الخيل لكانت لنا مثل هذه، قال رسول الله ﷺ: إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون**»[٤].

★ فوائد الحديث:

فيه جواز ركوب البغلة، وأصلها يأتي من حمل الحمير على الخيل ويسمى الإنزاء وقد كرهه النبي ﷺ لقوله في الحديث: «**إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون**» أي: لا يعلمون أحكام الشريعة[٥].

---

(١) فتح الباري (٦/ ١٥٨).

(٢) أعلام الحديث (٢/ ١٣٨١). (٣) شرح ابن بطال (٥/ ٦٨).

(٤) أحمد (١/ ١٠٠)، وأبو داود (٣/ ٥٨/ ٢٥٦٥)، والنسائي (٦/ ٥٣٣/ ٣٥٨٢)، وابن حبان (١٠/ ٥٣٦/ ٤٦٨٢) من طرق عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عبد اللَّه بن زرير الغافقي عن علي بن أبي طالب به.

ويزيد بن أبي حبيب ثقة وأبو الخير هو مرثد بن عبد اللَّه اليزني وهو ثقة له فضل وعبادة.

ورواه الإمام أحمد (١/ ٩٨) بإسناد آخر فيه علي بن علقمة الأنباري: ذكره ابن حبان في الثقات وترجمه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل فلم يذكر فيه جرحًا. وله شاهد من حديث دحية الكلبي الذي رواه الإمام أحمد (٤/ ٣١١). قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٦٥): «رواه أحمد والطبراني في الأوسط إلا أنه قال عن الشعبي عن دحية مرسل وهو عند أحمد عن الشعبي عن دحية ورجال أحمد رجال الصحيح خلا عمر بن حسيل من آل حذيفة ووثقه ابن حبان».

(٥) عون المعبود (٧/ ٢٣٣).

قال الخطابي: «يشبه أن يكون المعنى والله أعلم أن الحمر إذا حملت على الخيل تعطلت منافع الخيل وقلَّ عددها وانقطع نماؤها، والخيل يحتاج إليها للركوب والركض والطلب وعليها يجاهد العدو وبها تحرز الغنائم ولحمها مأكول ويسهم للفرس كما يسهم للفارس. وليس للبغل شيء من هذه الفضائل، فأحب ﷺ أن ينمو عدد الخيل، ويكثر نسلها، لما فيها من النفع والصلاح»[1].

وقال الطيبي: «أقول: لعل الإنزاء غير جائز والركوب والتزين به جائزان كالصور فإن عملها حرام واستعمالها في الفرش والبسط مباح»[2].

* * *

(١) معالم السنن (٢/ ٢١٨).

(٢) شرح الطيبي (٨/ ٢٦٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩﴾

★ **غريب الآية:**

قصد السبيل: أي: تبين الطريق الواضح المستقيم.

جائر: الجائر: المائل عن الحق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسَار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيرًا ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾[1]، وقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾[2].

ولما ذكر في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة -شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾[3]، وقال: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾[4].

قال مجاهد: في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله.

وقال السدي: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ قال: الإسلام.

---

(١) البقرة: الآية (١٩٧).
(٢) الأعراف: الآية (٢٦).
(٣) الأنعام: الآية (١٥٣).
(٤) الحجر: الآية (٤١).

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى اللَّه البيان؛ أي: تبين الهدى والضلال.

وكذا روى علي بن أبي طلحة، عنه، وكذا قال قتادة، والضحاك. وقولُ مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق؛ لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقًا تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريقُ الحق، وهي الطريق التي شَرَعها ورضيها وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: حائد مائل زائغ عن الحق.

قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة، والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: (ومنكم جائر).

ثم أخبر أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[1]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2]»[3].

* * *

(١) يونس: الآية (٩٩).

(٢) هود: الآيتان (١١٨-١١٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٦٠).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠﴾

★ غريب الآية:

شجر: أصل الشجر ما نبت على ساق وكان له أغصان وظل.

تسيمون: أي: ترسلون أنعامكم للرعي. من أَسَامَ الماشية: إذا تركها ترعى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم، في إنزال المطر من السماء -وهو العلو- مما لهم فيه بُلْغَة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾ أي: جعله عذبًا زلالا يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحا أجاجا.

﴿وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم به شجرًا ترعون فيه أنعامكم»[(١)].

وقال ابن عاشور: «استئناف لذكر دليل آخر من مظاهر بديع خلق اللّه تعالى أدمج فيه امتنان بما يأتي به ذلك الماء العجيب من المنافع للناس من نعمة الشراب ونعمة الطعام للحيوان الذي به قوام حياة الناس وللناس أنفسهم.

وصيغة تعريف المسند إليه والمسند أفادت الحصر؛ أي: هُوَ لا غيرُه. وهذا قصر على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأن المخاطبين لا ينكرون ذلك ولا يدّعون له شريكًا في ذلك، ولكنهم لما عَبدوا أصنامًا لم تنعم عليهم بذلك كان حالهم كحال من يدّعي أن الأصنام أنعمت عليهم بهذه النّعم، فنزلوا منزلة من يدّعي الشركة لله في الخلق، فكان القصر قصر إفراد تخريجًا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر»[(٢)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٦١).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ١١٣).

قال القنوجي: «وهذه الآية مبنية على مكارم الأخلاق، وهو أن يكون اهتمام الإنسان بمن تحت يده أكمل من اهتمامه بنفسه»[١].

* * *

(١) فتح البيان (٧/ ٢١٥).

قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يُنبت لكم ربكم بالماء الذي أنزل لكم من السماء زرعَكم وزيتونَكم ونخيلكم وأعنابكم، ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يعني: من كلّ الفواكه غير ذلك أرزاقا لكم وأقواتا وإداما وفاكهة، نعمة منه عليكم بذلك وتفضّلا وحُجة على من كفر به منكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ يقول -جلَّ ثناؤه-: إن في إخراج اللَّه بما ينزل من السماء من ماء ما وصف لكم ﴿لَأٓيَةٗ﴾ يقول: لدلالة واضحة، وعلامة بينة ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول: لقوم يعتبرون مواعظ اللَّه، ويتفكَّرون في حججه، فيتذكرون وينيبون»[(١)].

قال الخازن: «لما ذكر اللَّه في الحيوان تفصيلًا وإجمالًا، ذكر الثمار تفصيلًا وإجمالًا، فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذي يقتات به كالحنطة والشعير وما أشبههما؛ لأن به قوام بدن الإنسان، وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الأدم والدهن والبركة، وثلث بذكر النخيل لأن ثمرتها غذاء وفاكهة، وختم بذكر الأعناب لأنها شبه النخلة في المنفعة من التفكه والتغذية، ثم ذكر سائر الثمرات إجمالًا لينبه بذلك على عظيم قدرته، وجزيل نعمته على عباده»[(٢)].

قال أبو السعود: « ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في إنزال الماءِ وإنباتِ ما فُصّل ﴿لَأٓيَةٗ﴾ عظيمةً دالةً على تفرده تعالى بالألوهية لاشتماله على كمال العلم والقدرةِ والحكمة ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن من تفكر في أن الحبةَ أو النواة تقع في الأرض وتصِل إليها نداوةٌ تنفُذ فيها فينشق أسفلُها فيخرُج منه عروق تنبسط في أعماق الأرضِ، وينشق

(١) جامع البيان (١٤/ ٨٧).
(٢) تفسير الخازن (٣/ ١٠٨).

أعلاها وإن كانت منتكِسةً في الوقوع ويخرج منه ساقٌ فينمو ويخرج منه الأوراقُ والأزهارُ والحبوبُ والثمار المشتملةُ على أجسام مختلفةِ الأشكال والألوان والخواصِّ والطبائع، وعلى نواة قابلةٍ لتوليد الأمثالِ على النمط المحرر لا إلى نهاية مع اتحاد الموادِّ واستواءِ نسبة الطبائعِ السفلية والتأثيراتِ العلوية بالنسبة إلى الكل، عَلم أن مَنْ هذه أفعالُه وآثارُه لا يمكن أن يشبهه شيءٌ في شيء من صفات الكمال، فضلًا عن أن يشاركه أخسُّ الأشياء في أخص صفاتِه التي هي الألوهيةُ واستحقاقُ العبادة تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا»[1].

قلت: هذه كلمة طيبة من المفسر أبي السعود في ربط الألوهية بالربوبية، وأن الربوبية تذكر في كتاب اللَّه مفصلة بأدلتها حجة للألوهية، فمن عرف تفاصيل الربوبية كما ذكر في هذه الآيات، وما سبقها من الآيات علم بعقله وفطرته أن هذه الأفعال وهذه الصفات يستحيل أن تكون في المخلوقات، وأن المخلوقات مهما بلغت في العقل والذكاء والعظمة فهي مصنوعة مخلوقة خلقها خالق، وصنعها صانع، وليس لها مهمة إلا تحقيق الألوهية والعبودية للذي هذه صفاته في الربوبية، فلهذا كان أسفه الناس وأكثرهم حماقة وعبثا من صرف شيئا مما يختص بالخالق إلى المخلوق، فالعبودية والألوهية كلها له، وكل ما سواه فألوهيته باطلة.

* * *

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ١٠١).

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومن نعمه عليكم أيها الناس مع التي ذكرها قبل أن سخر لكم الليل والنهار يتعاقبان عليكم هذا لتصرفكم في معاشكم وهذا لسكنكم فيه، والشمس والقمر لمعرفة أوقات أزمنتكم وشهوركم وسنينكم وصلاح معايشكم ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ﴾ لكم بأمر اللّٰه تجري في فلكها لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن في تسخير اللّٰه ذلك على ما سخره لدلالات واضحات لقوم يعقلون حجج اللّٰه ويفهمون عنه تنبيهه إياهم»[١].

قال الخازن: «فيه رد على الفلاسفة والمنجمين لأنهم يعتقدون أن هذه النجوم هي الفعالة المتصرفة في العالم السفلي فأخبر اللّٰه تعالى أن هذه النجوم مسخرات في نفسها مذللات ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ يعني بأمر ربها مقهورات تحت قهره يصرفها كيف يشاء ويختار، وأنها ليس لها تصرف في نفسها فضلًا عن غيرها»[٢].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه سخر لخلقه خمسة أشياء عظام، فيها من عظيم نعمته ما لا يعلمه إلا هو، وفيها الدلالات الواضحات لأهل العقول على أنه الواحد المستحق لأن يعبد وحده.

والخمسة المذكورة هي: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم.

وكرر في القرآن ذكر إنعامه بتسخير هذه الأشياء، وأنها من أعزم أدلة وحدانيته واستحقاقه للعبادة وحده. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٨٧).

(٢) تفسير الخازن (٣/ ١٠٨-١٠٩).

مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، وإغشاؤه الليل النهار: هو تسخيرهما، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[3]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[4]، الآية، وقوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات»[6].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٥٤).
(٢) إبراهيم: الآية (٣٣).
(٣) يس: الآيات (٣٧-٣٩).
(٤) الملك: الآية (٥).
(٥) النحل: الآية (١٦).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٢٠٥-٢٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما نبه تعالى على معالم السموات؛ نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص، ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة امتنانه على خلقه بما سخر لهم مما خلق لهم في الأرض منبهًا على أن خلقه لما خلق لهم في الأرض مع ما فيه من النعم العظام، فيه الدلالة الواضحة لمن يذكر ويتعظ على وحدانيته واستحقاقه لأن يعبد وحده. وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٢] الآية، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٣] الآية. وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٤]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[٥].

وأشار في هذه الآية الكريمة إلى أن اختلاف ألوان ما خلق في الأرض من الناس والدواب وغيرهما من أعظم الأدلة على أنه خالق كل شيء، وأنه الرب وحده، المستحق أن يعبد وحده.

وأوضح هذا في آيات أخر. كقوله في سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٦١-٥٦٢).
(٢) البقرة: الآية (٢٩).
(٣) الجاثية: الآية (١٣).
(٤) الرحمن: الآيات (١٠-١٣).
(٥) الملك: الآية (١٥).

مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[١]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[٢]ولا شك أن اختلاف الألوان والمناظر والمقادير والهيئات وغير ذلك، فيه الدلالة القاطعة على أن اللَّه -جل وعلا- واحد، لا شبيه له ولا نظير ولا شريك، وأنه المعبود وحده.

وفيه الدلالة القاطعة على أن كل تأثير بقدرة وإرادة الفاعل المختار، وأن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته -جل وعلا-.

كما أوضح ذلك في قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣]، فالأرض التي تنبت فيها الثمار واحدة؛ لأن قطعها متجاورة، والماء الذي تسقى به ماء واحد، والثمار تخرج متفاضلة، مختلفة في الألوان والأشكال والطعوم، والمقادير والمنافع.

فهذا أعظم برهان قاطع على وجود فاعل مختار، يفعل ما يشاء كيف يشاء، سبحانه -جل وعلا- عن الشركاء والأنداد. ومن أوضح الأدلة على أن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته -جل وعلا- أن النار مع شدة طبيعة الإحراق فيها أُلقي فيها الحطبُ وإبراهيمُ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ولا شك أن الحطب أصلب وأقسى وأقوى من جلد إبراهيم ولحمه؛ فأحرقت الحطب بحرِّها، وكانت على إبراهيم بردًا وسلامًا لما قال لها خالقها: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[٤]فسبحان من لا يقع شيء كائنًا ما كان إلا بمشيئته -جل وعلا-، فعال لما يريد»[٥].

* * *

(١) فاطر: الآيتان (٢٧-٢٨).
(٢) الروم: الآية (٢٢).
(٣) الرعد: الآية (٤).
(٤) الأنبياء: الآية (٦٩).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٢٠٦-٢٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

مواخر: أصل المخر: شق الماء عن يمين وشمال. من مخرت السفينة الماء: إذا شَقَّتْهُ مع صوت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «لما ذكر اللَّه ﷻ الدلائل الدالة على قدرته، ووحدانيته من خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان من نطفة وخلق سائر الحيوان والنبات، وتسخير الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من آثار قدرته، وعجائب صنعته، وذكر إنعامه في ذلك على عباده، ذكر بعد ذلك إنعامه على عباده بتسخير البحر لهم نعمة من اللَّه عليهم، ومعنى تسخير اللَّه البحر لعباده جعله بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به، إما بالركوب عليه، أو بالغوص فيه، أو الصيد منه، فذكر هذه الثلاثة الأقسام من أنواع الانتفاع به فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فبدأ بذكر الأكل لأنه أعظم المقصود؛ لأن به قوام البدن، وفي ذكر الطري مزيد فائدة دالة على كمال قدرة اللَّه تعالى، وذلك أن السمك لو كان كله مالحًا لما عرف به من قدرة اللَّه تعالى، ما يعرف بالطري لأنه لما خرج من البحر الملح الزعاق، الحيوان الطري الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث بقدرة اللَّه، وخلقه لا بحسب الطبع، وعلم بذلك أن اللَّه قادر على إخراج الضد من الضد.

المنفعة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني: اللؤلؤ

والمرجان، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[(١)]، والمراد بلبسهم لبس نسائهم لأن زينة النساء بالحلي، وإنما هو لأجل الرجال فكان ذلك زينة لهم.

المنفعة الثالثة: قوله تعالى ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ يعني السفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ يعني جواري فيه، قال قتادة: مقبلة ومدبرة، وذلك أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والأخرى تدبر تجريان بريح واحدة، وأصل المخر في اللغة الشق يقال: مخرت السفينة مخرًا إذا شقت الماء بجؤجؤها. وقال مجاهد: تمخر الرياح السفن يعني أنها إذا جرت يسمع لها صوت، قال أبو عبيدة: يعني: صوائح، والمخر صوت هبوب الريح عند شدتها، وقال الحسن: مواخر يعني مواقر أي مملوءة متاعًا ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني الأرباح بالتجارة في البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يعني إنعام اللَّه عليكم إذا رأيتم نعم اللَّه فيما سخر لكم»[(٢)].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه سخر البحر؛ أي: ذلَّله لعباده حتى تمكنوا من ركوبه، والانتفاع بما فيه من الصيد والحلية، وبلوغ الأقطار التي تحول دونها البحار، للحصول على أرباح التجارات ونحو ذلك.

فتسخير البحر للركوب من أعظم آيات اللَّه. كما بينه في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٤)] إلى غير ذلك من الآيات.

وذكر في هذه الآية أربع نعم من نعمه على خلقه بتسخير البحر لهم:

الأولى: قوله: ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وكرر الامتنان بهذه النعمة في القرآن. كقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾[(٥)] الآية، وقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[(٦)] الآية.

الثانية: قوله: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وكرر الامتنان بهذه النعمة أيضًا

(١) الرحمن: الآية (٢٢).
(٢) تفسير الخازن (٣/ ١٠٩).
(٣) يس: الآيتان (٤١-٤٢).
(٤) الجاثية: الآية (١٢).
(٥) المائدة: الآية (٩٦).
(٦) فاطر: الآية (١٢).

في القرآن؛ كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1]، واللؤلؤ والمرجان: هما الحلية التي يستخرجونها من البحر للبسها، وقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[2].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ وكرر في القرآن الامتنان بشق أمواج البحر على السفن، كقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾[3] الآية، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾[4].

الرابعة: الابتغاء من فضله بأرباح التجارات بواسطة الحمل على السفن المذكور في قوله هنا: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي كأرباح التجارات. وكرر في القرآن الامتنان بهذه النعمة أيضًا؛ كقوله في سورة البقرة: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾[5]، وقوله في فاطر: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[6]، وقوله في الجاثية: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[7] إلى غير ذلك من الآيات»[8].

قوله: ﴿لَحْمًا﴾ قال القرطبي: «سماه هنا لحما واللحوم عند مالك ثلاثة أجناس: فلحم ذوات الأربع جنس، ولحم ذوات الريش جنس، ولحم ذوات الماء جنس.

فلا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلًا، ويجوز بيع لحم البقر والوحش بلحم الطير والسمك متفاضلًا، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسمك يجوز متفاضلًا.

وقال أبو حنيفة: اللحوم كلها أصناف مختلفة كأصولها، فلحم البقر صنف، ولحم الغنم صنف، ولحم الإبل صنف، وكذلك الوحش مختلف، وكذلك الطير، وكذلك السمك، وهو أحد قولي الشافعي.

---

(١) الرحمن: الآيتان (٢٢-٢٣).
(٢) فاطر: الآية (١٢).
(٣) يس: الآيتان (٤٢-٤٣).
(٤) إبراهيم: الآية (٣٢).
(٥) البقرة: الآية (١٦٤).
(٦) فاطر: الآية (١٢).
(٧) الجاثية: الآية (١٢).
(٨) أضواء البيان (٣/ ٢٠٨-٢٠٩).

والقول الآخر: أن الكل من النعم، والصيد والطير والسمك جنس واحد لا يجوز التفاضل فيه.

والقول الأول هو المشهور من مذهبه عند أصحابه.

ودليلنا هو أن اللَّه تعالى فرق بين أسماء الأنعام في حياتها فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾[١]، ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾[٢]، فلما أن أم بالجميع إلى اللحم قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾[٣] فجمعها بلحم واحد لتقارب منافعها كتقارب لحم الضأن والمعز.

وقال في موضع آخر: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾[٤]، وهذا جمع طائر الذي هو الواحد، لقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[٥]، فجمع لحم الطير كله باسم واحد.

وقال هنا: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ فجمع أصناف السمك بذكر واحد، فكان صغاره ككباره في الجمع بينهما»[٦].

قال الشنقيطي: «اختلاف العلماء في هذه المسألة من الاختلاف في تحقيق مناط نص من نصوص الشرع، وذلك أنه ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث عبادة بن الصامت ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد**»[٧] فعلم أن اختلاف الصنفين مناط جواز التفاضل. واتحادهما مناط منع التفاضل، واختلاف العلماء في تحقيق هذا المناط. فبعضهم يقول: اللحم جنس واحد يعبر عنه باسم واحد، فمناط منع التفاضل غير موجود. والعلم عند اللَّه تعالى»[٨].

قال ابن العربي: «اختلف علماؤنا فيمن حلف ألا يأكل لحما؛ فقال ابن

---

(١) الأنعام: الآية (١٤٣).

(٢) الأنعام: الآية (١٤٤).

(٣) المائدة: الآية (١).

(٤) الواقعة: الآية (٢١).

(٥) الأنعام: الآية (٣٨).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٨٥-٨٦).

(٧) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٢٠) ومسلم (٣/ ١٢١٠/ ١٥٨٧). أبو داود (٣/ ٦٤٣-٦٤٧/ ٣٣٤٩-٣٣٥٠). الترمذي (٣/ ٥٤١/ ١٢٤٠) والنسائي (٧/ ٣١٦-٣١٩/ ٤٥٧٨, ٤٥٧٤). ابن ماجه (٢/ ٧٥٧-٧٥٨/ ٢٢٥٤).

(٨) أضواء البيان (٣/ ٢١١).

القاسم: يحنث بكل نوع من هذه الأنواع الأربعة. وقال أشهب في المجموعة: لا يحنث إلا بأكل لحوم الأنعام دون الوحش وغيره، مراعاةً للعرف والعادة، وتقديما لها على إطلاق اللفظ اللغوي، وهذا يختلف في البلاد؛ فإنه من كان بِتِنِيس أو بالفرما[١] لا يرى لحمًا إلا الحوت، والأنعام قليلة فيها، فعرفها عكس عرف بغداد، فإنه لا أثر للحوت فيها، وإنما المعول على لحوم الأنعام، وإذا أجرينا اليمين على الأسباب؛ فسبب اليمين يدخل فيها ما لا يجري على العرف ويخرجه منها، والنية تقضي على ذلك كله. وقد يقول الرجل: أشتري لحمًا وحيتانًا فلا يعد تكرارًا، والذي أختاره -وإن لم يكن للحالف نية ولا سبب- ما قاله أشهب»[٢].

قوله: ﴿طَرِيًّا﴾ **قال الشنقيطي**: «لا مفهوم مخالفة لقوله: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾، فلا يقال: يفهم من التقييد بكونه طريًّا أن اليابس كالقديد مما في البحر لا يجوز أكله؛ بل يجوز أكل القديد مما في البحر بإجماع العلماء.

وقد تقرر في الأصول: أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون النص مسوقًا للامتنان. فإنه إنما قيد بالطري لأنه أحسن من غيره؛ فالامتنان به أتم»[٣].

قوله: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾؛ **قال القرطبي**: «امتن اللَّه سبحانه على الرجال والنساء امتنانا عاما بما يخرج من البحر، فلا يحرم عليهم شيء منه، وإنما حرم اللَّه تعالى على الرجال الذهب والحرير»[٤].

قال القنوجي: «وظاهر قوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ أنه يجوز للرجال أن يلبسوا اللؤلؤ والمرجان، أي يجعلونها حلية لهم كما يجوز للنساء، ولا حاجة لما تكلفه جماعة من المفسرين في تأويل قوله: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ بقولهم: تلبسها نساؤهم لأنهن من جملتهم، أو لكونهن يلبسنها لأجلهم، وليس في الشريعة المطهرة ما يقتضي منع الرجال من التحلي باللؤلؤ والمرجان، ما لم يستعمله على صفة لا يستعمله عليها

---

(١) تنيس: بكسرتين وتشديد النون، جزيرة في البحر. والفرما بالتحريك والقصر مدينة على الساحل. كلاهما من أرض مصر.

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١١٤٧-١١٤٨).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٢٠٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٨٧).

إلا النساء خاصة، فإن ذلك ممنوع قد ورد الشرع بمنعه من جهة كونه تشبها بهن، لا من جهة كونه حلية لؤلؤ أو مرجان»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ركوب البحر

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: **«أنه ذكر رجلًا من بني إسرائيل خرج في البحر فقضى حاجته»**[٢].

★ فوائد الحديث:

بوب البخاري على هذا الحديث في صحيحه بقوله: باب التجارة في البحر، وأعقبه بقول مطر: لا بأس به، وما ذكره الله في القرآن إلا بحق، ثم تلا: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

قال ابن بطال: «استدلال مطر الوراق من الآية حسن؛ لأن الله تعالى جعل تسخيره البحر لعباده لابتغاء فضله من نعمه التي عددها عليه، وأراهم فى ذلك عظيم قدرته، وسخر الرياح باختلافها تحملهم وتردهم، وهذا من عظيم آياته وكبير سلطانه، ونبههم على شكره عليها بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهذا يرد قول من منع ركوب البحر في إبان ركونه، وهو قول يروى عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى عمرو بن العاص يسأله عن البحر، فقال: خلق عظيم يركبه خلق ضعيف، دود على عود. فكتب إليه عمر ألا يركبه أحد طول حياته. فلما كان بعد عمر لم يزل يركب حتى كان عمر بن عبد العزيز، فاتبع فيه رأي عمر بن الخطاب، وقد تقدم هذا المعنى في كتاب الجهاد في باب ركوب البحر، وذكرت هناك قول من منع ركوبه للحج، وإذا كان الله قد أباح ركوبه للتجارة، فركوبه للحج والجهاد أجوز، ولا حجة لأحد مع مخالفة الكتاب والسنة، فأما إذا كان إبان ارتجاجه فالأمة مجمعة أنه لا يجوز ركوبه؛ لأنه تعرض للهلاك، وقد نهى الله عباده عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٣]، وبقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ

---

(١) فتح البيان (٧/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٣٧٥/ ٢٠٦٣).

(٣) البقرة: الآية (١٩٥).

رَحِيمًا﴾[١]، ولم يزل البحر يركب في قديم الزمان، ألا ترى ما ذكر في هذا الحديث أنه ركب في زمن بنى إسرائيل، فلا وجه لقول من منع ركوبه»[٢].

قال أبو عمر: «لا يجوز عند أهل العلم ركوب البحر في حين ارتجاجه ولا في الزمن الذي الأغلب منه عدم السلامة فيه والعطب والهلاك، وإنما يجوز عندهم ركوبه في زمان تكون السلامة فيه الأغلب والله أعلم.

وفي قول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾[٤]، ما فيه كفاية ودلالة واضحة في إباحة ركوب البحر إذا كان كما وصفنا وبالله توفيقنا. وأما ما جاء عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وغيرهما من السلف أنهم كانوا ينهون عن ركوب البحر، فإنما ذلك على الاحتياط وترك التغرير بالمهج في طلب الاستكثار من الدنيا والرغبة في المال والله أعلم. وإذا جاز ركوب البحر في الجهاد وطلب المعيشة، فركوبه للحج في أداء الفرض أجوز لمن قدر على ذلك وسهل عليه»[٥].

* * *

---

(١) النساء: الآية (٢٩).

(٢) شرح صحيح البخاري (٦/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٣) يونس: الآية (٢٢).

(٤) البقرة: الآية (١٦٤).

(٥) التمهيد (٣/ ١٢-١٣ فتح البر).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾

★ **غريب الآية:**

تميد: تضطرب وتتحرك حركة شديدة.

علامات: أي معالم الطرق التي يهتدى بها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ذكر تعالى الأرض، وما جعل فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد؛ أي: تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾(١)..

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ أي: وجعل فيها أنهارًا تجري من مكان إلى مكان آخر، رزقًا للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سُخِّر لأهله. وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوبًا وشمالا وشرقًا وغربًا، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حينًا وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطيئه، بحسب ما أراد وقدر، وسخر ويسر فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وكذلك جعل فيها سبلا أي: طرقًا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممرًّا ومسلكًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾(٢).

وقوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ أي: دلائل من جبال كبار وآكام صغار، ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون برًّا وبحرًا إذا ضلوا الطريق بالنهار.

وقوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس.

---

(١) النازعات: الآية (٣٢).

(٢) الأنبياء: الآية (٣١).

وعن مالك في قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ يقولون: النجوم، وهي الجبال»[1].

قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه تعالى ذكره عدد على عباده من نعمه، إنعامه عليهم بما جعل لهم من العلامات التي يهتدون بها في مسالكهم وطرقهم التي يسيرونها، ولم يخصص بذلك بعض العلامات دون بعض، فكل علامة استدل بها الناس على طرقهم وفجاج سبلهم فداخل في قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ والطرق المسبولة: الموطوءة، علامة للناحية المقصودة، والجبال علامات يهتدى بهن إلى قصد السبيل، وكذلك النجوم بالليل غير أن الذي هو أولى بتأويل الآية أن تكون العلامات من أدلة النهار، إذ كان اللَّه قد فصل منها أدلة الليل بقوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وإذا كان ذلك أشبه وأولى بتأويل الآية، فالواجب أن يكون القول في ذلك ما قاله ابن عباس في الخبر الذي رويناه عن عطية عنه، وهو أن العلامات معالم الطرق وأماراتها التي يهتدى بها إلى المستقيم منها نهارًا، وأن يكون النجم الذي يهتدى به ليلا هو الجدي والفرقدان؛ لأن بها اهتداء السفر دون غيرها من النجوم.

فتأويل الكلام إذن: وجعل لكم أيها الناس علامات تستدلون بها نهارًا على طرقكم في أسفاركم، ونجومًا تهتدون بها ليلًا في سبلكم»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هاتين الآيتين أربع نعم من نعمه على خلقه، مبينًا لهم عظيم منته عليهم بها:

الأولى: إلقاؤه الجبال في الأرض لتثبت ولا تتحرك، وكرر الامتنان بهذه النعمة في القرآن كقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[3]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾[4] الآية، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾[5]، وقوله -جل وعلا-: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[6]، الآية، وقوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾[7]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٦٣-٥٦٤).
(٢) جامع البيان (١٤/ ٩٢).
(٣) النبأ: الآيتان (٦-٧).
(٤) الأنبياء: الآية (٣١).
(٥) المرسلات: الآية (٢٧).
(٦) لقمان: الآية (١٠).
(٧) النازعات: الآية (٣٢).

ومعنى تميد: تميل وتضطرب.

وفي معنى قوله: ﴿أَن﴾ وجهان معروفان للعلماء:

أحدهما: كراهة أن تميد بكم.

والثاني: أن المعنى: لئلا تميد بكم. وهما متقاربان.

الثانية: إجراؤه الأنهار في الأرض المذكور هنا في قوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ وكرر تعالى في القرآن الامتنان بتفجيره الماء في الأرض لخلقه؛ كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[1] الآية، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾[3] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

الثالثة: جعله في الأرض سبلًا يسلكها الناس، ويسيرون فيها من قطر إلى قطر في طلب حاجاتهم المذكور هنا في قوله: ﴿وَسُبُلًا﴾ وهو جمع سبيل بمعنى الطريق. وكرر الامتنان بذلك في القرآن، كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[5]، وقوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾[6]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾[7] الآية، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[8]، إلى غير ذلك من الآيات.

الرابعة: جعله العلامات لبني آدم ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر المذكور هنا في قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وقد ذكر الامتنان بنحو ذلك في القرآن في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[9] الآية»[10].

---

(١) إبراهيم: الآيتان (٣٢-٣٣).
(٢) الواقعة: الآيات (٦٨-٧٠).
(٣) يس: الآيتان (٣٤-٣٥).
(٤) الأنبياء: الآية (٣١).
(٥) نوح: الآيتان (١٩-٢٠).
(٦) طه: الآيتان (٥٢-٥٣).
(٧) الملك: الآية (١٥).
(٨) الزخرف: الآيتان (٩-١٠).
(٩) الأنعام: الآية (٩٧).
(١٠) أضواء البيان (٣/ ٢٢٩-٢٣٠).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «لما ذكر اللَّه ﷻ من عجائب قدرته وغرائب صنعته، وبديع خلقه ما ذكر على الوجه الأحسن والترتيب الأكمل، وكانت هذه الأشياء المخلوقة المذكورة في الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة اللَّه تعالى، ووحدانيته وأنه تعالى هو المنفرد بخلقها جميعًا، قال على سبيل الإنكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تقدر على شيء ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ يعني هذه الأشياء الموجودة المرئية بالعيان، وهو اللَّه تعالى الخالق لها ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ يعني هذه الأصنام العاجزة التي لا تخلق شيئًا البتة؛ لأنها جمادات لا تقدر على شيء، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادتها ويترك عبادة من يستحق العبادة وهو اللَّه خالق هذه الأشياء كلها، ولهذا المعنى ختم هذه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني أن هذا القدر ظاهر غير خافٍ على أحد فلا يحتاج فيه إلى دقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه، كفاية لمن فهم وعقل واعتبر بما ذكر.

بقي في الآية سؤالان: الأول: قوله: ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ المراد به الأصنام وهي جمادات لا تعقل، فكيف يعبر عنها بلفظة (مَن) وهي لمن يعقل، والجواب عنه أن الكفار لما سموا هذه الأصنام آلهة وعبدوها أجريت مجرى من يعقل في زعمهم، ألا ترى إلى قوله بعد هذا: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾[1]، فخاطبهم على قدر زعمهم، وعقولهم.

السؤال الثاني: قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ المقصود منه إلزام الحجة على من عبد الأصنام حيث جعل غير الخالق مثل الخالق، فكيف قال على سبيل الاستفهام ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ والجواب عنه: أنه ليس المراد منه الاستفهام

---

(١) النحل: الآية (٢٠).

بل المراد منه أن من خلق الأشياء العظيمة وأعطى هذه النعم الجزيلة، كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة في التسمية والعبادة، وكيف يليق بالعاقل أن يترك عبادة من يستحق العبادة لأنه خالق هذه الأشياء الظاهرة كلها، ويشتغل بعبادة جمادات لا تخلق شيئًا البتة، واللَّه أعلم»[1].

* * *

(١) تفسير الخازن (٣/ ١١٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ يعني: أن نعم الله على العبد فيما خلق الله فيه من صحة البدن وعافية الجسم، وإعطاء النظر الصحيح والعقل السليم، والسمع الذي يفهم به الأشياء وبطش اليدين وسعي الرجلين إلى غير ذلك مما أنعم به عليه في نفسه، وفيما أنعم به عليه مما خلق له من جميع ما يحتاج إليه من أمر الدين والدنيا لا تحصى، حتى لو رام أحد معرفة أدنى نعمة من هذه النعم؛ لعجز عن معرفتها وحصرها، فكيف بنعمه العظام التي لا يمكن الوصول إلى حصرها لجميع الخلق، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ يعني: ولو اجتهدتم في ذلك وأتعبتم نفوسكم لا تقدرون عليه ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ يعني لتقصيركم في القيام بشكر نعمته كما يجب عليكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ يعني بكم حيث وسع عليكم النعم، ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصي»[1].

قال ابن عاشور: «هذا كلام جامع للتنبيه على وفرة نعم الله تعالى على الناس بحيث لا يستطيع عدّها العادّون، وإذا كانت كذلك فقد حصل التّنبيه إلى كثرتها بمعرفة أصولها وما يحويها من العوالم.

وفي هذا إيماء إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم، وتعريض بفظاعة كفر من كفروا بهذا المنعم، وتغليظ التهديد لهم»[2].

قال القنوجي: «قال العقلاء: إن كل جزء من أجزاء الإنسان لو ظهر فيه أدنى خلل وأيسر نقص لنغص النعم على الإنسان وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت في ملكه

(١) تفسير الخازن (٣/ ١١٠).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ١٢٣-١٢٤).

حتى يزول عنه ذلك الخلل، وهو سبحانه يدبر بدن الإنسان على الوجه الملائم له، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك، فكيف يطيق حصر نعم اللَّه عليه أو يقدر على إحصائها أو يتمكن من شكر أدناها.

يا ربنا هذه نواصينا بيدك، خاضعة لعظم نعمك، معترفة بالعجز عن تأدية الشكر لشيء منها لا تحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، ولا نطيق التعبير بالشكر لك، فتجاوز عنا واغفر لنا واسبل ذيول سترك على عوراتنا فإنك إن لم تفعل ذلك نهلك بمجرد التقصير في شكر نعمك، فكيف بما قد فرط منا من التساهل في الائتمار بأوامرك والانتهاء عن مناهيك، وما أحسن ما قال من قال:

العَفْوُ يُرْجَى مِنْ بَنِي آدَم فَكَيْفَ لاَ يُرْجَى مِنَ الرَّبِّ

وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على إنسان مشيرا إلى عظيم غفرانه وسعة رحمته فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي كثير المغفرة والرحمة لا يؤاخذكم بالغفلة عن شكر نعمه والقصور عن إحصائها، والعجز عن القيام بأدناها. ومن رحمته إدامتها عليكم وإدرارها في كل لحظة، وعند كل نفس تتنفسونه، وحركة تتحركون بها، اللهم إني أشكرك عدد ما شكرك وسيشكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان، فلقد خصصتني بنعم لم أرها على كثير من خلقك من إنسان وحيوان، وإن رأيت منها شيئًا على بعض خلقك لم أر عليها بقيتها، فأنى أطيق شكرك، وكيف أستطيع تأدية أدنى شكر أدناها فكيف أستطيع أعلاها، فكيف أستطيع شكر نوع من أنواعها»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن بني آدم لا يقدرون على إحصاء نعم اللَّه لكثرتها عليهم، وأتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فدل ذلك على تقصير بني آدم في شكر تلك النعم، وأن اللَّه يغفر لمن تاب منهم، ويغفر لمن شاء أن يغفر له ذلك التقصير في شكر النعم. وبين هذا المفهوم المشار إليه هنا بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2].

---

(١) فتح البيان (٧/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٢) إبراهيم: الآية (٣٤).

وبين في موضع آخر أن كل النعم على بني آدم منه -جل وعلا-، وذلك في قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[١] الآية»[٢].

قال ابن عاشور: «وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم، إذ وقع هنالك ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٣]؛ لأن تلك جاءت في سياق وعيد وتهديدٍ عقب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾[٤]، فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة اللَّه.

وأما هذه الآية فقد جاءت خطابًا للفريقين كما كانت النّعم المعدودة عليهم منتفعًا بها كلاهما»[٥].

* * *

(١) النحل: الآية (٥٣).
(٢) أضواء البيان (٣/ ٢٣٠-٢٣١).
(٣) إبراهيم: الآية (٣٤).
(٤) إبراهيم: الآية (٢٨).
(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ١٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والله الذي هو إلهكم أيها الناس، يعلم ما تسرّون في أنفسكم من ضمائركم فتخفونه عن غيركم، فما تبدونه بألسنتكم وجوارحكم وما تعلنونه بألسنتكم وجوارحكم وأفعالكم، وهو محص ذلك كله عليكم، حتى يجازيكم به يوم القيامة، المحسن منكم بإحسانه، والمسيء منكم بإساءته، ومُسائلكم عما كان منكم من الشكر في الدنيا على نعمه التي أنعمها عليكم فيها التي أحصيتم، والتي لم تحصوا»[1].

قال الخازن: «قيل: إن الله ﷻ لما ذكر الأصنام وذكر عجزها في الآية المتقدمة، ذكر في هذه الآية أن الإله الذي يستحق العبادة، يجب أن يكون عالمًا بكل المعلومات سرها وعلانيتها، وهذه الأصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة»[2].

قال القنوجي: «فيه وعيد وتعريض وتوبيخ وتنبيه على أن الإله يجب أن يكون عالمًا بالسر والعلانية، لا كالأصنام التي تعبدونها فإنها جمادات لا شعور لها بشيء من الظواهر فضلًا عن الضمائر والسرائر فكيف تعبدونها»[3].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٩٣).

(٢) تفسير الخازن (٣/ ١١٠).

(٣) فتح البيان (٧/ ٢٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأوثانكم الذين تدعون من دون الله أيها الناس آلهة لا تخلق شيئًا وهي تخلق، فكيف يكون إلها ما كان مصنوعا مدبرا، لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرّا»[1].

قال الخازن: «فإن قلت: قوله ﷻ في الآية المتقدمة ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ يدل على أن هذه الأصنام لا تخلق شيئًا فقوله ﷻ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ هذا هو نفس المعنى المذكور في تلك الآية فما فائدة التكرار؟ قلت: فائدته أن المعنى المذكور في الآية المتقدمة أنهم لا يخلقون شيئًا فقط، والمذكور في هذه الآية أنهم لا يخلقون شيئًا وإنهم مخلوقون كغيرهم، فكان هذا زيادة في المعنى وهو فائدة التكرار ﴿أَمْوَٰتٌ﴾ أي جمادات ميتة لا حياة فيها ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ يعني: كغيرها، والمعنى لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون لكانت أحياء غير جائز عليها الموت؛ لأن الإله الذي يستحق أن يعبد هو الحي الذي لا يموت، وهذه أموات غير أحياء، فلا تستحق العبادة، فمن عبدها فقد وضع العبادة في غير موضعها»[2].

قال الرازي: «وفيه تهكم بالمشركين وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم»[3].

وقال أيضا: «فإن قيل: لما قال: ﴿أَمْوَٰتٌ﴾ علم أنها غير أحياء فما الفائدة في قوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾، والجواب من وجهين: الأول: أن الإله هو الحي الذي

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٩٣).

(٢) تفسير الخازن (٣/ ١١٠-١١١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٧).

لا يحصل عقيب حياته موت، وهذه الأصنام أموات لا يحصل عقيب موتها الحياة.
والثاني: أن هذا الكلام مع الكفار الذين يعبدون الأوثان، وهم في نهاية الجهالة والضلالة، ومن تكلم مع الجاهل الغر الغبي فقد يحسن أن يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة، وغرضه منه الإعلام بكون ذلك المخاطب في غاية الغباوة، وأنه إنما يعيد تلك الكلمات لكون ذلك السامع في نهاية الجهالة، وأنه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة»[1].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٧).

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: معبودكم الذي يستحقّ عليكم العبادة، وإفراد الطاعة له دون سائر الأشياء: معبود واحد؛ لأنه لا تصلح العبادة إلا له، فأفردوا له الطاعة وأخلصوا له العبادة، ولا تجعلوا معه شريكا سواه ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فالذين لا يصدّقون بوعد الله ووعيده، ولا يقرّون بالمعاد إليه بعد الممات قلوبهم منكرة، يقول -تعالى ذكره-: مستنكرة لما نقص عليهم من قدرة الله وعظمته، وجميل نعمه عليهم، وأن العبادة لا تصلح إلا له، والألوهة ليست لشيء غيره يقول: وهم مستكبرون عن إفراد الله بالألوهة، والإقرار له بالوحدانية، اتباعا منهم لما مضى عليه من الشرك بالله أسلافهم»[1].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تُنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[3]»[4].

قال الرازي: «﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ والمعنى: أن الذين يؤمنون بالآخرة ويرغبون في الفوز بالثواب الدائم ويخافون الوقوع في العقاب الدائم إذا سمعوا الدلائل والترغيب والترهيب، خافوا العقاب فتأملوا وتفكروا فيما يسمعونه، فلا جرم ينتفعون بسماع الدلائل، ويرجعون من الباطل إلى

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٩٤).
(٢) ص: الآية (٥).
(٣) الزمر: الآية (٤٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٦٥).

الحق، أما الذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها، فإنهم لا يرغبون في حصول الثواب ولا يرهبون من الوقوع في العقاب، فيبقون منكرين لكل كلام يخالف قولهم، ويستكبرون عن الرجوع إلى قول غيرهم، فلا جرم يبقون مصرين على ما كانوا عليه من الجهل والضلال»[1].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (١٨/٢٠).

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: لا جرم حقا أن اللَّه يعلم ما يسرّ هؤلاء المشركون من إنكارهم ما ذكرنا من الأنباء في هذه السورة، واعتقادهم نكير قولنا لهم: إلهكم إله واحد، واستكبارهم على اللَّه، وما يعلنون من كفرهم باللَّه وفريتهم عليه»[٢].

* * *

(١) الآية (٢٣).

(٢) جامع البيان (١٤/ ٩٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد؛ أي: لا يحب المستكبرين عن التوحيد أو عن الآيات الدالة عليها، أو لا يحب جنس المستكبرين، فكيف بمن استكبر عما ذكر»[٢].

قال الرازي: «هذا الوعيد يتناول كل المتكبرين»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان خطر الكبر وأنه مفسدة للدين والدنيا وأن أصله من إبليس

* عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ قال في خطبته: «**إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال صاحب العون رَحِمَهُ اللَّهُ: « «**أن تواضعوا**»: (أن) هذه مفسرة لما في الإيحاء من معنى القول. و«**تواضعوا**» أمر من الضعة، وهي الذل والهوان والدناة. قال العزيزي: التواضع: الاستسلام للحق وترك الإعراض عن الحكم من الحاكم. وقيل: هو خفض الجناح للخلق ولين الجانب. وقيل: قبول الحق ممن كان كبيرًا أو صغيرًا شريفًا أو وضيعًا «**حتى لا يبغي**» بكسر الغين؛ أي: لا يظلم، «**ولا يفخر**» بفتح الخاء، والفخر: ادعاء العظمة والكبرياء والشرف»[٥].

---

(١) الآية (٢٣).
(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ١٠٦-١٠٧).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٨).
(٤) مسلم (٤/ ٢١٩٨-٢١٩٩/ ٢٨٦٥[٦٤])، وأبو داود (٥/ ٢٠٣/ ٤٨٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٩/ ٤١٧٩).
(٥) عون المعبود (١٣/ ٢٣٨).

قال القرطبي: «التواضع نقيض التكبر، والتكبر هو الترفع على الغير، فالتواضع هو الانخفاض للغير، وحاصله أن المتكبر يرى لنفسه مزية على الغير تحمله على احتقاره، والمتواضع لا يرى لنفسه مزية، بل يراها لغيره بحيث يحمله ذلك على الانخفاض له مراعاة لحقه. ولا شك أن الكبر مذموم، فمنه كفر وهو الكبر على اللَّه، وعلى أنبيائه، وما عداه من الكبائر. والتواضع أيضا منه أعلى وأدنى، والأعلى هو التواضع لله تعالى ولكتابه ولرسوله، والأدنى هو ما عداه، واللَّه تعالى أعلم»(١).

قال ابن القيم: «قال صاحب المنازل: التواضع: أن يتواضع العبد لصولة الحق» يعني: أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له والذل والانقياد والدخول تحت رقه، بحيث يكون الحق متصرفا فيه تصرف المالك في مملوكه، فبهذا يحصل للعبد خلق التواضع، ولهذا فسر النبي ﷺ الكبر بضده فقال: **«الكبر بطر الحق وغمص الناس»**(٢) فبطر الحق: رده وجحده والدفع في صدره كدفع الصائل، وغمص الناس: احتقارهم وازدراؤهم، ومتى احتقرهم وازدراهم: دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها. ولما كان لصاحب الحق مقال وصولة: كانت النفوس المتكبرة لا تقر له بالصولة على تلك الصولة التي فيها ولاسيما النفوس المبطلة، فتصول على صولة الحق بكبرها وباطلها، فكان حقيقة التواضع: خضوع العبد لصولة الحق وانقياده لها، فلا يقابلها بصولته عليها. قال(٣): «وهو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: التواضع للدين وهو أن لا يعارض بمعقول منقولًا، ولا يتهم للدين دليلًا، ولا يرى إلى الخلاف سبيلًا». التواضع للدين هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ والاستسلام له والإذعان، وذلك بثلاثة أشياء:

الأول: أن لا يعارض شيئًا مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم المسماة: بالمعقول والقياس والذوق والسياسة؛ فالأولى: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة،

---

(١) المفهم (٧/ ١٤٠-١٤١).

(٢) سيأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب.

(٣) أي: صاحب المنازل.

وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل وعزلنا النقل؛ إما عزل تفويض وإما عزل تأويل. والثاني: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص قدمنا القياس على النص ولم نلتفت إليه. والثالث: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد، فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر قدموا الذوق والحال ولم يعبأوا بالأمر. والرابع: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة قدموا السياسة ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة. فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكبر. والتواضع: التخلص من ذلك كله.

الثاني: أن لا يتهم دليلا من أدلة الدين بحيث يظنه فاسد الدلالة أو ناقص الدلالة أو قاصرها، أو أن غيره كان أولى منه ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه وليعلم أن الآفة منه والبلية فيه كما قيل:

وَكَم من عائبٍ قولًا صحيحا   وآفَتُهُ منَ الفهمِ السَّقِيمِ
وَلكن تأخذ الأذهانُ منه   على قَدْرِ القَرَائحِ والفُهُومِ

وهكذا الواقع في الواقع حقيقة: أنه ما اتهم أحد دليلا للدين إلا وكان المتهِم هو الفاسد الذهن المأفون في عقله وذهنه، فالآفة من الذهن العليل لا في نفس الدليل، وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك وينبو فهمك عنه فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأن تحته كنزا من كنوز العلم ولم تؤت مفتاحه بعد هذا في حق نفسك.

وأما بالنسبة إلى غيرك: فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحي، وليكن ردها أيسر شيء عليك للنصوص، فما لم تفعل ذلك فلست على شيء.. وهذا لا خلاف فيه بين العلماء؛ قال الشافعي قدس اللَّه روحه: أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول اللَّه ﷺ لم يحل له أن يدعها لقول أحد.

الثالث: أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلا البتة، لا بباطنه ولا بلسانه ولا بفعله ولا بحاله، بل إذا أحس بشيء من الخلاف: فهو كخلاف المقدم على الزنا وشرب الخمر وقتل النفس، بل هذا الخلاف أعظم عند اللَّه من ذلك، وهو داع إلى النفاق، وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم.

واعلم أن المخالف للنص لقول متبوعه وشيخه ومقلده أو لرأيه ومعقوله وذوقه وسياسته إن كان عند اللَّه معذورا ولا واللَّه ما هو بمعذور، فالمخالف لقوله لنصوص الوحي أولى بالعذر عند اللَّه ورسوله وملائكته والمؤمنين من عباده.

فواعجبًا إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذر من خالفها تقليدًا أو تأويلًا أو لغير ذلك، فكيف ضاق عن عذر من خالف أقوالهم وأقوال شيوخهم لأجل موافقة النصوص، وكيف نصبوا له الحبائل وبغوه الغوائل ورموه بالعظائم وجعلوه أسوأ حالًا من أرباب الجرائم، فرموه بدائهم وانسلوا منه لواذا، وقذفوه بمصابهم وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذًا لهم ومعاذًا، واللَّه أعلم.

فصل، قال: ولا يصح ذلك إلا بأن يعلم: أن النجاة في البصيرة، والاستقامة بعد الثقة، وأن البينة وراء الحجة. يقول: إن ما ذكرناه من التواضع للدين بهذه الأمور الثلاثة:

الأولى: علمه أن النجاة من الشقاء والضلال إنما هي في البصيرة، فمن لا بصيرة له فهو من أهل الضلال في الدنيا والشقاء في الآخرة. والبصيرة نور يجعله اللَّه في عين القلب يفرق به العبد بين الحق والباطل، ونسبته إلى القلب كنسبة ضوء العين إلى العين، وهذه البصيرة وهبية وكسبية، فمن أدار النظر في أعلام الحق وأدلته وتجرد لله من هواه، استنارت بصيرته ورزق فرقانا يفرق به بين الحق والباطل.

الثاني: أن يعلم أن الاستقامة إنما تكون بعد الثقة؛ أي: لا يتصور حصول الاستقامة في القول والعمل والحال إلا بعد الثقة بصحة ما معه من العلم، وأنه مقتبس من مشكاة النبوة، ومن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة.

الثالث: أن يعلم أن البينة وراء الحجة، والبينة مراده بها: استبانة الحق وظهوره، وهذا إنما يكون بعد الحجة إذا قامت استبان الحق وظهر واتضح، وفيه معنى آخر وهو أن العبد إذا قبل حجة اللَّه بمحض الإيمان والتسليم والانقياد كان هذا القبول هو سبب تبينها وظهورها وانكشافها لقلبه، فلا يصبر على بينة ربه إلا بعد قبول حجته.

وفيه معنى آخر أيضًا: أنه لا يتبين له عيب عمله من صحته إلا بعد العلم الذي هو حجة اللَّه على العبد، فإذا عرف الحجة اتضح له بها ما كان مشكلا عليه من علومه،

وما كان معيبًا من أعماله. وفيه معنى آخر أيضا: وهو أن يكون وراء بمعنى أمام، والمعنى: أن الحجة إنما تحصل للعبد بعد تبينها، فإذا لم تتبين له لم تكن له حجة، يعني فلا يقنع من الحجة بمجرد حصولها بلا تبين، فإن التبين أمام الحجة واللَّه أعلم.

قال: «الدرجة الثانية: أن ترضى بما رضي الحق به لنفسه عبدًا من المسلمين أخا وأن لا ترد على عدوك حقا وأن تقبل من المعتذر معاذيره».

يقول: إذا كان اللَّه قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا أفلا ترضى أنت به أخًا، فعدم رضاك به أخًا وقد رضيه سيدك الذي أنت عبده عبدًا لنفسه عينُ الكبر، وأي قبيح أقبح من تكبّر العبد على عبد مثله لا يرضى بأخوته وسيدُه راض بعبوديته.

فيجيء من هذا: أن المتكبر غير راض بعبودية سيده إذ عبوديته توجب رضاه بأخوة عبده، وهذا شأن عبيد الملوك فإنهم يرون بعضهم خُشداشية بعض، ومن ترفع منهم عن ذلك لم يكن من عبيد أستاذهم. قوله: «وأن لا ترد على عدوك حقًّا أي: لا تصح لك درجة التواضع حتى تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك، وإذا لم ترد عليه حقه فكيف تمنعه حقا له قبلك، بل حقيقة التواضع أنه إذا جاءك قبِلته منه، وإذا كان له عليك حق أديته إليه، فلا تمنعك عداوته من قبول حقه ولا من إيتائه إياه، وأما «قبولك من المعتذر معاذيره» فمعناه: أن من أساء إليك ثم جاء يعتذر من إساءته فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته حقًّا كانت أو باطلًا وتكل سريرته إلى اللَّه تعالى كما فعل رسول اللَّه ﷺ في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو، فلما قدِم جاءوا يعتذرون إليه فقبِل أعذارهم ووكل سرائرهم إلى اللَّه تعالى، وعلامة الكرم والتواضع: أنك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجه، وقل: يمكن أن يكون الأمر كما تقول. ولو قُضي شيء لكان. والمقدور لا مدفع له ونحو ذلك.

قال: «الدرجة الثالثة: أن تتَّضِع للحق فَتَنْزل عن رأيك وعوائدك في الخدمة، ورؤية حقك في الصحبة وعن رسمك في المشاهدة».

يقول: التواضع بأن تخدم الحق سبحانه وتعبده بما أمرك به على مقتضى أمره، لا على ما تراه من رأيك، ولا يكون الباعث لك داعي العادة، كما هو باعث من

لا بصيرة له غير أنه اعتاد أمرا فجرى عليه، ولو اعتاد ضده لكان كذلك. وحاصله: أنه لا يكون باعثه على العبودية مجرد رأي وموافقة هوى ومحبة ولا عادة؛ بل الباعث مجرد الأمر، والرأي والمحبة والهوى والعوائد مُنَفِّذَة تابعة لا أنها مطاعة باعثة، وهذه نكتة لا يتنبه لها إلا أهل البصائر.

وأما نزوله عن رؤية حقه في الصحبة فمعناه: أن لا يرى لنفسه حقًّا على اللَّه لأجل عمله؛ فإن صحبته مع اللَّه بالعبودية والفقر المحض والذل والانكسار، فمتى رأى لنفسه عليه حقًّا فسدت الصحبة، وصارت معلولة، وخيف منها المقت، ولا ينافي هذا ما أحقه سبحانه على نفسه من إثابة عابديه وإكرامهم؛ فإن ذلك حق أحقه على نفسه بمحض كرمه وبره وجوده وإحسانه؛ لا باستحقاق العبيد وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم.

فعليك بالفرقان في هذا الموضع الذي هو مفترق الطرق والناس فيه ثلاث فرق فرقة رأت أن العبد أقل وأعجز من أن يوجب على ربه حقا فقالت: لا يجب على اللَّه شيء ألبتة وأنكرت وجوب ما أوجب على نفسه وفرقة رأت أنه سبحانه أوجب على نفسه أمورا لعبده فظنت أن العبد أوجبها عليه بأعماله، وأن أعماله كانت سببًا لهذا الإيجاب، والفرقتان غالطتان. والفرقة الثالثة: أهل الهدى والصواب قالت: لا يستوجب العبد على اللَّه بسعيه نجاة ولا فلاحًا، ولا يدخل أحدا عمله الجنة أبدًا ولا ينجيه من النار، واللَّه تعالى بفضله وكرمه ومحض جوده وإحسانه أكّد إحسانه وجوده وبره بأن أوجب لعبده عليه سبحانه حقا بمقتضى الوعد؛ فإنّ وعد الكريم إيجاب ولو بـ(عسى) و(لعل)»[1].

وقال أيضًا: «والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم باللَّه سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضع، وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلًا ولا يرى له عند أحد حقًّا، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله، وهذا خلق إنما يعطيه اللَّه ﷻ من يحبه ويكرمه ويقربه. وأما المهانة فهي الدناءة

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٣-٣٣٩).

والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السفل في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضعة لا تواضع، واللَّه سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة. وفي الصحيح عنه: «**وأوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**». والتواضع المحمود على نوعين:

النوع الأول: تواضع العبد عند أمر اللَّه امتثالًا، وعند نهيه اجتنابًا، فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء وشراد هربًا من العبودية، وتثبت عند نهيه؛ طلبًا للظفر بما منع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر اللَّه ونهيه فقد تواضع للعبودية.

والنوع الثاني: تواضعه لعظمة الرب وجلاله، وخضوعه لعزته وكبريائه، فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة اللَّه قلبه، واطمأن لهيبته، وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التواضع، وهو يستلزم الأول من غير عكس، والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين، واللَّه المستعان»[1].

قلت: للَّه در العلامة ابن القيم على هذا البيان الواضح في تفسير الكبر والتواضع، وأن الكبر دائمًا هو ردّ الحق بأصوله وفروعه، وأن المتكبر دائمًا يرى لنفسه ما لا يرى لغيره، ويزعم أنه يتفرد بالذكاء والفهم، وربما فاق الناس بماله وشرفه، وربما بجماله، وبأصله وفصله، وكل هذه أمور إن صحت فهي نِعم يجب أن يشكر اللَّه عليها، وأن يقبل الحق مهما كان قائله، وأن لا يتسلط على الناس إن كان ذا سلطان، ويجب عليه الرجوع إلى الدليل كما كان أسياده يرجعون إلى ذلك، كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وخيرة خلق اللَّه في تاريخ الإسلام، فما من إمام إلا وصرح بوجوب قبول الدليل وضرب قوله بعرض الحائط إذا ما خالفه، حتى عقلاء المتصوفة الذين يرون عصمة شيوخهم، فقال خيرهم: كل خاطرة لا يشهد لها الكتاب والسنة فهي وسواس لا يجوز الاعتماد عليها، وهكذا لو تتبعنا أقوال العلماء نجدهم مجمعين على هذا الأمر، وأنه لا قول لأحد مع كتاب اللَّه وسنة

---

(١) الروح (٢٣٣-٢٣٤).

رسوله، فالتواضع هو مرافقة الخلق بما يناسبهم، والعلو والاستكبار ليس من شأن العلماء، وإنما هو من أخلاق الحمقى والنوكى وحاسدي الأصل. وكان ﷺ خير متواضع؛ مع الفقراء والأغنياء، ومع الصبيان والعجائز، ومع العبيد والأحرار، ويخاطب كلًّا بما يناسبه، ويدخل عليه السرور. فالكبر خلق إبليس، والتواضع خلق الأنبياء وأخيار خلق اللَّه. واللَّه المستعان.

* عن ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: إن اللَّه جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»**[1].

★ غريب الحديث:

بَطَر: بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة: أي: تضييعه، من قولهم: ذهب دم فلان بطرًا؛ أي: هدرًا، يعني الكبر هو تضييع الحق من أوامر اللَّه تعالى ونواهيه وعدم التفاته.

غَمَط الناس: بفتح الغين المعجمة وفتح الميم وكسرها وبالطاء المهملة؛ أي: استحقارهم وتعييبهم.

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «قوله: **«إن الرجل يحب»** لما رأى الرجل العادة في المتكبرين لبس الثياب الفاخرة وجر الإزار، وغير ذلك مما يتعاطونه، سأل ما سأل. قال ابن الأثير في النهاية: **«بطر الحق»** هو أن يجعل ما جعله اللَّه حقًّا من توحيده وعبادته باطلًا. وقيل: هو أن يتحير عند الحق فلا يراه حقًّا. وقيل: هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله. وقال التوربشتي: وتفسيره على الباطل أشبه؛ لما ورد في غير هذه الرواية: **«إنما ذلك من سفه الحق وغمط الناس؛ أي: رأى الحق سفهًا»**.

أقول: والمقام أيضًا يقتضيه؛ لأن تحرير الجواب إن كان أخذ الرجل الزينة لأجل أن يرى اللَّه تعالى نعمته عليه، وأن يعظم شعائره؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٩) ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١)، وأبو داود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١) ببعضه، والترمذي (٤/ ٣١٧/ ١٩٩٩) وقال: «حسن صحيح غريب». وابن ماجه (١/ ٢٢/ ٥٩) مختصرًا.

لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾[١] أي: زينة، وقوله: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[٢] فهو جمال والله جميل يحب أن يرى أثر نعمه على عبده. وإن كان للبطر والأشر المؤدي إلى تسفيه الحق والصد عن سبيل الله وإلى تحقير الناس، فهو اختيال وافتخار، والله لا يحب كل مختال فخور. ولمثل هذا البطر نهى الله تعالى المؤمنين في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٣]»[٤].

قال صاحب العون رحمه الله: «**«من كبر»** قال الخطابي: «هذا يتأول على وجهين:

أحدهما: أن يكون أراد به كبر الكفر والشرك، ألا ترى أنه قد قابله في نقيضه بالإيمان، فقال: «**لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال خردلة من إيمان**»[٥].

والوجه الآخر: أن الله تعالى إذا أراد أن يدخله الجنة نزع ما في قلبه من الكبر، حتى يدخله بلا كبر ولا غل في قلبه، كقوله سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[٦].

وقوله: «**لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال خردلة من إيمان**» معناه: أن لا يدخلها دخول تخليد وتأبيد»[٧].

قال الحافظ رحمه الله: «اختلف في تأويل ذلك في حق المسلم فقيل: لا يدخل الجنة مع أول الداخلين، وقيل: لا يدخلها بدون مجازاة، وقيل: جزاؤه أن لا يدخلها ولكن قد يعفى عنه، وقيل: ورد مورد الزجر والتغليظ، وظاهره غير مراد. وقيل: معناه: لا يدخل الجنة حال دخولها وفي قلبه كبر، حكاه الخطابي، واستضعفه النووي فأجاد لأن الحديث سيق لذم الكبر وصاحبه لا للإخبار عن صفة دخول أهل الجنة الجنة. قال الطيبي: المقام يقتضي حمل الكبر على من يرتكب الباطل؛ لأن تحرير الجواب إن كان استعمال الزينة لإظهار نعمة الله فهو جائز أو مستحب، وإن كان للبطر المؤدي إلى تسفيه الحق وتحقير الناس والصد عن سبيل

---

(١) الأعراف: الآية (٢٦). (٢) الأعراف: الآية (٣١).
(٣) الأنفال: الآية (٤٧).
(٤) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٤٥).
(٥) أخرجه أحمد (١/ ٤١٢) ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١ [١٤٨]) وأبو داود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١) والترمذي (٤/ ٣١٧/ ١٩٩٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢/ ١٣٩٧/ ٤١٧٣) من حديث عبد الله بن مسعود.
(٦) الأعراف: الآية (٤٣). (٧) عون المعبود (١١/ ١٥٠).

الله فهو المذموم»[١].

* عن أبي ريحانة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إنه لا يدخل شيء من الكبر الجنة. قال: فقال قائل: يا رسول الله، إني أحب أن أتجمل بسبق سوطي وشسع نعلي. فقال النبي ﷺ: إن ذلك ليس بالكبر إن الله ﷻ جميل يحب الجمال، إنما الكبر من سفه الحق وغمص الناس بعينيه»**[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: **«أن رجلًا أتى النبي ﷺ وكان رجلًا جميلًا فقال: يا رسول الله إني رجل حبب إلي الجمال، وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحب أن يفوقني أحد -إما قال: بشراك نعلي، وإما قال: بشسع نعلي-، أفمن الكبر ذلك؟ قال: لا، ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس»**[٣].

★ غريب الحديثين:

شِسع نعلي: بكسر الشين: هو دوال النعل.

بشِراك: بكسر الشين: بند نعل.

★ فوائد الحديثين:

قال الشيخ العثيمين: «وهذا الحديث من أحاديث الوعيد التي يطلقها الرسول ﷺ تنفيرًا عن الشيء، وإن كانت تحتاج إلى تفصيل حسب الأدلة الشرعية.

فالذي في قلبه كبر، إما أن يكون كبرًا عن الحق وكراهة له، فهذا كافر مخلد في النار ولا يدخل الجنة، لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[٤] ولا يحبط العمل إلا بالكفر لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٦٠٢).

(٢) أحمد (٤/ ١٣٤)، والبيهقي (شعب الإيمان ٦/ ٢٧٩/ ٨١٥٣). قال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٣٣): «رواه أحمد ورجاله ثقات ورواه الطبراني في الكبير والأوسط».. وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٤/ ١٦٥/ ١٦٢٦).

(٣) أبو داود (٤/ ٣٥٢/ ٤٠٩٢)، والحاكم (٤/ ١٨١-١٨٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وقال الذهبي في التلخيص: «عبدالرحمن بن عثمان أبو بحر قال أحمد: طرح الناس حديثه». وقال الحافظ في التقريب: «ضعيف».

(٤) محمد: الآية (٩).

فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

وأما إذا كان كبرًا على الخلق وتعاظمًا على الخلق، لكنه لم يستكبر عن عبادة اللَّه، فهذا لا يدخل الجنة دخولًا كاملًا مطلقًا لم يسبق بعذاب، بل لا بد من عذاب على ما حصل من كبره وعلوائه على الخلق، ثم إذا طهر دخل الجنة»[2].

وقال: «قوله: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»: فبطر الحق يعني رده والإعراض عنه، وعدم قبوله، وغمط الناس يعني: احتقارهم وازدراءهم، وألا يرى الناس شيئًا، ويرى أنه فوقهم.

وقيل لرجل: ماذا ترى الناس؟ قال: لا أراهم إلا مثل البعوض، فقيل له: إنهم لا يرونك إلا كذلك.

وقيل لآخر: ما ترى الناس؟ قال: أرى الناس أعظم مني، ولهم شأن، ولهم منزلة، فقيل له: إنهم يرونك أعظم منهم، وأن لك شأنًا ومحلًّا.

فأنت إذا رأيت الناس على أي وجه فالناس يرونك بمثل ما تراهم به، إن رأيتهم في محل الإكرام والإجلال والتعظيم، ونزلتهم منزلتهم عرفوا لك ذلك، ورأوك في محل الإجلال والإكرام والتعظيم، ونزلوك منزلتك، والعكس بالعكس.

أما بطر الحق: فهو رده، وألا يقبل الإنسان الحق بل يرفضه ويرده اعتدادًا بنفسه ورأيه، فيرى والعياذ باللَّه أنه أكبر من الحق، وعلامة ذلك أن الإنسان يؤتى إليه بالأدلة من الكتاب والسنة، ويقال: هذا كتاب اللَّه، هذه سنة رسول اللَّه، ولكنه لا يقبل، بل يستمر على رأيه، فهذا رد الحق والعياذ بالله»[3].

قوله: «**إن اللَّه جميل يحب الجمال**»: أي: فليس ذلك من الكبر؛ أي: إذا لم يكن على وجه الفخر والخيلاء والمباهاة بل على سبيل إظهار نعمة اللَّه امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾[4]»[5].

* عن عبد اللَّه بن عمرو قال: «كنا عند رسول اللَّه ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن

(١) البقرة: الآية (٢١٧).
(٢) شرح رياض الصالحين (٦/ ٢٣٩).
(٣) شرح رياض الصالحين (٦/ ٢٣٢-٢٣٣).
(٤) الضحى: الآية (١١).
(٥) دليل الفالحين (٣/ ٦٧).

فارس. قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ويرفع كل راع ابن راع. قال: فأخذ رسول اللَّه ﷺ بمجامع جبته وقال: **ألا أرى عليك لباس من لا يعقل ثم قال: إن نبي اللَّه نوحًا ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا اللَّه فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا اللَّه في كفة رجحت بهن لا إله إلا اللَّه، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا اللَّه وسبحان اللَّه وبحمده، فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر.** قال: قلت -أو قيل-: يا رسول اللَّه، هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: **لا**. قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: **لا**. قال: الكبر هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: **لا**. قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: **لا**. قيل: يا رسول اللَّه، فما الكبر؟ قال: **سفه الحق وغمص الناس**»[1].

★ غريب الحديث:

جبة سيجان: سيجان: جمع ساج: الطيلسان الأخضر. قيل: هو الطيلسان... كذلك كانت القلانس تعمل منها أو من نوعها.

أن يضع كل فارس: أي: يجعله وضيعًا ويذلّه.

يرفع كل راعٍ: أي: يجعله رفيعًا ورئيسًا.

لقصمتهن: لكسرتهن.

غمص الناس: الغمط والغمص: الاستهانة والاستحقار.

★ فوائد الحديث:

قال الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكبر، بالكسر ثم السكون، ازدراء الغير واحتقاره،

---

(١) أحمد (٢/ ١٦٩-١٧٠و٢٢٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨). ذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٩-٢٢٠) وقال: «رواه أحمد كله ورواه الطبراني بنحوه ورواه البزار من حديث ابن عمر ورجال أحمد ثقات»، ورواه البزار (٤/ ٧-٨/ ٣٠٦٩ كشف الأستار) من حديث ابن عمر بنحوه.

والعُجب أن يرى أن عنده من الخير ما ليس عند غيره، كمن يرى أن له شرافة النسب وفضائل الآباء ومجد الأمهات وفضل الشيوخ عزًا ومالًا ووقارًا وشهامة، أو من الفضل والكمال، أو من الحسن والجمال، أو من العدة والمال، أو من العلم ومهارته وفصاحة اللسان والقدرة على الخطابة وتأثيرها في الأنفس، أو من العبادة والطاعة، ما ليس عند غيره من الناس، أو من القبائل أو النسل وأمثال ذلك، فمن كان معجبًا بنفسه أو بماله أو بقبيلته فلا بد أن يرى نفسه أكبر من غيره، وذلك يمنعه عن قبول الحق والإذعان بالتوحيد والطاعة. قال السيد: العجب: هو تصور استحقاق رتبة لا يكون مستحقًا لها، واعلم أن من رأى لنفسه صفة كمال فإن لم تكن فيه أو كانت ولكنها دون ما يتوهمه فهذا عجب مذموم وحمق وغرور، وإن كانت فيه فإن حمله ذلك على الغفلة هما فيه من النقائص وعلى احتقار الناس فهذا كذلك عجب مذموم، وإن كانت فيه ومع ذلك يعدها من نعمة اللَّه عليه، ويشكر اللَّه تعالى على هذا، ويعرف ما فيه من النقائص ويتواضع فليس هذا بعجب»[1].

* عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: «**من مات وهو بريء من ثلاث: الكبر والغُلول والدين، دخل الجنة**»[2].

⋆ غريب الحديث:

الغُلول: هو ما يأخذه أحد الغزاة من الغنيمة مختصًا به ولا يحضره إلى أمير الجيش ليقسمه بين الغزاة، سواء قل أو كثر، وسواء كان الآخذ أمير الجيش أو أحدهم.

⋆ فوائد الحديث:

قال المباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يفهم منه أن من مات وهو ليس بريئًا من هذه الثلاث لا يدخل الجنة». اهـ[3].

---

(١) فضل اللَّه الصمد (٢/ ٥-٦).

(٢) أحمد (٥/ ٢٧٦)، والترمذي (٤/ ١١٨/ ١٥٧٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٣٢/ ٨٧٦٤)، وابن ماجه (٢/ ٨٠٦/ ٢٤١٢)، والحاكم (٢/ ٢٦) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وابن حبان (١/ ٤٢٧/ ١٩٨).

(٣) تحفة الأحوذي (٥/ ١٦٢).

قلت: فالكبر مانع من دخول الجنة على حسب التفصيل الذي سبق من كلام الحافظ رحمه الله وغيره من العلماء. وسلامة الصدر من الكبر، وبراءة المرء منه؛ تُيسر له بإذن الله عز وجل دخول الجنة، والفوز برضى الرحمن جل جلاله.

* عن جبير بن مطعم قال: يقولون: فِيَّ التيه، وقدْ ركبت الحمار ولبست الشملة وحلبت الشاة، وقد قال رسول الله ﷺ: «**من فعل هذا فليس فيه من الكبر شيء**»(١).

★ **غريب الحديث:**

التيه: بالكسر: الكبر؛ أي: في نفسي الكبر.

الشملة: فتح الشين وسكون الميم: هو كساء يتغطى به ويتلفف فيه.

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري رحمه الله: «من فعل هذا أي: المذكور من ركوب الحمار ولبس الشملة وحلب الشاة «فليس فيه من الكبر شيء» فإن هذه الأفعال لا يأنف منها إلا المتكبرون»(٢).

* عن معبد بن خالد سمعت حارثة بن وهب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**ألا أدلكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لأبره. وأهل النار كل جوّاظ عتلّ مستكبر**»(٣).

★ **غريب الحديث:**

متضعف: ضبطوه بفتح العين وكسرها، المشهور الفتح، ولم يذكر الأكثرون غيره، ومعناه: يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لضعف حاله في الدنيا يقال: تضعفه واستضعفه، وأما رواية الكسر فمعناها: متواضع متذلل خامل واضع من نفسه.

---

(١) الترمذي (٤/ ٣١٨/ ٢٠٠١) وقال: «حسن صحيح غريب»، والبيهقي (شعب الإيمان ٦/ ٢٩٠/ ٨١٩٥)، والحاكم (٤/ ١٨٤) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) تحفة الأحوذي (٦/ ١٣٩).

(٣) أحمد (٤/ ٣٠٦)، والبخاري (١١/ ٦٦٣/ ٦٦٥٧)، ومسلم (٤/ ٢١٩٠/ ٢٨٥٣)، والترمذي (٤/ ٦١٨/ ٢٦٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٧/ ١١٦١٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٨/ ٤١١٦).

لو أقسم على اللَّه لأبره: لو حلف يمينًا طمعًا في كرم اللَّه تعالى بإبراره لأبره؛ أي: لأوقعه اللَّه إكرامًا له وصيانة له من الحنث لعظم منزلته عنده.

جَوّاظ: فتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة هو الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم المختال في مشيته.

عُتلّ: بضم العين والتاء بعدها لام ثقيلة؛ أي: الجافي الشديد الخصومة بالباطل.

★ فوائد الحديث:

قال ابن الملك: «قوله: «**ألا أخبركم بأهل النار كل عتلّ**» بضم العين والتاء وتشديد اللام: هو الجافي الشديد الخصومة بالباطل «**جواظ**» فتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة: هو الذي يجمع ويمنع، وقيل: السمين الثقيل من المعاشرة والتنعم، «**مستكبر**» قال النووي: المراد بالحديث أن أغلب أهل الجنة والنار هذان الفريقان»[(١)].

قال القاضي: «وقوله في أهل الجنة: «**كل ضعيف متضعف**»، وفي الرواية الأخرى: «**أشعث مدفوع بالأبواب**»[(٢)]: هو صفة نفي الكبرياء والجبروت التي هي صفة أهل النار، ومدح التواضع والخمول والتذلل لله ﷻ والحض عليه. وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها، وإجابتها للإيمان، كما قال: «**أتاكم أهل اليمن، أضعف قلوبًا**»[(٣)] ويروى: «**ألين، وأرقّ أفئدة**». وقد يكون المراد أنها لأكثر أهل الجنة؛ أي: ضعف الناس عامتهم، والمستضعفون: المحتقرون في الدنيا عند أهلها منهم، وهو الأظهر بالحديث، كما قالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾[(٤)]، وكقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾[(٥)]، وهم سواد المؤمنين وجمهورهم كما قدمناه، ولأن أهل الظهور في الدنيا والرياسة يحجبهم ذلك عن الإيمان؛ لقساوة قلوبهم، وشموخ نفوسهم، واستكبارهم ورغبتهم في الاتباع،

---

(١) مبارق الأزهار (٢/ ٤٦٢-٤٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٢٤/ ٢٦٢٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٢) والبخاري (٨/ ١٢٤/ ٤٣٩٠) ومسلم (١/ ٧١/ ٥٢) والترمذي (٥/ ٦٨٢/ ٣٩٣٥) وقال: حسن صحيح. من حديث أبي هريرة.

(٤) الشعراء: الآية (١١١).

(٥) الأنعام: الآية (٥٣).

ولأن أكثر الكفار والعتاة والمترفين بخلاف هذه الصفة التي وصف بها أهل الجنة، وبالصفة التي وصف بها أهل النار. فالحال راجعة في الوجهين إلى الأكثر والأغلب»[1].

* * *

(١) إكمال المعلم (٨/ ٣٨٣-٣٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير دلائل التوحيد، وأورد الدلائل القاهرة في إبطال مذاهب عبدة الأصنام؛ ذكر بعد ذلك شبهات منكري النبوة مع الجواب عنها.

فالشبهة الأولى: أن رسول اللَّه ﷺ لما احتج على صحة نبوة نفسه بكون القرآن معجزة؛ طعنوا في القرآن وقالوا: إنه أساطير الأولين، وليس هو من جنس المعجزات، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن ذلك السائل من كان؟ قيل هو كلام بعضهم لبعض. وقيل هو قول المسلمين لهم. وقيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة يُنفّرون عن رسول اللَّه ﷺ إذا سألهم وفود الحج عما أنزل على رسول اللَّه ﷺ.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: كيف يكون تنزيل ربهم أساطير الأولين؟

وجوابه من وجوه: الأول: أنه مذكور على سبيل السخرية كقوله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[1]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[2] وقوله: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[3]. الثاني: أن يكون التقدير: هذا الذي تذكرون أنه منزل من ربكم هو أساطير الأولين. الثالث: يحتمل أن يكون المراد أن هذا القرآن بتقدير أن يكون مما أنزله اللَّه، لكنه أساطير الأولين، ليس فيه شيء من العلوم والفصاحة، والدقائق والحقائق»[4].

---

(١) الشعراء: الآية (٢٧).

(٢) الحجر: الآية (٦).

(٣) الزخرف: الآية (٤٩).

(٤) تفسير الرازي (٢٠/ ١٩).

قال ابن كثير: «وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ﴾ معرضين عن الجواب: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: لم ينزل شيئًا، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين؛ أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[1] أي: يفترون على الرسول، ويقولون فيه أقوالا مختلفة متضادة، كلها باطلة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾[2]، وذلك أن كل من خرج عن الحق؛ فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون. ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[3] أي: ينقل ويحكى، فتفرقوا عن قوله ورأيه، قبحهم الله»[4].

* * *

(١) الفرقان: الآية (٥).

(٢) الفرقان: الآية (٩).

(٣) المدثر: الآيات (١٨-٢٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٦٥).

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يقول هؤلاء المشركون لمن سألهم: ماذا أنزل ربكم؟ الذي أنزل ربنا فيما يزعم محمد عليه: أساطير الأولين، لتكون لهم ذنوبهم التي هم عليها مقيمون من تكذيبهم اللَّه، وكفرهم بما أنزل على رسوله ﷺ، ومن ذنوب الذين يصدّونهم عن الإيمان باللَّه يضلون يفتنون منهم بغير علم، وقوله ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ يقول: ألا ساء الإثم الذي يأثمون، والثقل الذي يتحملون»[(١)].

قال الخازن: «قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني أن الرؤساء إنما يقدمون على إضلال غيرهم، بغير علم، بما يستحقونه من العقاب على ذلك الإضلال، بل يقدمون على ذلك جهلًا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد»[(٢)].

قال أبو السعود: «أما حمله على معنى: غير عالمين بأنهم يحملون يوم القيامة أوزار الضلال والإضلال على أن يكون العامل في الحال: قالوا، وتأييده بما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من حيث إن من حمل ما ذكر من أوزار الضلال والإضلال من قبيل إتيان العذاب من حيث لا يشعرون، فيرده أن الحمل المذكور إنما هو يوم القيامة، والعذاب المذكور إنما العذاب الدنيوي، كما ستقف عليه، أو حال من المفعول؛ أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضُلاّل، وفائدة التقييد بها: الإشعار بأن مكرهم لا يروج على ذي لب، ويميز بين المحق الحقيقي بالاتباع، وبين المبطل»[(٣)].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٩٥).

(٢) تفسير الخازن (٣/ ١١٢).

(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ١٠٧).

قال الشنقيطي: «فإن قيل: ما وجه تحملهم بعض أوزار غيرهم المنصوص عليه بقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[1]، مع أن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2]، ويقول -جل وعلا-: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾[3]، ويقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات.

فالجواب -والله تعالى أعلم-: أن رؤساء الضلال وقادته تحملوا وزرين: أحدهما: وزر ضلالهم في أنفسهم.

والثاني: وزر إضلالهم غيرهم؛ لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا. وإنما أخذ بعمل غيره لأنه هو الذي سنه وتسبب فيه، فعوقب عليه من هذه الجهة لأنه من فعله، فصار غير مناف لقوله ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ الآية..

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يدل على أن الكافر غير معذور بعد إبلاغ الرسل المؤيد بالمعجزات، الذي لا لبس معه في الحق، ولو كان يظن أن كفره هدى؛ لأنه ما منعه من معرفة الحق مع ظهوره إلا شدة التعصب للكفر، كما قدمنا الآيات الدالة على ذلك في الأعراف. كقوله: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[5]، وقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[6]، وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[7]، وحملهم أوزارهم هو اكتسابهم الإثم الذي هو سبب ترديهم في النار، أعاذنا الله والمسلمين منها»[8].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ومن أحيى سنة أميتت فله أجرها وأجر من عمل بها

* عن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «ليس من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن

---

(١) العنكبوت: الآية (١٣).

(٢) الإسراء: الآية (١٥).

(٣) الأنعام: الآية (١٦٤).

(٤) البقرة: الآية (١٣٤).

(٥) الأعراف: الآية (٣٠).

(٦) الكهف: الآيتان (١٠٣-١٠٤).

(٧) الزمر: الآية (٤٧).

(٨) أضواء البيان (٣/ ٢٣٣-٢٣٤).

آدم الأول كفل منها -وربما قال سفيان: من دمها- لأنه سن القتل أولًا»[١].

* عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[٢].

★ **فوائد الحديثين:**

قال الخازن: «ومعنى الآية والحديث أن الرئيس أو الكبير إذا سنَّ سنة حسنة أو سنة قبيحة، فتبعه عليها جماعة، فعملوا بها فإن اللَّه ﷻ يعظم ثوابه أو عقابه حتى يكون ذلك الثواب أو العقاب مساويًا لكل ما يستحقه كل واحد من الأتباع، الذين عملوا بسنته الحسنة أو القبيحة، وليس المراد أن اللَّه تعالى: يوصل جميع الثواب أو العقاب الذي يستحقه الأتباع إلى الرؤساء؛ لأن ذلك ليس بعدل ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٤] قال الواحدي: ولفظة (من) في قوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ليست للتبعيض لأنها لو كانت للتبعيض لنقص عن الأتباع بعض الأوزار، وذلك غير جائز لقوله -عليه الصلاة والسلام- «**لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»، ولكنها للجنس أي لحملوا من جنس أوزار الأتباع»[٥].

قال الحافظ: «قال المهلب: هذا الباب والذي قبله في معنى التحذير من الضلال، واجتناب البدع ومحدثات الأمور في الدين، والنهي عن مخالفة سبيل المؤمنين. اهـ. ووجه التحذير أن الذي يحدث البدعة قد يتهاون بها لخفة أمرها في أول الأمر، ولا يشعر بما يترتب عليها من المفسدة، وهو أن يلحقه إثم من عمل بها من بعده، ولو لم يكن هو عمل بها، بل لكونه كان الأصل في إحداثها»[٦].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٣)، والبخاري (١٣/ ٣٧٣/ ٧٣٢١)، ومسلم (٣/ ١٣٠٣/ ١٦٧٧)، والترمذي (٥/ ٤١/ ٢٦٧٣)، والنسائي (٧/ ٩٤/ ٣٩٩٦)، وابن ماجه (٢/ ٨٧٣/ ٢٦١٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٠٥و٥٢٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٠/ ٢٦٧٤)، وأبو داود (٥/ ١٥-١٦/ ٤٦٠٩)، والترمذي (٥/ ٤٢/ ٢٦٧٤).

(٣) الإسراء: الآية (١٥).

(٤) النجم: الآية (٣٩).

(٥) تفسير الخازن (٣/ ١١١-١١٢).

(٦) فتح الباري (١٣/ ٣٧٤).

وقال الأبي: «ولا يقال على الحديث: إنه من المؤاخذة بعمل الغير، بل من المؤاخذة بفعل الفاعل لأنه لما سنّ وسبب كان ذلك كفعله. وبالقياس على هذا يكون على إبليس كفل من إثم من ترك السجود؛ لأنه أول من عصى ربه. وهذا ما لم يتب الأول من تلك المعصية؛ لأن آدم -عليه الصلاة والسلام- أول من خالف النهي. وأجمعوا على أنه ليس عليه شيء من إثم من خالف نهيًا؛ لأنه تاب وتاب اللَّه عليه فصار كأن لم يخن، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. قلت: كان شيخنا أبو عبد اللَّه يقول: يلحق الأول وإن تاب، فإنه وإن صحت التوبة من الذنب، فإنه لا تصح من لحوق الوزر. ولا يخفى عليك ما فيه، فإنه ترد عليه قضية آدم إلا أن يقال: خرج آدم بالإجماع، وقضيته مخصصة لهذا الإجماع»[1].

وقال النووي: «وهذا الحديث من قواعد الإسلام وهو أن كل من ابتدع شيئًا من الشر كان عليه مثل وزر كل من اقتدى به في ذلك العمل مثل عمله إلى يوم القيامة، ومثله من ابتدع شيئًا من الخير كان له مثل أجر كل من يعمل به إلى يوم القيامة، وهو موافق للحديث الصحيح: «من سن سنة حسنة. . . ومن سن سنة سيئة»[2]، وللحديث الصحيح: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[3]»[4].

وقال أيضًا في شرح حديث «من سن في الإسلام سنة حسنة»: «وفي الحديث الآخر: «من دعا إلى هدى» و«من دعا إلا ضلالة» هذان الحديثان صريحان في استحباب سن الأمور الحسنة وتحريم سن الأمور السيئة، وأن من سن سنة حسنة كان له مثل أجر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر كل من يعمل بها إلى يوم القيامة، وأن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور متابعيه أو إلى ضلالة كان عليه مثل آثام تابعيه، سواء كان ذلك الهدى والضلالة هو الذي ابتدأه أم كان مسبوقًا إليه، وسواء كان ذلك تعليم علم أو عبادة أو أدب أو غير ذلك»[5].

---

(١) شرح الأبي (٦/ ١١٣-١١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٧) ومسلم (٢/ ٧٠٤-٧٠٥/ ١٠١٧) والترمذي (٥/ ٤٢/ ٢٦٧٥) والنسائي (٥/ ٧٩-٨٠/ ٢٥٥٣) من حديث جرير بن عبد اللَّه ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٠) ومسلم (٣/ ١٥٠٦/ ١٨٩٣) وأبو داود (٥/ ٣٤٦/ ٥١٢٩) والترمذي (٥/ ٤٠/ ٢٦٧١) وقال: حسن صحيح. من حديث أبي مسعود ﷺ.

(٤) شرح مسلم (١١/ ١٣٨).

(٥) شرح مسلم (١٦/ ١٨٤-١٨٥).

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

القواعد: جمع قاعدة وهي أساس البناء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لمّا ذكر عاقبة إضلالهم وصدّهم السائلين عن القرآن والإسلام في الآخرة أتبع بالتهديد بأن يقع لهم ما وقع فيه أمثالهم في الدّنيا من الخزي والعذاب، مع التأييس من أن يبلغوا بصنعهم ذلك مبلغ مرادهم، وأنهم خائبون في صنعهم كما خاب من قبلهم الذين مكَروا برسلهم.

ولما كان جوابهم السائلين عن القرآن بقولهم هو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] مظهرينه بمظهر النصيحة والإرشاد، وهم يريدون الاستبقاء على كفرهم، سمّي ذلك مكرًا بالمؤمنين، إذ المكر إلحاق الضرّ بالغير في صورة تمويهه بالنّصح والنّفع، فنُظّر فعلهم بمكر من قبلهم؛ أي: من الأمم السابقة الذين مكروا بغيرهم مثل قوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم فرعون، قال تعالى في قوم صالح: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾[2] الآية، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[3]»[4].

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من الآية المبالغة في وصف وعيد أولئك الكفار، وفي المراد بالذين من قبلهم قولان:

---

(١) النحل: الآية (٢٤).
(٢) النمل: الآية (٥٠).
(٣) الأنعام: الآية (١٢٣).
(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ١٣٣-١٣٤).

القول الأول: وهو قول الأكثر من المفسرين أن المراد منه نمروذ بن كنعان بنى صرحًا عظيمًا ببابل طوله خمسة آلاف ذراع. وقيل فرسخان، ورام منه الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها، فالمراد بالمكر ههنا بناء الصرح لمقاتلة أهل السماء.

والقول الثاني: وهو الأصح، أن هذا عام في جميع المبطلين الذين يحاولون إلحاق الضرر والمكر بالمحقين»[(١)].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: اجتثه من أصله، وأبطل عملهم، وأصلها كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾[(٢)].

وقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[(٣)]»[(٤)].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: فخرّ عليهم السقف من فوقهم: أعالي بيوتهم من فوقهم..

وقال آخرون: عنى بقوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أن العذاب أتاهم من السماء..

وأولى القولين بتأويل الآية، قول من قال: معنى ذلك: تساقطت عليهم سقوف بيوتهم، إذ أتى أصولها وقواعدها أمر اللَّه، فائتفكت بهم منازلهم لأن ذلك هو الكلام المعروف من قواعد البنيان، وخرّ السقف، وتوجيه معاني كلام اللَّه إلى الأشهر الأعرف منها، أولى من توجيهها إلى غير ذلك ما وُجِد إليه سبيل ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وأتى هؤلاء الذين مكروا من قَبْل مشركي قريش، عذاب اللَّه من حيث لا يدرون أنه أتاهم منه»[(٥)].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الكفار الذين كانوا قبل كفار مكة قد مكروا. وبين ذلك في مواضع أخر، كقول: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾[(٦)]،

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢١).
(٢) المائدة: الآية (٦٤).
(٣) الحشر: الآية (٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٦٦).
(٥) جامع البيان (١٤/ ٩٧-٩٨).
(٦) الرعد: الآية (٤٢).

وقـــولـــه: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾(١).

وبين بعض مكر كفار مكة بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾(٢) الآية.

وذكر بعض مكر اليهود بقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾(٣).

وبين بعض مكر قوم صالح بقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٤).

وذكر مكر قوم نوح بقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾(٥) الآية.

وبين مكر رؤساء الكفار في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾(٦) الآية. والمكر: إظهار الطيب وإبطان الخبيث، وهو الخديعة. وقد بين -جل وعلا- أن المكر السيئ لا يرجع ضرره إلا على فاعله. وذلك في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾(٧)»(٨).

* * *

---

(١) إبراهيم: الآية (٤٦).

(٢) الأنفال: الآية (٣٠).

(٣) آل عمران: الآية (٥٤).

(٤) النمل: الآيتان (٥٠-٥١).

(٥) نوح: الآيتان (٢٢-٢٣).

(٦) سبأ: الآية (٣٣).

(٧) فاطر: الآية (٤٣).

(٨) أضواء البيان (٣/ ٢٣٤-٢٣٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

★ غريب الآية:

تشاقون: الشقاق: الخلاف والمخاصمة؛ لأن كل واحد يكون في شق غير شق الآخر. والشق: الناحية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فعل اللَّه بهؤلاء الذين مكروا الذين وصف اللَّه -جلَّ ثناؤه- أمرهم ما فعل بهم في الدنيا، من تعجيل العذاب لهم، والانتقام بكفرهم، وجحودهم وحدانيته، ثم هو مع ذلك يوم القيامة مخزيهم، فمذلهم بعذاب أليم، وقائل لهم عند ورودهم عليه ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ﴾ أصله: من شاققت فلانا فهو يشاقُّني، وذلك إذا فعل كلّ واحد منهما بصاحبه ما يشقّ عليه. يقول -تعالى ذكره- يوم القيامة تقريعا للمشركين بعبادتهم الأصنام: أين شركائي؟ يقول: أين الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي اليوم، ما لهم لا يحضرونكم، فيدفعوا عنكم ما أنا مُحلّ بكم من العذاب، فقد كنتم تعبدونهم في الدنيا، وتتولونهم، والوليّ ينصر وليه، وكانت مشاقتهم اللَّه في أوثانهم مخالفتهم إياه في عبادتهم»[1].

قال ابن كثير: «وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر، ويخزيهم اللَّه على رءوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعا لهم وموبخا: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم؛

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٩٨-٩٩).

أي: أين هم عن نصركم وخلاصكم هاهنا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾[١]، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾[٢]. فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه»[٣].

قال القنوجي: « ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم في الموقف، قيل: هم العلماء، قالوا لأممهم الذين كانوا يعظونهم ولا يلتفتون إلى وعظهم، وكان هذا القول منهم على طريق الشماتة، وقيل هم الأنبياء، وقيل الملائكة، والظاهر الأول لأن ذكرهم بوصف العلم يفيد وصفًا يذكرون به هو أشرف من هذا الوصف وهو كونهم أنبياء أو كونهم ملائكة، ولا يقدح في هذا جواز الإطلاق؛ لأن المراد الاستدلال على الظهور فقط»[٤].

قال الخازن: «وإنما يقول المؤمنون هذا يوم القيامة لأن الكفار كانوا يستهزئون بالمؤمنين في الدنيا، وينكرون عليهم أحوالهم فإذا كان يوم القيامة ظهر أهل الحق، وأُكرموا بأنواع الكرامات، وأهين أهل الباطل وعذبوا بأنواع العذاب، فعند ذلك يقول المؤمنون: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وفائدة هذا القول إظهار الشماتة بهم فيكون أعظم في الهوان والخزي»[٥].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه يسأل المشركين يوم القيامة سؤال توبيخ، فيقول لهم: أين المعبودات التي كنتم تخاصمون رسلي وأتباعهم بسببها، قائلين: إنكم لا بد لكم أن تشركوها معي في عبادتي، وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[٦]، وقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾[٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا

(١) الشعراء: الآية (٩٣).
(٢) الطارق: الآية (١٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٦٧).
(٤) فتح البيان (٧/ ٢٣٣).
(٥) تفسير الخازن (٣/ ١١٢).
(٦) القصص: الآية (٦٢).
(٧) الشعراء: الآيتان (٩٢-٩٣).

﴿كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾[١] الآية، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾[٢] الآية، إلى غير ذلك من الآيات»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن لكل غادر يوم القيامة لواء يعرف به

* عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا جمع اللَّه الأولين والآخرين يوم القيامة رفع لكل غادر لواء فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان**»[٤].

★ غريب الحديث:

لواء: قال أهل اللغة: اللواء: الراية العظيمة لا يمسكها إلا صاحب جيش الحرب أو صاحب دعوة الجيش ويكون الناس تبعًا له.

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير مبينًا العلاقة بين الآية والحديث: « ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يظهر فضائحهم، وما كانت تُجنّه ضمائرهم، فيجعله علانية، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[٥] أي: تظهر وتشتهر، كما في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غَدْرَته، فيقال: هذه غَدْرَة فلان بن فلان**»»[٦].

وفي الحديث -**يقول النووي**- بيان غلظ تحريم الغدر لاسيما من صاحب الولاية العامة؛ لأن غدره يتعدى ضرره إلى خلق كثيرين»[٧].

قال القرطبي: «فمقتضى هذا الحديث: أن الغادر يُفعل به مثل ذلك؛ ليشهر

---

(١) غافر: الآيتان (٧٣-٧٤).
(٢) الأعراف: الآية (٣٧).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٢٣٦).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩)، والبخاري (٦/ ٣٤٨/ ٣١٨٨)، ومسلم (٣/ ١٣٥٩-١٣٦٠/ ١٧٣٥)، وأبو داود (٣/ ١٨٨/ ٢٧٥٦)، والترمذي (٤/ ١٢٢/ ١٥٨١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢٤/ ٨٧٣٧).
(٥) الطارق: الآية (٩).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٦٧).
(٧) شرح مسلم (١٢/ ٣٨).

بالخيانة والغدر، فيذمّه أهل الموقف، ولا يبعد أن يكون الوفي بالعهد يُرفع له لواء يُعرف به وفاؤه وبره، فيمدحه أهل الموقف، كما يُرفع لنبينا محمد ﷺ لواء الحمد فيحمده كلّ من في الموقف»[١].

وقال ابن بطال: «قال المهلب: أخبر ﷺ أن عقوبة الغادر يوم القيامة أن يرفع له لواء ليعرف الناس بغدرته، فينظرون منه بعين المعصية، وهذه عقوبة من نوع ما قال اللَّه في عقوبة الكاذبين على الله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[٢] وإنما قال البخاري: باب «**إثم الغادر للبر والفاجر**» لعموم قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**لكل غادر لواء يوم القيامة**» فدخل فيه من غدر من بر أو فاجر، دل أن الغدر حرام لجميع الناس برهم وفاجرهم؛ لأن الغدر ظلم، وظلم الفاجر حرام كظلم البر التقي»[٣].

وقال الحافظ: «قوله: «**ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة**» زاد في رواية مؤمل «**بقدر غدرته**» وزاد في رواية صخر «**يقال: هذه غدرة فلان**» أي: علامة غدرته؛ والمراد بذلك شهرته وأن يفتضح بذلك على رؤوس الأشهاد، وفيه تعظيم الغدر سواء كان من قبل الآمر أو المأمور وهذا القدر هو المرفوع من هذه القصة»[٤].

* * *

(١) المفهم (٣/ ٥٢٠).
(٢) هود: الآية (١٨).
(٣) شرح ابن بطال (٥/ ٣٧٠-٣٧١).
(٤) فتح الباري (١٣/ ٨٨).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال الذين أوتوا العلم: إن الخزي اليوم والسوء على من كفر بالله فجحد وحدانيته ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يقول: الذين تقبض أرواحهم الملائكة، ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: وهم على كفرهم وشركهم بالله، وقيل: إنه عنى بذلك من قتل من قريش ببدر، وقد أخرج إليها كرها..

وقوله: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ يقول: فاستسلموا لأمره، وانقادوا له حين عاينوا الموت قد نزل بهم، ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ وفي الكلام محذوف استغني بفهم سامعيه ما دلّ عليه الكلام عن ذكره وهو: قالوا ما كنا نعمل من سوء، يخبر عنهم بذلك أنهم كذّبوا وقالوا: ما كنا نعصي الله اعتصامًا منهم بالباطل رجاء أن ينجوا بذلك، فكذّبهم الله فقال: بل كنتم تعملون السوء وتصدّون عن سبيل الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول: إن الله ذو علم بما كنتم تعملون في الدنيا من معاصيه، وتأتون فيها ما يسخطه»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: الاستسلام والخضوع. والمعنى: أظهروا كمال الطاعة والانقياد، وتركوا ما كانوا عليه من الشقاق. وذلك عندما يعاينون الموت، أو يوم القيامة؛ يعني: أنهم في الدنيا يشاقون الرسل: أي يخالفونهم ويعادونهم، فإذا عاينوا الحقيقة ألقوا السلم: أي خضعوا واستسلموا وانقادوا حيث لا ينفعهم ذلك.

ومما يدل من القرآن على أن المراد بإلقاء السلم: الخضوع والاستسلام قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[2] على قراءة نافع وابن عامر

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٩٩).

(٢) النساء: الآية (٩٤).

وحمزة بلا ألف بعد اللام. بمعنى الانقياد والإذعان. وقوله: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾[1]، وقوله: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾[2] الآية.

والقول بأن السلم في الآيتين الأخيرتين: الصلح والمهادنة لا ينافي ما ذكرنا؛ لأن المصالح منقاد مذعن لما وافق من ترك السوء. وقوله: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[3]، فكله بمعنى الاستسلام والخضوع والانقياد. والانقياد عند معاينة الموت لا ينفع، كما قدمنا، وكما دلت عليه آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾[4] الآية، وقوله: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾[5] الآية، وقوله: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[6]، إلى غير ذلك من الآيات»[7].

قال ابن كثير: «﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾[8]، ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡۖ﴾[9]»[10].

* * *

(١) النساء: الآية (٩٠).
(٢) النساء: الآية (٩١).
(٣) النحل: الآية (٨٧).
(٤) النساء: الآية (١٨).
(٥) غافر: الآية (٨٥).
(٦) يونس: الآية (٩١).
(٧) أضواء البيان (٣/ ٢٣٧).
(٨) الأنعام: الآية (٢٣).
(٩) المجادلة: الآية (١٨).
(١٠) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٦٧).

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «﴿فَادْخُلُوا﴾ أي فيقال لهم ادخلوا ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني مقيمين فيها لا يخرجون منها. وإنما قال ذلك لهم ليكون أعظم في الغم والحزن، وفيه دليل على أن الكفار بعضهم أشد عذابًا من بعض ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ يعني عن الإيمان»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ الآية:

لم يبين هنا عدد أبوابها، ولكنه بين ذلك في سورة الحجر في قوله -جل وعلا-: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[2]، أرجو اللَّه أن يعيذنا وإخواننا المسلمين منها ومن جميع أبوابها إنه رحيم كريم»[3].

* * *

(١) تفسير الخازن (٣/ ١١٣).

(٢) الحجر: الآية (٤٤).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٢٣٩).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «قوله ﷻ: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾، وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون إلى مكة أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد سأل الذين كانوا يقعدون على طرقات مكة من الكفار فيقولون: هو ساحر، كاهن، شاعر كذاب، مجنون. وإذا لم تلقه خير لك. فيقول الوافد: أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي من دون أن أدخل مكة فألقاه فيدخل مكة، فيرى أصحاب رسول اللَّه ﷺ فيسألهم عنه، فيخبرونه بصدقه وأمانته وأنه نبي مبعوث من اللَّه ﷻ، فذلك قوله ﷻ: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يعني اتقوا الشرك، وقول الزور والكذب ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ يعني: أنزل خيرًا.

فإن قلت: لم رفع الأول وهو قوله: أساطير الأولين، ونصب الثاني، وهو قوله: قالوا خيرًا، قلت ليحصل الفرق بين الجوابين جواب المنكر الجاحد، وجواب المقر المؤمن وذلك أنهم لما سألوا الكفار عن المنزل على النبي ﷺ عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس هو من الإنزال في شيء؛ لأنهم لم يعتقدوا كونه منزلًا، ولما سألوا المؤمنين على المنزل على النبي ﷺ لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بيّنًا مكشوفًا معقولًا للإنزال، فقالوا: خيرًا أي أنزل خيرًا، وتم الكلام عند قوله خيرًا، فهو وقف تام، ثم ابتدأ بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يعني الذين أتوا بالأعمال الصالحة الحسنة ثوابها حسنة مضاعفة من الواحد إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة، وقال الضحاك: هي النصر والفتح. وقال مجاهد: هي الرزق الحسن.

فعلى هذا يكون معنى الآية: للذين أحسنوا ثواب إحسانهم في هذه الدنيا حسنة، وهي النصر والفتح والرزق الحسن، وغير ذلك مما أنعم الله به على عباده في الدنيا. ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ يعني ما لهم في الآخرة مما أعد الله لهم في الجنة خير مما يحصل لهم في الدنيا، ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني الجنة. وقال الحسن: هي الدنيا لأن أهل التقوى يتزودون منها إلى الآخرة، والقول الأول أولى هو قول جمهور المفسرين؛ لأن الله فسر هذه الدار بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ يعني بساتين إقامة، من قولهم: عدنَ بالمكان، أي أقام به. ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يعني تلك الجنات لا يرحلون عنها، ولا يخرجون منها. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يعني تجري الأنهار في هذه الجنات من تحت دور أهلها وقصورهم ومساكنهم. ﴿لَهُمْ فِيهَآ﴾ يعني في الجنات ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾ يعني ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين مع زيادات غير ذلك، وهذه الحالة لا تحصل لأحد إلا في الجنة؛ لأن قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ لا يفيد الحصر، وذلك يدل على أن الإنسان لا يجد كل ما يريد في الدنيا ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي هكذا يكون جزاء المتقين»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن من أحسن عمله في هذه الدار التي هي الدنيا، كان له عند الله الجزاء الحسن في الآخرة. وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾[2] الآية. والحسنى: الجنة. والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم.

وقوله: ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾[3]، وقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[4]. وقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾[5]. وقوله في هذه الآية ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: مجازاة حسنة بالجنة ونعيمها. والآيات في مثل ذلك كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن دار الآخرة خير من دار الدنيا. وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿وَقَالَ

(١) تفسير الخازن (٣/ ١١٣).
(٢) يونس: الآية (٢٦).
(٣) النجم: الآية (٣١).
(٤) الرحمن: الآية (٦٠).
(٥) النمل: الآية (٨٩).

﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾(١) الآية. وقوله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾(٢)، وقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾(٣)، وقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾(٤)، وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ﴾(٥) الآية..

قوله تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾؛ مدح الله -جل وعلا- دار المتقين التي هي الجنة في هذه الآية الكريمة؛ لأن «نعم» فعل جامد لإنشاء المدح. وكرر الثناء عليها في آيات كثيرة؛ لأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(٦) الآية. وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾(٧)، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن المتقين يدخلون يوم القيامة جنات عدن. والعدن في لغة العرب: الإقامة. فمعنى جنات عدن: جنات إقامة في النعيم، لا يرحلون عنها، ولا يتحولون.

وبيَّن في آيات كثيرة: أنهم مقيمون في الجنة على الدوام، كما أشار له هنا بلفظة ﴿عَدْنٍ﴾، كقوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾(٨)، وقوله: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾(٩)، الآية. والمقامة: الإقامة. وقد تقرر في التصريف: أن الفعل إذا زاد على ثلاثة أحرف فالمصدر الميمي منه، واسم الزمان، واسم المكان كلها بصيغة اسم المفعول. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾(١٠) على قراءة نافع وابن عامر

---

(١) القصص: الآية (٨٠).
(٢) آل عمران: الآية (١٩٨).
(٣) الأعلى: الآيتان (١٦-١٧).
(٤) الضحى: الآية (٤).
(٥) آل عمران: الآيتان (١٤-١٥).
(٦) السجدة: الآية (١٧).
(٧) الإنسان: الآية (٢٠).
(٨) الكهف: الآية (١٠٨).
(٩) فاطر: الآية (٣٥).
(١٠) الدخان: الآية (٥١).

بضم الميم من الإقامة. وقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ بيَّن أنواع تلك الأنهار في قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[2].

وقوله هنا: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أوضحه في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[3]، وقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾[5]، وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[6]، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[7]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يدل على أن تقوى اللّه هو السبب الذي به تنال الجنة.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[8]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[9]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[10]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾[11] إلى غير ذلك من الآيات»[12].

* * *

(١) الكهف: الآيتان (٢-٣).
(٢) محمد: الآية (١٥).
(٣) ق: الآية (٣٥).
(٤) الزخرف: الآية (٧١).
(٥) الفرقان: الآية (١٦).
(٦) الزمر: الآية (٣٤).
(٧) فصلت: الآيتان (٣١-٣٢).
(٨) مريم: الآية (٦٣).
(٩) آل عمران: الآية (١٣٣).
(١٠) الذاريات: الآية (١٥).
(١١) الطور: الآية (١٧).
(١٢) أضواء البيان (٣/ ٢٤٠-٢٤٣).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «ثم عاد إلى وصف المتقين، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ يعني مؤمنين طاهرين من الشرك. قال مجاهد: زاكية أقوالهم وأفعالهم، وقيل: إن قوله: ﴿طَيِّبِينَ﴾ كلمة جامعة لكل معنى حسن فيدخل فيه أنهم أتوا بكل ما أمروا به من فعل الخيرات والطاعات، واجتنبوا كل ما نهوا عنه من المكروهات والمحرمات، مع الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة، والمباعدة من الأخلاق المذمومة والخصال المكروهة القبيحة.

وقيل معناه: إن أوقاتهم تكون طيبة سهلة؛ لأنهم يبشرون عند قبض أرواحهم بالرضوان والجنة والكرامة، فيحصل لهم عند ذلك الفرح والسرور والابتهاج، فيسهل عليهم قبض أرواحهم، ويطيب لهم الموت على هذه الحالة ﴿يَقُولُونَ﴾ -يعني: الملائكة- لهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ يعني تسلم عليهم الملائكة، أو تبلغهم السلام من الله ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني في الدنيا من الأعمال الصالحة.

فإن قلت: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وبين قوله ﷺ: «**لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته**» أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة[1].

قلت: قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله في «شرح مسلم»[2]: اعلم أن مذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا إيجاب ولا تحريم

---

(١) أحمد (٢/ ٢٥٦) والبخاري (١٠/ ١٥٧/ ٥٦٧٣) ومسلم (٤/ ٢١٦٩/ ٢٨١٦[٧٥]).

(٢) شرح مسلم (١٧/ ١٣١-١٣٢).

ولا غير ذلك من أنواع التكليف، ولا تثبت هذه الأشياء كلها ولا غيرها إلا بالشرع، ومذهب أهل السنة أيضًا أن اللَّه ﷻ لا يجب عليه شيء، بل العالم كله ملكه، والدنيا والآخرة في سلطانه، يفعل فيهما ما يشاء، فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين، وأدخلهم النار كان ذلك عدلًا منه، وإذا أكرمهم ورحمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه، ولو نعم الكافرين، وأدخلهم الجنة كان ذلك له ومنه فضلًا، ولكنه ﷻ أخبر وخبره صادق أنه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين، ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب الكافرين ويدخلهم النار عدلًا منه.

وأما المعتزلة فيثبتون الأحكام بالعقل، ويوجبون ثواب الأعمال، ويوجبون الأصلح في ضبط طويل لهم، تعالى اللَّه عن اختراعاتهم الباطلة المنابذة لنصوص الشرع.

وفي ظاهر الحديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته.

وأما قوله ﷻ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، ونحوها من الآيات التي تدل على أن الأعمال الصالحة يدخل بها الجنة، فلا تعارض بينها، وبين هذا الحديث، بل معنى الآيات: إن دخلوا الجنة بسبب الأعمال والتوفيق للإخلاص فيها وقبولها برحمة اللَّه تعالى وفضله، فيصح أنه لم يدخل الجنة بمجرد العمل وهو مراد الحديث، ويصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها وهي من الرحمة والفضل والمنة، واللَّه أعلم بمراده»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن المتقين الذين كانوا يمتثلون أوامر ربهم، ويجتنبون نواهيه ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: أي يقبضون أرواحهم في حال كونهم طيبين: أي طاهرين من الشرك والمعاصي -على أصح التفسيرات- ويبشرونهم بالجنة، ويسلمون عليهم.

وبين هذا المعنى أيضًا في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ

(١) الزخرف: الآية (٧٢).

(٢) تفسير الخازن (٣/ ١١٤).

تُوعَدُونَ﴾[١]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[٣]. والبشارة عند الموت، وعند دخول الجنة من باب واحد؛ لأنها بشارة بالخير بعد الانتقال إلى الآخرة. ويفهم من صفات هؤلاء الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، ويقولون لهم سلام عليكم ادخلوا الجنة - أن الذين لم يتصفوا بالتقوى لم تتوفهم الملائكة على تلك الحال الكريمة، ولم تسلم عليهم، ولم تبشرهم.

وقد بيَّن تعالى هذا المفهوم في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾[٤] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾[٦] الآية، إلى غير ذلك من الآيات»[٧].

* * *

---

(١) فصلت: الآية (٣٠).
(٢) الزمر: الآية (٧٣).
(٣) الرعد: الآيتان (٢٣-٢٤).
(٤) النحل: الآية (٢٨).
(٥) النساء: الآية (٩٧).
(٦) الأنفال: الآية (٥٠).
(٧) أضواء البيان (٣/ ٢٤٣-٢٤٤).

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هل ينتظر هؤلاء المشركون ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بحشرهم لموقف القيامة ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يقول -جلَّ ثناؤه-: كما يفعل هؤلاء من انتظارهم ملائكة اللَّه لقبض أرواحهم، أو إتيان أمر اللَّه، فَعَلَ أسلافهم من الكفرة باللَّه؛ لأن ذلك في كلّ مشرك باللَّه ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يقول -جلَّ ثناؤه-: وما ظلمهم اللَّه بإحلال سُخْطه، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمعصيتهم ربهم وكفرهم به، حتى استحقوا عقابه، فعجَّل لهم»[1].

قال ابن عاشور: «وإسناد الانتظار المذكور إليهم جار على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيلهم منزلة من ينتظر أحد الأمرين؛ لأنّ حالهم من الإعراض عن الوعيد وعدم التفكّر في دلائل صدق الرسول ﷺ، مع ظهور تلك الدلائل وإفادتها التحقّق، كحال من أيقن حلول أحد الأمرين به فهو يترقّب أحدهما، كما تقول لمن لا يأخذ حِذره من العدوّ: ما تترقّب إلاّ أن تقع أسيرًا. ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[3]. وهذا قريب من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه وما هو بذلك»[4].

* * *

(١) جامع البيان (٤/ ١٠٢).
(٢) يونس: الآية (١٠٢).
(٣) القصص: الآية (١٩).
(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ١٤٥).

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فأصاب هؤلاء الذين فعلوا من الأمم الماضية فعل هؤلاء المشركين من قريش ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾، يعني عقوبات ذنوبهم، ونقم معاصيه التي اكتسبوها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يقول: وحلّ بهم من عذاب اللَّه ما كانوا يستهزئون منه، ويسخرون عند إنذارهم ذلك رسلُ اللَّه، ونزل ذلك بهم دون غيرهم من أهل الإيمان بالله»[1].

* * *

(١) جامع البيان (١٤/ ١٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

★ غريب الآية:

البلاغ: إيصال الخبر. أصله: الكفاية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ بالله فعبدوا الأوثان والأصنام من دون الله: ما نعبد هذه الأصنام إلا لأن الله قد رضي عبادتنا هؤلاء، ولا نحرم ما حرمنا من البحائر والسوائب، إلا أن الله شاء منا ومن آبائنا تحريمناها ورضيه، لولا ذلك لقد غير ذلك ببعض عقوباته أو بهدايته إيانا إلى غيره من الأفعال. يقول -تعالى ذكره-: كذلك فعل الذين من قبلهم من الأمم المشركة الذين استَن هؤلاء سنتهم، فقالوا مثل قولهم، وسلكوا سبيلهم في تكذيب رسل الله، واتباع أفعال آبائهم الضلال.

وقوله: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ يقول -جلَّ ثناؤه-: فهل أيها القائلون: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، على رسلنا الذين نرسلهم بإنذاركم عقوبتنا على كفركم، إلا البلاغ المبين: يقول: إلا أن تبلغكم ما أرسلنا إليكم من الرسالة. ويعني بقوله ﴿ٱلْمُبِينُ﴾: الذي يبين عن معناه لمن أبلغه، ويفهمه من أرسل إليه»[1].

قال القنوجي: « ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ من السوائب والوصائل والبحائر ونحوهما، ومقصودهم بهذا القول المعلق بالمشيئة: الطعن في الرسالة؛ أي: لو

(١) جامع البيان (١٤/ ١٠٣).

كان ما قاله الرسول حقًّا من المنع من عبادة غير اللَّه، والمنع من تحريم ما لم يحرّمه اللَّه حاكيًا ذلك عن اللَّه، لم يقع منا ما يخالف ما أراده منا، فإنه قد شاء ذلك، وما شاء كان وما لم يشأه لم يكن.

فلما وقع منا العبادة لغيره وتحريم ما لم يحرمه، كان ذلك دليلًا على أن ذلك هو المطابق لمراده، والموافق لمشيئته، مع أنهم في الحقيقة لا يعترفون بذلك ولا يقرّون به، لكنهم قصدوا ما ذكرنا من الطعن على الرسل»[١].

قال ابن عاشور: «وذلك أنّهم كانوا يحاولون إفحام الرسول ﷺ بأنه يقول: إن اللَّه يعلم ما يسرّون وما يعلنون، وإنه القادر عليهم وعلى آلهتهم، وإنه لا يرضى بأن يعبد ما سواه، وإنه ينهاهم عن البحيرة والسائبة ونحوهما، فحسبوا أنهم خصموا النبي ﷺ وحاجّوه فقالوا له: لو شاء اللَّه أن لا نعبد أصنامًا لما أقدرنا على عبادتها، ولو شاء أن لا نحرّم ما حرّمنا من نحو البحيرة والسائبة لما أقرّنا على تحريم ذلك. وذلك قصد إفحام وتكذيب.

وهذا ردّه اللَّه عليهم بتنظير أعمالهم بأعمال الأمم الذين أهلكهم اللَّه فلو كان اللَّه يرضى بما عملوه لما عاقبهم بالاستئصال، فكانت عاقبتهم نزول العذاب بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، ثم بقطع المحاجّة بقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، أي وليس من شأن الرسل ﷺ المناظرة مع الأمّة.

وقال في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾[٢]، فسمّى قولهم هذا تكذيبًا كتكذيب الذين من قبلهم لأن المقصود منه التكذيب وتعضيد تكذيبهم بحجّة أساءوا الفهم فيها، فهم يحسبون أن اللَّه يتولّى تحريك الناس لأعمالهم كما يُحرّك صاحب خيال الظلّ ومحرّك اللعب أشباحَه وتماثيله، وذلك جهل منهم بالفرق بين تكوين المخلوقات وبين ما يكسبونه بأنفسهم، وبالفرق بين أمر التكذيب وأمر التكليف، وتخليط بين الرضى والإرادة، ولولا هذا التخليط لكان قولهم إيمانًا»[٣].

---

(١) فتح البيان (٧/ ٢٣٩-٢٤٠).
(٢) الأنعام: الآية (١٤٨).
(٣) التحرير والتنوير (٤/ ١٤٧-١٤٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ يعني: كما بعثنا فيكم محمدًا ﷺ رسولًا ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يعني: أن الرسل كانوا يأمرونهم بأن يعبدوا اللَّه وأن يجتنبوا عبادة الطاغوت، وهو اسم كل معبود من دون اللَّه، ﴿فَمِنْهُم﴾ يعني: فمن الأمم الذين جاءتهم الرسل ﴿مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ يعني: هداه اللَّه إلى الإيمان به وتصديق رسله، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ يعني: ومن الأمم من وجبت عليه الضلالة بالقضاء السابق في الأزل، حتى مات على الكفر والضلال. وفي هذه الآية أبين دليل على أن الهادي والمضل هو اللَّه تعالى؛ لأنه المتصرف في عباده؛ فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، لا اعتراض لأحد عليه بما حكم به في سابق علمه.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: فسيروا في الأرض معتبرين متفكرين لتعرفوا مآل من كذب الرسل، وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك، ولتعرفوا أن العذاب نازل بكم إن أصررتم على الكفر والتكذيب كما نزل بهم»(1).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد بعثنا أيها الناس في كلّ أمة سلفت قبلكم رسولًا -كما بعثنا فيكم- بأن اعبدوا اللَّه وحده لا شريك له، وأفردوا له الطاعة، وأخلصوا له العبادة ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يقول: وابعدوا من الشيطان، واحذروا أن يغويكم، ويصدكم عن سبيل اللَّه، فتضلوا، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾

---

(1) تفسير الخازن (٣/ ١١٤-١١٥).

يقول: فممن بعثنا فيهم رسلنا مَن هدى اللَّه، فوفَّقه لتصديق رسله، والقبول منها، والإيمان باللَّه، والعمل بطاعته، ففاز وأفلح، ونجا من عذاب اللَّه، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ يقول: وممن بعثنا رسلنا إليه من الأمم آخرون حقَّت عليهم الضلالة، فجاروا عن قصد السبيل، فكفروا باللَّه وكذّبوا رسله، واتبعوا الطاغوت، فأهلكهم اللَّه بعقابه، وأنزل عليهم بأسه الذي لا يردّ عن القوم المجرمين، ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره- لمشركي قريش: إن كنتم أيها الناس غير مصدّقي رسولنا فيما يخبركم به عن هؤلاء الأمم الذين حلّ بهم ما حلّ من بأسنا بكفرهم باللَّه، وتكذيبهم رسوله؛ فسيروا في الأرض التي كانوا يسكنونها، والبلاد التي كانوا يعمرونها، فانظروا إلى آثار اللَّه فيهم، وآثار سخطه النازل بهم، كيف أعقبهم تكذيبهم رسل اللَّه ما أعقبهم، فإنكم ترون حقيقة ذلك، وتعلمون به صحة الخبر الذي يخبركم به محمد ﷺ»[1].

قال ابن كثير: «قال تعالى في هذه الآية الكريمة: « ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدرًا، فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة، وحكمة قاطعة»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه بعث في كل أمة رسولًا بعبادة اللَّه وحده، واجتناب عبادة ما سواه. وهذا هو معنى لا إله إلا اللَّه؛ لأنها مركبة من نفي وإثبات، فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير اللَّه تعالى في جميع أنواع العبادات، وإثباتها هو إفراده -جل وعلا- بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم صلوات اللَّه وسلامه.

وأوضح هذا المعنى كثيرًا في القرآن عن طريق العموم والخصوص. فمن

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٠٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٧٠).

النصوص الدالة عليه مع عمومها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[2]، ونحو ذلك من الآيات.

ومن النصوص الدالة عليه مع الخصوص في أفراد الأنبياء وأممهم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[4]، وقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[5]، وقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[6]، إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن كل ما عبد من دون الله؛ فهو طاغوت. ولا تنفع عبادة اللّه إلا بشرط اجتناب عبادة ما سواه، كما بينه تعالى بقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[7]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[8]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾:

ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الأمم التي بعث فيها الرسل بالتوحيد؛ منهم سعيد، ومنهم شقي. فالسعيد منهم يهديه اللّه إلى اتباع ما جاءت به الرسل، والشقي منهم يسبق عليه الكتاب فيكذب الرسل، ويكفر بما جاءوا به. فالدعوة إلى دين الحق عامة، والتوفيق للهدى خاص. كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[9]. .

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: وجبت عليه ولزمته. لما سبق في علم اللّه من أنه يصير إلى الشقاوة. والمراد بالضلالة: الذهاب عن طريق

---

(١) الأنبياء: الآية (٢٥).
(٢) الزخرف: الآية (٤٥).
(٣) الأعراف: الآية (٥٩).
(٤) الأعراف: الآية (٦٥).
(٥) الأعراف: الآية (٧٣).
(٦) الأعراف: الآية (٨٥).
(٧) البقرة: الآية (٢٥٦).
(٨) يوسف: الآية (١٠٦).
(٩) يونس: الآية (٢٥).

الإسلام إلى الكفر.

وقد بين تعالى هذا المعنى في آيات أخر؛ كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[1]، وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾[2]، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن العبادة هي التوحيد لأن الخصومة فيه والطاغوت عام في كل ما عُبد من دون الله

* عن معاذ ﷺ قال: «كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له عفير، فقال: **يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**. فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشر به الناس؟ قال: **لا تبشرهم فيتكلوا**»[5].

★ فوائد الحديث:

قوله: «**حق الله على العباد**»: **قال الحافظ**: «الحق: كل موجود متحقق أو ما سيوجد لا محالة. ويقال للكلام الصدق: حق؛ لأن وقوعه متحقق لا تردد فيه، وكذا الحق المستحق على الغير إذا كان لا تردد فيه، والمراد هنا ما يستحقه الله على عباده مما جعله محتمًا عليهم»[6].

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: «وحق الله على العباد هو ما يستحق عليهم، ويجعله متحتما، وحق العباد على الله معناه أنه متحقق لا محالة لأنه قد وعدهم ذلك جزاءً لهم على توحيده، ووعده حق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[7].

---

(١) التغابن: الآية (٢).
(٢) هود: الآية (١٠٥).
(٣) الشورى: الآية (٧).
(٤) أضواء البيان (٣/ ٢٤٤-٢٤٦).
(٥) رواه: أحمد (٥/ ٢٢٨)، والبخاري (٦/ ٧٢-٧٣/ ٢٨٥٦) واللفظ له، ومسلم (١/ ٥٨/ ٣٠)، وأبو داود (٣/ ٥٥/ ٢٥٥٩) مختصرًا، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٤٣-٤٤٤/ ٥٨٧٧).
(٦) فتح الباري (١١/ ٤١٢).
(٧) آل عمران: الآية (٩).

قال شيخ الإسلام: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل ليس هو استحقاق مقابلة كما يستحقه المخلوق على المخلوق فمن الناس من يقول: لا معنى للاستحقاق إلا أن اللَّه أخبر بذلك ووعده صدق، ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقًا زائدًا على هذا كما دلّ عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] ولكن أهل السنة يقولون: هو الذي كتب على نفسه الرحمة وأوجب هذا الحق على نفسه لم يوجبه عليه مخلوق، والمعتزلة يدعون أنه واجب عليه بالقياس على الخلق، وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له، وأنهم يستحقون الجزاء وبدون أن يكون هو الموجب، وغلطوا في ذلك، وهذا الباب غلطت فيه القدرية والجبرية أتباع جهم والقدرية النافية»[2].

وقوله: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**»: **قال الحافظ**: «المراد بالعبادة عمل الطاعات واجتناب المعاصي، وعطف عليها عدم الشرك لأنه تمام التوحيد، والحكمة في عطفه على العبادة أن بعض الكفرة كانوا يدعون أنهم يعبدون اللَّه ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى فاشترط نفي ذلك، وتقدم أن الجملة حالية، والتقدير: يعبدونه في حال عدم الإشراك به. وقال ابن حبان: عبادة اللَّه إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح»[3].

وقال الشيخ سليمان بن عبدالله: «قوله: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**» أي: يوحدوه بالعبادة وحده ولا يشركوا به شيئًا. وفائدة هذه الجملة بيان أن التجرد من الشرك لا بد منه في العبادة، وإلا فلا يكون العبد آتيًا بعبادة اللَّه بل مشرك، وهذا هو معنى قول المصنف: إن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه، وفيه معرفة حق اللَّه على العباد، وهو عبادته وحده لا شريك له.

فيا من حق سيده الإقبال عليه، والتوجه بقلبه إليه، لقد صانك وشرفك عن إذلال قلبك ووجهك لغيره، فما هذه الإساءة القبيحة في معاملته مع هذا التشريف والصيانة! فهو يعظمك ويدعوك إلى الإقبال، وأنت تأبى إلا مبارزته بقبائح

---

(١) الروم: الآية (٤٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٥-٥٦).

(٣) فتح الباري (١١/ ٤١٢).

الأفعال. . . وكيف يعبده حق عبادته من صرف سؤاله، ودعاءه، وتذلّله، واضطراره، وخوفه، ورجاءه، وتوكله، وإنابته، وذبحه، ونذره، لمن لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا، من ميت رميم في التراب، أو بناء مشيد من القباب، فضلًا مما هو شر من ذلك.

قوله: «وحق العباد على اللَّه أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا»:

قال الخلخالي: تقديره: أن لا يعذب من يعبده ولا يشرك به شيئًا. والعبادة هي الإتيان بالأوامر، والانتهاء عن المناهي؛ لأن مجرد عدم الإشراك لا يقتضي نفي العذاب، وقد علم ذلك من القرآن والأحاديث الواردة في تهديد الظالمين والعصاة»[١].

قال الحافظ: اقتصر على نفي الإشراك لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذب رسول اللهﷺ فقد كذب اللَّه، ومن كذب اللَّه فهو مشرك، وهو مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته؛ أي: مع سائر الشروط»[٢].

وفيه: «الحث على إخلاص العبادة لله تعالى وأنها لا تنفع مع الشرك؛ بل لا تسمى عبادة شرعًا. واللَّه أعلم»[٣].

* * *

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٦-٥٧).
(٢) فتح الباري (١/ ٣٠٣).
(٣) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٧).

قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٧﴾

★ **غريب الآية:**

تحرص: الحرص: فَرْطُ الطلب للشيء. يقال: حَرِصَ على كذا إذا أفرط في تحصيله وإمساكه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر اللَّه تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان اللَّه قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[1]، وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[2]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[4].

فقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلهذا قال: ﴿لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ أي: من أضله فَمَن الذي يهديه من بعد الله؟ أي: لا أحد ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ينقذونهم من عذابه ووثاقه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5]»[6].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا

---

(١) المائدة: الآية (٤١).
(٢) هود: الآية (٣٤).
(٣) الأعراف: الآية (١٨٦).
(٤) يونس: الآيتان (٩٦-٩٧).
(٥) الأعراف: الآية (٥٤).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٧٠-٥٧١).

﴿لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ : ذكر -جل وعلا- في هذه الآية: أن حرص النَّبي ﷺ على إسلام قومه لا يهدي من سبق في علم اللَّه أنه شقي.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[١]، وقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢]، وقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات»[٤].

قال ابن عاشور: «وفي الآية لطيفتان:

الأولى: التعريض بالثناء على النبي ﷺ في حرصه على خيرهم مع ما لقيه منهم من الأذى الذي شأنه أن يثير الحنَق في نفس من يلحقه الأذى؛ ولكن نفس محمد ﷺ مطهّرة من كل نقص ينشأ عن الأخلاق الحيوانية.

واللطيفة الثانية: الإيماء إلى أن غالب أمّة الدعوة المحمّدية سيكونون مهتدين، وأن الضُلاّل منهم فئة قليلة، وهم الذين لم يقدر اللَّه هديهم في سابق علمه بما نشأ عن خلقه وقُدرته من الأسباب التي هيّأت لهم البقاء في الضلال»[٥].

* * *

(١) القصص: الآية (٥٦).
(٢) المائدة: الآية (٤١).
(٣) الأنعام: الآية (١٢٥).
(٤) أضواء البيان (٣/ ٢٤٧).
(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ١٥١).

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان على أنه ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أي: استبعدوا ذلك، فكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه. فقال تعالى مكذبًا لهم ورادًا عليهم: ﴿بَلَى﴾ أي: بلى سيكون ذلك، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: لا بد منه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر»[1].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ هذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله وبالغوا في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت.

ووجه التعجيب: أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات»[2].

قال الخازن: «وتقرير الشبهة التي حصلت للمشركين في إنكار البعث بعد الموت أن الإنسان ليس هو إلا هذه البنية المخصوصة، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبَلِي امتنع عوده بعينه؛ لأن الشيء إذا عدم فقد فني، ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه، فهذا هو أصل شبهتهم ومعتقدهم في إنكار البعث بعد الموت، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ فرد الله عليهم ذلك، وكذبهم في قولهم، فقال تعالى: ﴿بَلَى﴾ يعني: بلى يبعثهم بعد الموت؛ لأن لفظة بلى إثبات لما بعد النفي.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٧١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٠٥).

والجواب عن شبهتهم أن اللَّه ﷻ خلق الإنسان وأوجده من العدم ولم يك شيئًا، فالذي أوجده بقدرته ثم أعدمه قادر على إيجاده بعد إعدامه؛ لأن النشأة الثانية أهون من الأولى ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ يعني أن الذي وعد به من البعث بعد الموت وعد حق لا خلف فيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني لا يفهمون كيف يكون ذلك العود، واللَّه ﷻ قادر على كل شيء»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل و علا- في هذه الآية الكريمة: أن الكفار حلفوا جهد أيمانهم -أي: اجتهدوا في الحلف- وغلظوا الأيمان على أن اللَّه لا يبعث من يموت، وكذبهم اللَّه -جل وعلا- في ذلك بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، وكرر في آيات كثيرة هذا المعنى المذكور هنا من إنكارهم للبعث وتكذيبه لهم في ذلك؛ كقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[4]، وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[5] والآيات بمثل هذا كثيرة جدًّا»[6].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استحباب إبرار المقسم واختلاف العلماء في لفظ القسم

* عن ابن عباس ﷺ كان يحدث: «أن رجلًا أتى رسول اللَّه ﷺ فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظلة تَنْطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكففون منها، فالمستكثر والمستقل، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوتَ، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع، ثم وصل، فقال أبو بكر: يا رسول اللَّه بأبي أنت، واللَّه لتدعني فأعبرها، فقال النبي ﷺ له: اعْبرْهَا. قال: أما الظلة فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن فالقرآن

(١) تفسير الخازن (٣/ ١١٥).
(٢) التغابن: الآية (٧).
(٣) الأنبياء: الآية (١٠٤).
(٤) يس: الآيتان (٧٨-٧٩).
(٥) الإسراء: الآية (٥١).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٢٤٧).

حلاوته تنطف، فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به فيُعليك اللَّه، ثم يأخذ به رجل فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ به رجل فينقطع، ثم يوصل له فيعلو به. فأخبرني يا رسول اللَّه -بأبي أنت- أصبت أم أخطأت؟ قال النبي ﷺ: **أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا**، قال: فواللَّه يا رسول اللَّه لتحدثني بالذي أخطأت. قال: **لا تقسم**»[1].

* عن البراء رضي الله عنه قال: «أمرنا النبي ﷺ بإبرار المقسم»[2].

* عن أسامة: «أن ابنة لرسول اللَّه ﷺ أرسلت إليه -ومع رسول اللَّه ﷺ أسامة ابن زيد وسعد وأبي أو أُبَيّ- أن ابني قد احتضر فاشهدنا، فأرسل يقرأ السلام ويقول: **إن لله ما أخذ وما أعطى وكل شيء عنده مسمى، فلتصبر وتحتسب**. فأرسلت إليه تقسم عليه، فقام وقمنا معه، فلما قعد رفع إليه فأقعده في حجره، ونفس الصبي تقعقع، ففاضت عينا رسول اللَّه ﷺ فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: **هذه رحمة يضعها اللَّه في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء**»[3].

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم**»[4].

* عن معبد بن خالد: سمعت حارثة بن وهب قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٩-٢٣٦)، والبخاري (٢١/ ٥٣٤/ ٧٠٤٦)، ومسلم (٤/ ١٧٧٧و١٧٧٨/ ٢٢٦٩)، وأبو داود (٣/ ٥٧٨/ ٣٨٦٨)، والترمذي (٤/ ٤٧٠/ ٢٢٩٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٧/ ٧٦٤٠)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٩-١٢٩٠/ ٣٩١٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٤-٢٩٩)، والبخاري (١١/ ٦٦٣/ ٦٦٥٤)، ومسلم (٣/ ١٦٣٥/ ٢٠٦٦)، والترمذي (٤/ ١٠٨/ ٢٨٠٩)، والنسائي (٤/ ٣٥٥-٣٥٦/ ١٩٣٨) والكبرى (١/ ٦٣١/ ٢٠٦٦)، وابن ماجه (١/ ٦٨٣/ ٢١١٦).

(٣) أخرجه: البخاري (١١/ ٦٦٣/ ٦٦٥٥)، ومسلم (٢/ ٦٣٥-٦٣٦/ ٩٢٣)، وأبو داود (٣/ ٤٩٢/ ٣١٢٥)، والنسائي (٤/ ٣٢١-٣٢٢/ ١٨٦٧)، وابن ماجه (١/ ٥٠٦/ ١٥٨٨).

(٤) أخرجه: البخاري (١١/ ٦٦٣/ ٦٦٥٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٨/ ٢٦٣٢)، والترمذي (٣/ ٣٧٤/ ١٠٦٠)، والنسائي (٤/ ٣٢٥/ ١٨٧٤)، وابن ماجه (١/ ٥١٢/ ١٦٠٣).

«ألا أدلكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على اللَّه لأبره. وأهل النار كل جوّاظ عتلّ مستكبر»[(١)].

★ **فوائد الأحاديث:**

ترجم الإمام البخاري للأحاديث السابقة بآية الباب.

قال ابن بطال: «قال المهلب: قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ دليل على أن الحلف باللَّه ﷻ أكبر الأيمان كلها؛ لأن الجهد شدة المشقة.

اختلف العلماء في قول الرجل: أقسمت باللَّه، أو أقسمت ولم يقل باللَّه، فذهب أبو حنيفة والثوري أنها أيمان، سواء أريد بها اليمين أم لا. وقال مالك: (أقسم) لا تكون يمينًا حتى يقول: أقسم باللَّه، أو ينوي بقوله: (أقسم) اليمين، فإذا لم ينوه فليست بيمين. وروي مثله عن الحسن وعطاء وقتادة والزهري.

وقال الشافعي: (أقسم) ليست بيمين سواء أراد بها اليمين أم لا، و(أقسم بالله) يمين إن أراد بها اليمين. وروى عنه الربيع: إذا قال: (أقسم)، ولم يقل: (بالله) فهو كقوله: (والله).

وحجة الكوفيين رواية من روى في حديث أبي بكر: «أقسمت عليك يا رسول اللَّه لتحدثني فقال النبي ﷺ: لا تقسم»، واحتجوا بحديث البراء قال: **«أمرنا النبي** ﷺ **بإبرار المقسم»** قالوا: ولم يقل: باللَّه، وبحديث أسامة أن ابنة النبي ﷺ أرسلت تقسم عليه، ولم يقل: باللَّه، وبقوله ﷺ: **«لو أقسم على اللَّه لأبره»**، ولم يأت في شيء من هذه الأحاديث ذكر اسم اللَّه، قالوا: وقد جاء في القرآن ذكر اللَّه مع القسم في موضع، ولم يأت في موضع آخر، اكتفاءً بما دل عليه اللفظ، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾[(٢)]، فذكر اسمه، وقال تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾[(٣)] فحذف اسمه، فدل على أن أحد الموضعين يفيد ما أفاده الآخر.

وقال السيرافي: لا تكون (أقسم) إلا يمينًا؛ لدخول اللام في جوابها، ولو كانت غير يمين لما دخلت اللام في الجواب؛ لأنك لا تقول: ضربت لأفعلن، كما

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٦)، والبخاري (١١/ ٦٦٣/ ٦٦٥٧)، ومسلم (٤/ ٢١٩٠/ ٢٧٥٣-٢٨٥٣)، والترمذي (٤/ ٦١٨/ ٢٦٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٧/ ١١٦١٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٨/ ٤١١٦).

(٢) الأنعام: الآية (١٠٩). (٣) القلم: الآية (١٧).

تقول: أقسمت لأفعلن.

وحجة مالك قوله ﷺ: «الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[1] ومن لم ينو اليمين فلا يمين له، وأيضًا فإن العادة جرت بأن يحلف الناس على ضروب، فمنها اللغو يصرحون فيه باسم اللَّه، ثم لا تلزمهم الكفارة؛ لعدم قصدهم إلى الأيمان، فالموضع الذي عدم فيه التصريح والقصد أولى ألا تجب فيه كفارة، قاله ابن القصار قال: وقال أصحاب الشافعي: اليمين تكون يمينًا لحرمة اللفظ، وإذا قال: أقسمت، فلا لفظ هاهنا له حرمة، وكل ما احتج به الكوفيون فهو حجة على الشافعي.

قال ابن القصار: ويقال للشافعي: قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ فوصل القسم باسمه تعالى، فكان يمينًا، وقال في موضع آخر: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ فأطلق القسم ولم يقيده بشيء، فوجب أن يبني المطلق على المقيد، كالشهادة قرنت بالعدالة في موضع، وعريت في موضع من ذكر العدالة، وكالرقبة في الكفارة، قُيِّد في موضع مؤمنة، وأطلق في موضع، فبني المطلق على المقيد.

قال ابن المنذر: وأمر النبي ﷺ بإبرار المقسم أمر ندب لا أمر وجوب؛ لأن أبا بكر أقسم على النبي ﷺ فلم يبرّ قسمه، ولو كان ذلك واجبًا لم يشأ رجل أن يسأل آخر بأن يخرج له من كل ما يملك، ويطلق زوجته، ثم يحلف على الإمام في حدّ أصابه أن يُسقط عنه؛ إلا تم له، وفي ذلك تعطيل الحدود وترك القصاص مما فيه القصاص، وإذا لم يجز ذلك كان معنى الحديث الندب فيما يجوز الوقوف عنه دون ما لا يجوز تعطيله.

وقال المهلب: إبرار القسم إنما يستحب إذا لم يكن في ذلك ضرر على المحلوف عليه أو على جماعة أهل الدين؛ لأن الذي سكت عنه النبي ﷺ من بيان موضع الخطأ في تعبير أبي بكر، هو عائد على المسلمين بهمّ وغمّ؛ لأنه عبّر قصة عثمان بأنه يخلع ثم يراجع الخلافة، فلو أخبره النبي بخطئه لأخبر الناس بأنه يقتل

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥)، والبخاري (١/ ١١/ ١)، ومسلم (٣/ ١٥١٥-١٥١٦/ ١٩٠٧)، وأبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١)، والترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧)، والنسائي في المجتبى (١/ ٦٢-٦٣/ ٧٥) وفي الكبرى (١/ ٧٩-٨٠/ ٧٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٧).

ولا يرجع إلى الخلافة، فكان يُدخل على الناس فتنة بقصة عثمان من قبل كونها، وكذلك لو أقسم على رجل ليشربن الخمر ما وجب عليه إبرار قسمه، بل الفرض عليه ألا يبرّه.

واختلف الفقهاء إذا أقسم على الرجل فحنثه، فروي عن ابن عمر أن الحالف يكفّر، وروي مثله عن عطاء وقتادة، وهو قول أهل المدينة والعراق والأوزاعي.

وفيها قول ثانٍ روي عن عائشة أم المؤمنين: «أن مولاة لها أقسمت عليها في قديدة تأكلها فأحنثتها عائشة، فجعل النبي تكفير اليمين على عائشة» قال ابن المنذر: وإسناده لا يثبت.

وفيها قول ثالث روي عن أبي هريرة وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: أنهما لم يجعلا في ذلك كفارة، قال عبيدالله: ألا ترى أن أبا بكر قال للنبي في الرؤيا: «أقسمت عليك لتخبرني بالذي أخطأت، فقال النبي: لا تقسم» قال: ولم يبلغنا أنه أمره بالتكفير.

قال ابن المنذر: ويقال للذي قال: إن الكفارة تجب على المقسم عليه: ينبغي أن يوجب الكفارة على النبي ﷺ حين أقسم عليه أبو بكر فلم يخبره»[1].

وقد تقدم شرح هذه الأحاديث في سورة الأنعام الآية ١٠٩: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرد على منكري البعث

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**قال اللَّه تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ اللَّه ولدًا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي في قوله: «وأما تكذيبه إياي فقوله: ليس يعيدني كما بدأني»:

---

(١) شرح ابن بطال (٦/ ١٠٨-١١١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٧)، والبخاري (٨/ ٩٥٨/ ٤٩٧٤)، والنسائي (٤/ ٤١٨/ ٢٠٧٧).

«وهذا قول منكري البعث من عبدة الأوثان «وليس أول الخلق» أي: أول المخلوق، أو أول خلق الشيء بأهون عليّ من إعادته»[١].

وقال الطيبي: «قال القاضي: في قوله: «**وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته**» إشارة إلى برهان تحقق المعاد، وإمكان الإعادة، وهو أن ما يتوقف عليه تحقق البدن من أجزائه وصورته لو لم يكن وجوده ممكنًا لما وجد أولًا، وقد وجد، وإذا أمكن لم يمتنع لذاته وجوده ثانيًا، وإلا لزم انقلاب الممكن لذاته ممتنعًا لذاته، وهو محال. وتنبيه على تمثيل يرشد العامي، وهو ما يرى في المشاهدات أن من عمد إلى اختراع صنعة لم ير مثلها ولم يجد لها عددًا وأصولًا صعب عليه ذلك، وتعب فيها تعبًا شديدًا، وافتقر إلى مكابدة أفعال، ومعاونة أعوان، ومرور أزمان، ومع ذلك فكثيرًا ما لا يستتب له الأمر، ولا يتم له المقصود. ومن أراد إصلاح منكسر، وإعادة منهدم، وكانت العُدد حاصلة، والأصول باقية، هان عليه ذلك، وسهل جدًّا. فيا معشر الغواة! أتحيلون إعادة أبدانكم وأنتم معترفون بجواز ما هو أصعب منها؟ بل هو كالمتعذر بالنسبة إلى قدركم وقواكم، وأما بالنسبة إلى قدرة الله تعالى فلا سهولة ولا صعوبة، يستوي عنده تكوين بَعُوض طَيّار، وتخليق فلك دوار، كما قال عز اسمه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[٢].

والشتم: توصيف الشيء بما هو إزراء ونقص فيه، وإثبات الولد كذلك؛ لأنه قول بمماثلة الولد في تمام حقيقة، وهي مستلزمة للإمكان المتداعي إلى الحدوث؛ ولأن الحكمة في التوالد استبقاء النوع، فلو كان الباري تعالى متخذًا ولدًا لكان مستخلفًا خلفًا يقوم بأمره بعد عصره -تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وأقول: ذكر الله تعالى تكذيب ابن آدم وشتمه وعظمهما، ولعمري إن أقل الخلق وأدناه إذا نسب ذلك إليه استنكف، وامتلأ غضبًا، وكاد يستأصل قائله، فسبحانه ما أحلمه وما أرحمه! ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾[٣].

---

(١) فيض القدير (٤/ ٤٧٢).

(٢) القمر: الآية (٥٠).

(٣) الكهف: الآية (٥٨).

ثم انظر إلى كل واحد من التكذيب والشتم وما يؤديان من التهويل والفظاعة، أما الأول فإن منكر الحشر جعل اللَّه تعالى كاذبًا، والقرآن المجيد الذي هو مشحون بإثباته مفترى، ويجعل حكمة اللَّه تعالى في خلق السماوات والأرض عبثًا ولعبًا، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ إلى قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[1] علل اللَّه ﷻ خلق السماوات والأرض والاستواء على العرش لتدبير العالم بالجزاء، من ثواب المؤمن وعقاب الكافر، ولا يكون ذلك إلا في القيامة، فيلزم منه أن لو لم يكن الحشر لكان ذلك عبثًا ولهوًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، وفيها كثرة»[3].

* * *

---

(١) يونس: الآيتان (٣و٤).

(٢) الأنبياء: الآية (١٦).

(٣) شرح الطيبي (٢/ ٤٦٨-٤٦٩).

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: بل ليبعثن اللَّه من يموت وعدا عليه حقًّا، ليبين لهؤلاء الذين يزعمون أن اللَّه لا يبعث من يموت، ولغيرهم الذين يختلفون فيه من إحياء اللَّه خلقه بعد فنائهم، وليعلم الذين جحدوا صحة ذلك، وأنكروا حقيقته أنهم كانوا كاذبين في قيلهم: لا يبعث اللَّه من يموت»[1].

قال ابن كثير: «ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: للناس ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيء، و ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾[2]، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾ أي: في أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث اللَّه من يموت؛ ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعًا، وتقول لهم الزبانية: ﴿هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]»[4].

* * *

(١) جامع البيان (١٤/ ١٠٥).

(٢) النجم: الآية (٣١).

(٣) الطور: الآيات (١٤-١٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٧١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائنا لهم، ولا في غير ذلك ما نخلق ونكوّن ونحدث؛ لأنا إذا أردنا خلقه وإنشاءه، فإنما نقول له كن فيكون، لا معاناة فيه، ولا كُلفة علينا»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه لا يتعاصى على قدرته شيء، وإذ يقول للشيء «كن» فيكون بلا تأخير. وذلك أن الكفار لما ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، ورد اللَّه عليهم كذبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾[2] بين أنه قادر على كل شيء، وأنه كلما قال لشيء «كن» كان.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله في الرد على من قال ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[3]: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4].

وبين أنه لا يحتاج أن يكرر قوله: ﴿كُن﴾ -بل إذا قال للشيء ﴿كُن﴾ مرة واحدة، كان في أسرع من لمح البصر- في قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِالْبَصَرِ﴾[5]، ونظيره قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[7] الآية، وقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[8]، إلى غير ذلك من الآيات.

وعبر تعالى عن المراد قبل وقوعه باسم الشيء؛ لأن تحقق وقوعه كالوقوع

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٠٦).
(٢) النحل: الآية (٣٨).
(٣) يس: الآية (٧٨).
(٤) يس: الآية (٨٢).
(٥) القمر: الآية (٥٠).
(٦) النحل: الآية (٧٧).
(٧) آل عمران: الآية (٥٩).
(٨) لقمان: الآية (٢٨).

بالفعل. فلا تنافي الآية إطلاق الشيء على خصوص الموجود دون المعدوم؛ لأنه لما سبق في علم الله أنه يوجد ذلك الشيء، وأنه يقول له كن فيكون- كان تحقق وقوعه بمنزلة وقوعه. أو لأنه أطلق عليه اسم الشيء باعتبار وجوده المتوقع، كتسمية العصير خمرًا في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾[١] نظرًا إلى ما يؤول إليه في ثاني حال»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن كلام الله غير مخلوق

* عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يزال من أمتي قوم ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله**»[٣].

* عن معاوية ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من كذبهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**. فقال مالك بن يخامر: سمعت معاذًا يقول: وهم بالشام. فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذًا يقول: وهم بالشام»[٤].

* عن ابن عباس ﷺ قال: «وقف النبي ﷺ على مسيلمة في أصحابه فقال: **لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت لَيعقِرنّك الله**»[٥].

* عن ابن مسعود ﷺ قال: «بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في بعض حرث المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه فمررنا على نفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال بعضهم: لا تسألوه أن يجيء فيه بشيء تكرهونه. فقال بعضهم: لنسألنه. فقام إليه رجل منهم فقال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت عنه النبي ﷺ

---

(١) يوسف: الآية (٣٦).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٢٤٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٤٤)، والبخاري (١٣/ ٥٤٢/ ٧٤٥٩)، ومسلم (٣/ ١٥٢٣/ ١٩٢١).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٩٧)، والبخاري (١٣/ ٥٤٢/ ٧٤٦٠)، ومسلم (٣/ ١٥٢٤/ ١٠٣٧).

(٥) أخرجه: البخاري (١٣/ ٥٤٢-٥٤٣/ ٧٤٦١)، ومسلم (٤/ ١٧٨٠/ ٢٢٧٣)، والترمذي (٤٧٠/ ٢٢٩٢)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٩/ ٧٦٤٨).

فعلمت أنه يوحى إليه فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتُوا مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١]. قال الأعمش: هكذا في قراءتنا»[٢].

★ **فوائد الأحاديث:**

أورد البخاري هذه الأحاديث عند هذه الآية ليرد به على من قال أن القرآن مخلوق.

قال ابن بطال: «غرضه -أي: البخاري- في هذا الباب الرد على المعتزلة في قولهم: إن أمر اللَّه الذي هو كلامه مخلوقه، فأراد البخاري أن يعرفك أن الأمر هو قوله للشيء إذا أراده (كن) فيكون بأمره له، وأن أمره وقوله في معنى واحد، وذلك غير مخلوق وأنه سبحانه يقول: (كن) على الحقيقة، وأن الأمر غير الخلق لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٣]، ففصل بينهما بالواو، وهو قول جميع أهل السنة»[٤].

قال ابن حجر: «قال ابن أبي حاتم في كتاب «الرد على الجهمية»: حدثنا أبي قال: قال أحمد بن حنبل: دلّ على أن القرآن غير مخلوق حديث عبادة «**أول ما خلق اللَّه القلم فقال: اكتب**»[٥] الحديث، قال: وإنما نطق القلم بكلامه لقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قال: فكلام اللَّه سابق على أول خلقه فهو غير مخلوق، وعن الربيع بن سليمان سمعت البويطي يقول: خلق اللَّه الخلق كله بقوله: (كن) فلو كان (كن) مخلوقًا لكان قد خلق الخلق بمخلوق وليس كذلك»[٦].

قوله في حديث المغيرة بن شعبة وفي حديث معاوية: «**حتى يأتيهم الله**» «**حتى يأتي أمر الله**»: «المقصود من الحديث قوله: «**حتى يأتي أمر الله**» أي: الأمر الذي

---

(١) الإسراء: الآية (٨٥).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٩-٤٤٤-٤٤٥)، والبخاري (١٣/ ٥٤٣/ ٧٤٦٢)، ومسلم (٤/ ٢١٥٢ و ٢١٥٣/ ٢٧٩٤)، والترمذي (٥/ ٢٨٤/ ٣١٤٠)، والنسائي (٦/ ٣٨٣/ ١١٢٩٩).

(٣) الأعراف: الآية (٥٤).

(٤) شرح ابن بطال (١٠/ ٤٧٦).

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود (٥/ ٧٦/ ٤٧٠٠)، والترمذي (٥/ ٣٩٤-٣٩٥/ ٣٣١٩) وقال: «حديث حسن غريب». وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه: الحاكم (٢/ ٤٩٩) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

(٦) فتح الباري (١٣/ ٥٤٣).

يكون بقوله : (كن) فأمره هنا مأموره، الصادر عن قوله، فقوله الذي هو (كن) يصدر عنه ذلك الأمر الآتي والفرق بينهما واضح، فإن قوله صفة له لا يدخل في المخلوقات، وأما مأموره كالريح التي تقبض كل مؤمن ومؤمنة، والساعة التي هي النفخ في الصور فإن ذلك مأموره، والله أعلم»[1].

* * *

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري لعبدالله بن محمد الغنيمان (٢/ ١٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يقول -تعالى ذكره-: والذين فارقوا قومهم ودورهم وأوطانهم عداوة لهم في اللَّه على كفرهم إلى آخرين غيرهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ يقول: من بعد ما نيل منهم في أنفسهم بالمكاره في ذات اللَّه ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يقول: لنسكننهم في الدنيا مسكنا يرضونه صالحا. .

وقال آخرون: عنى بقوله: لنبوئنهم في الدنيا حسنة لنرزقهم في الدنيا رزقًا حسنًا. .

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾: لَنُحِلَّنَّهُم ولنسكننهم؛ لأن التبوء في كلام العرب الحلول بالمكان والنزول به، ومنه قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾[1] وقيل: إن هذه الآية نزلت في أبي جندل ابن سهيل»[2].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب اللَّه وجزائه.

ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مُهاجرة الحبشة الذي اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم: عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول اللَّه ﷺ، وجعفر بن أبي طالب، ابن عم الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة

---

(١) يونس: الآية (٩٣).

(٢) جامع البيان (١٤/ ١٠٦-١٠٧).

قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صديق وصديقة، رضي اللَّه عنهم وأرضاهم. وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس والشعبي، وقتادة: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد.

ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم اللَّه خيرًا منها في الدنيا، فإن من ترك شيئًا لله عوضه اللَّه بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنهم مكن اللَّه لهم في البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكاما، وكل منهم للمتقين إماما، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر اللَّه لمن أطاعه واتبع رسوله»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٧٢-٥٧٣).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء الذين وصفنا صفتهم، وآتيناهم الثواب الذي ذكرناه، الذين صبروا في اللَّه على ما نابهم في الدنيا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: وباللَّه يثقون في أمورهم، و إليه يستندون في نوائب الأمور التي تنوبهم»[1].

قال القنوجي: « ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على أذى المشركين، أو على مفارقة الوطن والهجرة، أو على الجهاد وبذل النفس والأموال في سبل اللَّه، واللفظ أعم من ذلك، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده خاصة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ في جميع أمورهم معرضين عما سواه، والصبر مبدأ السلوك إلى اللَّه تعالى، والتوكل هو آخر الطريق ومنتهاه، والظاهر واللَّه أعلم أن المعنى على المضي والتعبير بصيغة المضارع لاستحضار صورة توكلهم البديعة، وفيه ترغيب لغيرهم في طاعة اللَّه ﷻ، وجواب الموصول محذوف، أي فيرزقهم من حيث لا يحتسبون»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٤/١٠٨).

(٢) فتح البيان (٧/ ٢٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى أمة من الأمم، للدعاء إلى توحيدنا، والانتهاء إلى أمرنا ونهينا، إلا رجالا من بني آدم نوحي إليهم وحينا لا ملائكة، يقول: فلم نرسل إلى قومك إلا مثل الذي كنا نرسل إلى من قَبلهم من الأمم من جنسهم وعلى منهاجهم ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ يقول لمشركي قريش: وإن كنتم لا تعلمون أن الذين كنا نرسل إلى من قبلكم من الأمم رجال من بني آدم مثل محمد ﷺ وقلتم: هم ملائكة: أي ظننتم أن اللّٰه كلمهم قبلا، ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾، وهم الذين قد قرءوا الكتب من قبلهم: التوراة والإنجيل، وغير ذلك من كتب اللّٰه التي أنزلها على عباده»[1].

قال القنوجي: «استدل مجوزو التقليد بهذه الآية، وقالوا: أمر سبحانه من لا علم له أن يسأل من له علم، والجواب: أن هذه الآية الشريفة واردة في سؤال خاص خارج عن محل النزاع، كما يفيده السياق المذكور قبل هذا اللفظ الذي استدلوا به وبعده، وبه قال ابن جرير والبغوي وأكثر المفسرين، واستوفاه السيوطي في الدر المنثور، وهذا هو المعنى الذي يفيده السياق والسباق.

وعلى فرض أن المراد السؤال العام فالمأمور بسؤالهم هم أهل الذكر، والذكر هو كتاب اللّٰه وسنة رسوله ﷺ لا غيرهما، ولا أظن مخالفا يخالف في هذا؛ لأن هذه الشريعة المطهرة هي إما من اللّٰه ﷻ وذلك هو القرآن الكريم، أو من رسول اللّٰه ﷺ وذلك هو السنة المطهرة ولا ثالث لذلك.

وإذا كان المأمور بسؤالهم هم أهل القرآن والحديث؛ فالآية الكريمة حجة على

---

(١) جامع البيان (١٤/١٠٨).

المقلدة لا لهم؛ لأن المراد أنهم يسألون أهل الذكر فيخبرونهم به، فالجواب من المسؤولين أن يقولوا قال اللَّه وقال رسوله ﷺ كذا، فيعمل السائلون بذلك، وهذا هو غير ما يراه المقلد المستدل بها، فإنه إنما استدل بها على جواز ما هو فيه من الأخذ بأقوال الرجال من دون سؤال عن الدليل، فإن هذا هو التقليد، ولهذا رسموه بأنه قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة.

فحاصل التقليد: أن المقلد لا يسأل عن كتاب اللَّه ولا عن سنة رسوله ﷺ، بل يسأل عن مذهب إمامه فقط، فإذا جاوز ذلك إلى السؤال عن الكتاب والسنة فليس بمقلد، وهذا يسلمه كل مقلد ولا ينكره.

وإذا تقرر أن المقلد إذا سأل أهل الذكر عن كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ لم يكن مقلدا علمت أن هذه الآية الشريفة على تسليم أن السؤال ليس عن الشيء الخاص الذي يدل عليه السياق، بل عن كل شيء من الشريعة كما يزعمه المقلد تدفع في وجهه وترغم أنفه وتكسر ظهره، فإن معنى هذا السؤال الذي شرعه اللَّه تعالى هو السؤال عن الحجة الشرعية وطلبها من العالم، فيكون هو راويًا وهذا السائل مسترويا، والمقلد يقر على نفسه بأنه يقبل قول العالم ولا يطالبه بالحجة، فالآية هي دليل الاتباع لا دليل التقليد.

وبهذا ظهر لك أن هذه الحجة التي احتج بها المقلد هي حجة داحضة على فرض أن المراد المعنى الخاص، وهي عليه لا له على فرض أن المراد المعنى العام»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾: ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه لم يرسل قبله ﷺ من الرسل إلا رجالًا، أي لا ملائكة. وذلك أن الكفار استغربوا جدًّا بعث اللَّه رسلًا من البشر، وقالوا: اللَّه أعظم من أن يرسل بشرًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. فلو كان مرسلًا أحدًا حقًّا لأرسل ملائكة كما بينه تعالى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾[2]، وقوله: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾[3] الآية، وقوله: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ

(١) فتح البيان (٧/ ٢٤٦-٢٤٧).

(٢) يونس: الآية (٢).

(٣) ق: الآية (٢).

ﱡالطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِﱠ[١]، وقوله: ﱡوَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًاﱠ[٢]، وقوله: ﱡذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا ۚ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُﱠ[٣] الآية، وقوله: ﱡأَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُﱠ[٤] الآية، وقوله: ﱡفَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَﱠ[٥]، وقوله: ﱡوَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَﱠ[٦]، وقوله: ﱡقَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَاﱠ[٧] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين اللَّه -جل وعلا- في آيات كثيرة: أن اللَّه ما أرسل لبني آدم إلا رسلًا من البشر، وهم رجال يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويتزوجون، ونحو ذلك من صفات البشر. كقوله هنا: ﱡأَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَﱠ وقوله: ﱡوَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰﱠ[٨]، وقوله: ﱡوَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِﱠ[٩]، وقوله: ﱡوَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَﱠ[١٠]، وقوله: ﱡوَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةًﱠ[١١]، وقوله: ﱡقُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِﱠ[١٢] الآية، إلى غير ذلك من الآيات..

وحصر الرسل في الرجال في الآيات المذكورة لا ينافي أن من الملائكة رسلًا. كما قال تعالى: ﱡاللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِﱠ[١٣]، وقال: ﱡالْحَمْدُ

(١) الفرقان: الآية (٧).
(٢) الإسراء: الآية (٩٤).
(٣) التغابن: الآية (٦).
(٤) القمر: الآية (٢٤).
(٥) المؤمنون: الآية (٢٤).
(٦) المؤمنون: الآيتان (٣٣-٣٤).
(٧) إبراهيم: الآية (١٠).
(٨) يوسف: الآية (١٠٩).
(٩) الفرقان: الآية (٢٠).
(١٠) الأنبياء: الآيتان (٧-٨).
(١١) الرعد: الآية (٣٨).
(١٢) الأحقاف: الآية (٩).
(١٣) الحج: الآية (٧٥).

لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[١] الآية؛ لأن الملائكة يرسلون إلى الرسل، والرسل ترسل إلى الناس. والذي أنكره الكفار هو إرسال الرسل إلى الناس، وهو الذي حصر اللَّه فيه الرسل في الرجال من الناس. فلا ينافي إرسال الملائكة للرُّسل بالوحي، ولقبض الأرواح، وتسخير الرِّياح والسَّحاب، وكتب أعمال بني آدم، وغير ذلك. كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[٢].

تنبيه: يفهم من هذه الآيات أن اللَّه لم يرسل امرأة قط؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾. ويفهم من قوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ الآية، أن من جهل الحكم: يجب عليه سؤال العلماء والعمل بما أفتوه به. والمراد بأهل الذكر في الآية: أهل الكتاب، وهذه الأمة أيضًا يصدق عليها أنهم أهل الذكر؛ لقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾[٣] الآية، إلا أن المراد في الآية أهل الكتاب»[٤].

* * *

(١) فاطر: الآية (١).
(٢) النازعات: الآية (٥).
(٣) الحجر: الآية (٩).
(٤) أضواء البيان (٣/ ٢٤٩-٢٥١).

قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾

★ غريب الآية:

الزبر: الكتب. واحدها: زبور. مأخوذ من زبرت الكتاب: إذا كتبته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «قال تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ذكروا في الجالب لهذه الباء وجوهًا: الأول: أن التقدير: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا يوحى إليهم، وأنكر الفراء ذلك وقال: إن صلة ما قبل إلا لا يتأخر إلى بعد، والدليل عليه: أن المستثنى عنه هو مجموع ما قبل إلا مع صلته، فما لم يصر هذا المجموع مذكورًا بتمامه امتنع إدخال الاستثناء عليه. الثاني: أن التقدير: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالًا يوحى إليهم بالبينات والزبر، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ متعلق بالمستثنى. والثالث: أن الجالب لهذا الباء محذوف، والتقدير أرسلناهم بالبينات وهذا قول الفراء. قال: ونظيره ما مر إلا أخوك بزيد ما مر إلا أخوك ثم يقول مر بزيد. الرابع: أن يقال: الذكر بمعنى العلم، والتقدير فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر إن كنتم لا تعلمون. الخامس: أن يكون التقدير: إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر فاسألوا أهل الذكر.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ لفظة جامعة لكل ما تكامل به الرسالة؛ لأن مدار أمرها على المعجزات الدالة على صدق من يدعي الرسالة وهي البينات وعلى التكاليف التي يبلغها الرسول من الله تعالى إلى العباد وهي الزبر»[1].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٩).

قال ابن جرير: «وقوله ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ يقول: وأنزلنا إليك يا محمد هذا القرآن تذكيرا للناس وعظة لهم، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لتعرفهم ما أنزل إليهم من ذلك ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول: وليتذكروا فيه ويعتبروا به أي بما أنزلنا إليك»[1].

قال الرازي: «ظاهر هذا الكلام يقتضي أن هذا الذكر مفتقر إلى بيان رسول اللَّه والمفتقر إلى البيان مجمل، فظاهر هذا النص يقتضي أن القرآن كله مجمل، فلهذا المعنى قال بعضهم: متى وقع التعارض بين القرآن وبين الخبر وجب تقديم الخبر لأن القرآن مجمل والدليل عليه هذه الآية، والخبر مبين له بدلالة هذه الآية، والمبين مقدم على المجمل.

والجواب: أن القرآن منه محكم، ومنه متشابه، والمحكم يجب كونه مبينًا فثبت أن القرآن ليس كله مجملًا بل فيه ما يكون مجملًا فقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ محمول على المجملات.

المسألة الثانية: ظاهر هذه الآية يقتضي أن يكون الرسول ﷺ هو المبين لكل ما أنزله اللَّه تعالى على المكلفين، فعند هذا قال نفاة القياس لو كان القياس حجة لما وجب على الرسول بيان كل ما أنزله اللَّه تعالى على المكلفين من الأحكام، لاحتمال أن يبين المكلف ذلك الحكم بطريقة القياس، ولما دلت هذه الآية على أن المبين لكل التكاليف والأحكام، هو الرسول ﷺ علمنا أن القياس ليس بحجة.

وأجيب عنه بأنه ﷺ لما بين أن القياس حجة، فمن رجع في تبيين الأحكام والتكاليف إلى القياس، كان ذلك في الحقيقة رجوعًا إلى بيان الرسول ﷺ»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

المراد بالذكر في هذه الآية: القرآن. كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3].

وقد ذكر -جل وعلا- في هذه الآية حكمتين من حكم إنزال القرآن على النبي ﷺ.

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١١١).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٩-٤٠).
(٣) الحجر: الآية (٩).

إحداهما: أن يبين للناس ما نزل إليهم في هذا الكتاب من الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، ونحو ذلك. وقد بين هذه الحكمة في غير هذا الموضع أيضًا؛ كقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾[2] الآية.

الحكمة الثانية: هي التفكر في آياته والاتعاظ بها. كما قال هنا: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وقد بين هذه الحكمة في غير هذا الموضع أيضًا. كقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[3]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[4]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[5]، إلى غير ذلك من الآيات»[6].

* * *

(١) النحل: الآية (٦٤).
(٢) النساء: الآية (١٠٥).
(٣) ص: الآية (٢٩).
(٤) النساء: الآية (٨٢).
(٥) محمد: الآية (٢٤).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٢٥٢-٢٥٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفأمن الذين ظلموا المؤمنين من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، فراموا أن يفتنوهم عن دينهم من مشركي قريش الذين قالوا: إذ قيل لهم: ماذا أنزل ربكم: أساطير الأوّلين، صدّا منهم لمن أراد الإيمان باللَّه عن قصد السبيل، أن يخسف اللَّه بهم الأرض على كفرهم وشركهم، أو يأتيهم عذاب اللَّه من مكان لا يشعر به، ولا يدري من أين يأتيه، وكان مجاهد يقول: عنى بذلك نمرود بن كنعان..

وإنما اخترنا القول الذي قلناه في تأويل ذلك؛ لأن ذلك تهديد من اللَّه أهل الشرك به، وهو عقيب قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكان تهديد من لم يقرّ بحجة اللَّه الذي جرى الكلام بخطابه قبل ذلك أحرى من الخبر عمن انقطع ذكره عنه»[(١)].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن حلمه وإمهاله وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[(٢)]»[(٣)].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١١١-١١٢).

(٢) الملك: الآيتان (١٦-١٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٧٥).

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنكر اللَّه -جل وعلا- على الذين يعملون السيئات من الكفر والمعاصي، ومع ذلك يأمَنون عذاب اللَّه ولا يخافون أخذه الأليم، وبطشه الشديد، وهو قادر على أن يخسف بهم الأرض، ويهلكهم بأنواع العذاب. والخسفُ بلع الأرض المخسوفَ به وقعودها به إلى أسفل. كما فعل اللَّه بقارون، قال اللَّه تعالى فيه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾[1] الآية. وبين هذا المعنى في مواضع كثيرة. كقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾[2] الآية. وقوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾[3] وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[4]»[5].

* * *

(١) القصص: الآية (٨١).
(٢) الملك: الآيتان (١٦ و ١٧).
(٣) الإسراء: الآية (٦٨).
(٤) الأعراف: الآية (٩٩).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٢٥٢).

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القنوجي: «ذكر المفسرون فيه وجوها، فقيل: المراد في أسفارهم ومتاجرهم، فإنه سبحانه قادر على أن يهلكهم في السفر كما يهلكهم في الحضر، وهم لا يفوتونه بسبب ضربهم في الأرض وبعدهم عن الأوطان، والتقلب الحركة إقبالًا وإدبارًا.

وقيل المراد: في حال تقلبهم في قضاء أوطارهم بوجوه الحيل فيحول اللَّه بينهم وبين مقاصدهم وحيلهم، وقيل: في حال تقلبهم في الليل على فرشهم، وقيل في اختلافهم، وقيل: في حال إقبالهم وإدبارهم وذهابهم ومجيئهم بالليل والنهار، والتقلب بالمعنى الأول مأخوذ من قوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾[1] وبالمعنى الثاني مأخوذ من قوله: ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾[2]. ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي بفائتين ولا ممتنعين ولا سابقين»[3].

* * *

---

(١) آل عمران: الآية (١٩٦).

(٢) التوبة: الآية (٤٨).

(٣) فتح البيان (٧/ ٢٤٩).

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تخوف: التخوف: التنقص. يقال: تَخَوَّفَهُ الدَّهْرُ. أي تَنَقَّصَهُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي مخافةٍ وحذرٍ عن الهلاك والعذاب بأن يُهلك قومًا قبلهم فيتخوّفوا فيأخذَهم العذابُ وهم متخوّفون، وحيث كانت حالتا التقلّبِ والتخوّف مَظِنةً للهرب عُبّر عن إصابة العذابِ فيهما بالأخذ وعن إصابته حالةَ الغفلة المنبئةِ عن السكون بالإتيان، وقيل: التخوّفُ التنقّص..

أي يأخذُهم على أن يَنْقُصَهم شيئًا بعد شيءٍ في أنفسهم وأموالِهم حتى يهلِكوا، والمرادُ بذكر الأحوال الثلاثِ بيانُ قدرة اللَّه سبحانه على إهلاكهم بأي وجهٍ كان لا الحصرُ فيها ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة ويحلُم عنكم مع استحقاقكم لها»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في رحمة اللَّه بالظالم

* عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[2]»[3].

تقدم الكلام عليه عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ سورة هود الآية: ١٠٢.

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ١١٧).

(٢) هود: الآية (١٠٢).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٤٥١/ ٤٦٨٦)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧/ ٢٥٨٣)، والترمذي (٥/ ٢٦٩/ ٣١١٠).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يتفيأ ظلاله: أي: تنتقل وترجع. وسمي الظل فيئًا لكونه يرجع من جهة إلى أخرى.

داخرون: جمع داخر. وهو الصاغر الذليل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه، الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال؛ أي: بكرة وعشيًا، فإنه ساجد بظله لله تعالى.

قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كلُّ شيء لله ﷻ. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغيرهم. وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٧٥-٥٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠)﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ أي: من كل ما يدب على الأرض. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يعني الملائكة الذين في الأرض، وإنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم بشرف المنزلة، فميزهم من صفة الدبيب بالذكر وإن دخلوا فيها، كقوله: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[1]. وقيل: لخروجهم من جملة ما يدب لما جعل الله لهم من الأجنحة، فلم يدخلوا في الجملة فلذلك ذكروا.

وقيل: أراد ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب، ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ وتسجد ملائكة الأرض ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادة ربهم. وهذا رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله»[2].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولله يخضع ويستسلم لأمره ما في السموات وما في الأرض من دابَّة يدبّ عليها، والملائكة التي في السموات، وهم لا يستكبرون عن التذلل له بالطاعة ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[3] وظلالهم تتفيأ عن اليمين والشمائل سجدًا لله وهم داخرون. .

قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ يقول -تعالى ذكره-: يخاف هؤلاء الملائكة التي في السموات، وما في الأرض من دابة، ربَّهم من

(١) الرحمن: الآية (٦٨).
(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ١١٢-١١٣).
(٣) النحل: الآية (٢٢).

فوقهم، أن يعذّبهم إن عَصَوا أمره، ويفعلون ما يؤمرون، يقول: ويفعلون ما أمرهم اللَّه به، فيؤدّون حقوقه، ويجتنبون سُخْطه»[1].

* * *

(١) جامع البيان (١٤/١١٧-١١٨).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال اللَّه لعباده: لا تتخذوا لي شريكًا أيها الناس، ولا تعبدوا معبودَين، فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتم لي شريكًا، ولا شريك لي، إنما هو إله واحد ومعبود واحد، وأنا ذلك، ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ يقول: فإياي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إن عصيتموني وعبدتم غيري، أو أشركتم في عبادتكم لي شريكًا»[١].

قال الشنقيطي: «نهى اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة جميع البشر عن أن يعبدوا إلهًا آخر معه، وأخبرهم أن المعبود المستحق لأن يعبد وحده واحد، ثم أمرهم أن يرهبوه أي يخافوه وحده؛ لأنه هو الذي بيده الضر والنفع، لا نافع ولا ضار سواه.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[٢]، وقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾[٣]، وقوله: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾[٤]، وقوله: ﴿تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾[٥].

وبين -جل وعلا- في مواضع أخر: استحالة تعدد الآلهة عقلًا؛ كقوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[٦]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١١٨).
(٢) الذاريات: الآيتان (٥٠-٥١).
(٣) ق: الآية (٢٦).
(٤) الإسراء: الآية (٢٢).
(٥) الإسراء: الآية (٣٩).
(٦) الأنبياء: الآية (٢٢).

عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[٢]. والآيات بعبادته وحده كثيرة جدًّا، فلا نطيل بها الكلام. وقدم المفعول في قوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ للدلالة على الحصر. وقد تقرر في الأصول في مبحث مفهوم المخالفة، وفي المعاني في مبحث القصر: أن تقديم المعمول على صيغ الحصر، أي خافون وحدي ولا تخافوا سواي. وهذا الحصر المشار إليه هنا بتقديم المعمول بيَّنه -جل وعلا- في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[٣] الآية، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[٤] الآية. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[٥] الآية، وقوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٦]، إلى غير ذلك من الآيات»[٧].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أدب الدعاء

* عن سعد بن أبي وقاص قال: «مر علي رسول الله ﷺ وأنا أدعو بأصابعي فقال: **أَحِّدْ أَحِّد**، وأشار بالسبابة»[٨].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**فقال: أَحِّد أَحِّد**» **قال أبو الطيب**: «أي: أشر بواحدة ليوافق التوحيد المطلوب بالإشارة»[٩].

وقال أبو الطيب: «أي: أشر بالأصبع الواحدة وأشار رسول الله ﷺ بالسبابة؛

---

(١) المؤمنون: الآيتان (٩١-٩٢).
(٢) الإسراء: الآية (٤٢).
(٣) المائدة: الآية (٤٤).
(٤) الأحزاب: الآية (٣٩).
(٥) التوبة: الآية (١٨).
(٦) آل عمران: الآية (١٧٥).
(٧) أضواء البيان (٣/ ٢٥٣-٢٥٤).
(٨) أبو داود (٢/ ١٦٩/ ١٤٩٩)، والنسائي (٣/ ٤٥/ ١٢٧٢)، والحاكم (١/ ٥٣٦) من طرق عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن سعد بن أبي وقاص ﷺ به. وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.
وفي الباب عن أبي هريرة عند: أحمد (٢/ ٥٢٠)، والترمذي (٥/ ٥٢٠/ ٣٥٥٧) وقال: «حسن صحيح غريب»، والنسائي (٣/ ٤٥/ ١٢٧١)، والحاكم (١/ ٥٣٦) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.
(٩) عون المعبود (٤/ ٣٦٦).

أي: من يده اليمنى فعلمه التوحيد بالقول وتعيين الأصبع بالفعل»[١].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «المسألة أن ترفع يديك حذو منكبيك أو نحوهما، والاستغفار أن تشير بأصبع واحدة، والابتهال أن تمد يديك جميعًا»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**المسألة أن ترفع**»: قال الطيبي: «المسألة مصدر بمعنى السؤال. والمضاف محذوف؛ ليصح الحمل؛ أي: أدب السؤال وطريقه رفع اليدين، وأدب الاستغفار الإشارة بالسبابة سبًّا للنفس الأمارة والشيطان، والتعوذ منهما إلى اللَّه تعالى. ولعل المراد من الابتهال دفع ما يتصوره من مقابلة العذاب، فيجعل يديه كالترس ليستره عن المكروه»[٣].

قال أبو الطيب: «وقيده بواحدة لأنه يكره الإشارة بإصبعين لما روي أنه -عليه الصلاة والسلام- رأى رجلًا يشير بهما فقال له أحِّد أحِّد»[٤].

قوله: «**والابتهال**»: **قال أبو الطيب**: «أي: التضرع والمبالغة في الدعاء في دفع المكروه عن النفس أدبه: «**أن تمد يديك جميعًا**» أي: حتى يرى بياض إبطيك»[٥].

* * *

---

(١) بذل المجهود (٧/ ٣٥٠).

(٢) أبو داود (٢/ ٥٦١-٦٦١/ ٩٨٤١) عن عكرمة عن ابن عباس موقوفًا. وصححه الشيخ الألباني (صحيح أبي داود رقم ١٣٢١).

(٣) شرح الطيبي (٥/ ١٧١٩).

(٤) عون المعبود (٤/ ٣٦٠).

(٥) عون المعبود (٤/ ٣٦٠).

قوله تعالى : ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾

⋆ غريب الآية:

واصبًا : دائمًا ولازمًا . يقال : وصب الشيءُ وصوبًا : إذا دَامَ . قال أبو الأسود :

لا تبتغي الحمد القليلَ بقاؤُه يومًا بذم الدهر أجمع واصبا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن : «لما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح أن إله العالم لا شريك له في الإلهية ، وجب أن يكون جميع المخلوقات عبيدًا له ، وفي ملكه وتصرفه ، وتحت قدرته ، فذلك قوله تعالى : ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني ، عبيدًا وملكًا ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ يعني : وله العبادة والطاعة وإخلاص العمل دائمًا ثابتًا ، والواصب : الدائم . قال ابن قتيبة : ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك لسبب في حال الحياة أو بالموت ، إلا الحق ﷻ فإن طاعته واجبة أبدًا ، ولأنه المنعم على عباده المالك لهم ، فكانت طاعته واجبة دائمًا أبدًا ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ يعني أنكم عرفتم أن اللَّه واحد لا شريك له في ملكه ، وعرفتم أن كل ما سواه محتاج إليه ، فبعد هذه المعرفة كيف تخافون غيره ، وتتقون سواه . فهو استفهام بمعنى التعجب وقيل هو استفهام على طريق الإنكار»[1] .

قال الشنقيطي : «قوله تعالى : ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ :

الدين هنا : الطاعة . ومنه سميت أوامر اللَّه ونواهيه دينًا . كقول : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾[2] ، وقوله : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾[3] ، وقوله : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[4] .

---

(١) تفسير الخازن (٣/ ١١٩).
(٢) آل عمران: الآية (١٩).
(٣) المائدة: الآية (٣).
(٤) آل عمران: الآية (٨٥).

والمراد بالدين في الآيات: طاعة اللَّه بامتثال جميع الأوامر، واجتناب جميع النواهي. ومن الدين بمعنى الطاعة: قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

وأيامًا لنا غرًا كرامًا ... عصينا الملك فيها أن ندينا

أي: عصيناه وامتنعنا أن ندين له، أي نطيعه. وقوله: ﴿وَاصِبًاۚ﴾ أي دائمًا؛ أي: له -جل وعلا- الطاعة والذل والخضوع دائمًا؛ لأنه لا يضعف سلطانه، ولا يعزل عن سلطانه، ولا يموت ولا يغلب، ولا يتغير له حال بخلاف ملوك الدنيا. فإن الواحد منهم يكون مطاعًا له السلطنة والحكم، والناس يخافونه ويطمعون فيما عنده برهة من الزمن، ثم يعزل أو يموت، أو يذل بعد عز، ويتضع بعد رفعة. فيبقى لا طاعة له ولا يعبأ به أحد. فسبحان من لم يتخذ ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيرًا.

وهذا المعنى الذي أشار إليه مفهوم الآية بينه -جل وعلا- في مواضع أُخر. كقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾(١)، وقوله: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾(٢) لأنها ترفع أقوامًا كانت منزلتهم منخفضة في الدنيا، وتخفض أقوامًا كانوا ملوكًا في الدنيا، لهم المكانة الرفيعة وقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(٣).

ونظير هذه الآية المذكورة قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۞ دُحُورٗاۖ وَلَهُمْ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾(٤) أي دائم. وقيل: عذاب موجع مؤلم، والعرب تطلق الوصب على المرض، وتطلق الوصوب على الدوام. وروي عن ابن عباس أنه لما سأله نافع بن الأزرق عن قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ قال له: الواصب الدائم، واستشهد له بقول أمية بن أبي الصلت الثقفي:

وله الدين واصبًا وله المـ ... ـلك وحمد له على كل حال

ومنه قول الدؤلي:

(١) آل عمران: الآية (٢٦).
(٢) الواقعة: الآية (٣).
(٣) غافر: الآية (١٦).
(٤) الصافات: الآيتان (٨-٩).

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه   يومًا بذم الدهر أجمع واصبًا

وممن قال بأن معنى الواصب في هذه الآية الدائم: ابن عباس ومجاهد، وعكرمة وميمون بن مهران، والسدي وقتادة، والحسن والضحاك، وغيرهم. وروي عن ابن عباس أيضًا واصبًا: أي واجبًا. وعن مجاهد أيضًا: واصبًا: أي: خالصًا. وعلى قول مجاهد هذا، فالخبر بمعنى الإنشاء. أي ارهبوا أن تشركوا بي شيئًا، وأخلصوا لي الطاعة، وعليه فالآية كقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[3] وقوله: واصبًا، حال عمل فيه الظرف.

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾؛ أنكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة على من يتقي غيره؛ لأنه لا ينبغي أن يتَّقى إلا من بيده النفع كله والضر كله؛ لأن غيره لا يستطيع أن ينفعك بشيء لم يُرِده اللَّه لك، ولا يستطيع أن يضرك بشيء لم يكتبه اللَّه عليك.

وقد أشار تعالى هنا إلى أن إنكار اتقاء غير اللَّه، لأجل أن اللَّه هو الذي يرجى منه النفع، ويخشى منه الضر، ولذلك أتبع قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ بقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾[4]»[5].

* * *

(١) آل عمران: الآية (٨٣).

(٢) الزمر: الآية (٣).

(٣) البينة: الآية (٥).

(٤) النحل: الآية (٥٣).

(٥) أضواء البيان (٣/ ٢٥٤-٢٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣﴾

★ **غريب الآية:**

تجأرون: الجؤار: رفع الصوت بالدعاء والتضرع. يقال: جأر يجأر: إذا رفع صَوْتَه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «تأويل الكلام: ما يكن بكم في أبدانكم أيها الناس من عافية وصحة وسلامة، وفي أموالكم من نماء، فاللّه المنعم عليكم بذلك لا غيره؛ لأن ذلك إليه وبيده ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ يقول: إذا أصابكم في أبدانكم سَقَم ومرض، وعلة عارضة، وشدّة من عيش ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ يقول: فإلى اللّه تصرخون بالدعاء وتستغيثون به، ليكشف ذلك عنكم»[1].

وقال ابن كثير: «أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعبد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليه وإحسانه إليه.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجئون إليه، وتسألونه وتلحون في الرغبة مستغيثين به»[2].

وقال الشنقيطي: «ومعنى تجأرون: ترفعون أصواتكم بالدعاء والاستغاثة عند نزول الشدائد..

ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾[3] وقد أشار إلى هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله: ﴿وَإِن

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٢١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٧٦-٥٧٧).

(٣) المؤمنون: الآيتان (٦٤-٦٥).

يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[١]، وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾[٢] الآية، وقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾[٣] الآية، وقوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ﴾[٤] الآية، وقوله: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾[٥] الآية، إلى غير ذلك من الآيات»[٦].

* * *

(١) الأنعام: الآية (١٧).

(٢) يونس: الآية (١٠٧).

(٣) فاطر: الآية (٢).

(٤) التوبة: الآية (٥١).

(٥) الزمر: الآية (٣٨).

(٦) أضواء البيان (٣/ ٢٥٦-٢٥٧).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ثم إذا وهب لكم ربكم العافية، ورفع عنكم ما أصابكم من المرض في أبدانكم، ومن الشدة في معاشكم، وفرّج البلاء عنكم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يقول: إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكا في عبادتهم، فيعبدون الأوثان، ويذبحون لها الذبائح شكرا لغير من أنعم عليهم بالفرج مما كانوا فيه من الضرّ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ يقول: ليجحدوا اللّه نعمته فيما آتاهم من كشف الضرّ عنهم ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ، وهذا من اللّه وعيد لهؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، وتهديد لهم، يقول لهم -جلّ ثناؤه-: تمتعوا في هذه الحياة الدنيا إلى أن توافيكم آجالكم، وتبلغوا الميقات الذي وقته لحياتكم وتمتعكم فيها، فإنكم من ذلك ستصيرون إلى ربكم، فتعلمون بلقائه وبال ما كسبت أيديكم، وتعرفون سوء مغبة أمركم، وتندمون حين لا ينفعكم الندم»[1].

قال الشنقيطي: « ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ؛ بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة: أن بني آدم إذا مسهم الضر دعوا اللّه وحده مخلصين له الدين فإذا كشف عنهم الضر، وأزال عنهم الشدة: إذا فريق منهم، وهم الكفار، يرجعون في أسرع وقت إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي. وقد كرر -جل وعلا- هذا المعنى في القرآن؛ كقوله في يونس: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [2] إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[3]، وقوله في الإسراء: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ

(١) جامع البيان (١٤/ ١٢٢).
(٢) يونس: الآية (٢٢).
(٣) يونس: الآية (٢٣).

وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[١]، وقوله في آخر العنكبوت: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٢]، وقوله في الأنعام: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات..

قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ صيغة الأمر في قوله ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ للتهديد، وقد تقرر.. أن من المعاني التي تأتي لها صيغة افعل التهديد، كقوله هنا: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وتشهد لهذا المعنى آيات أخر؛ كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[٤]، وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[٥]، وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٦]، وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾[٧] وقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾[٨]، وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾[٩]، إلى غير ذلك من الآيات»[١٠].

* * *

(١) الإسراء: الآية (٦٧).
(٢) العنكبوت: الآية (٦٥).
(٣) الأنعام: الآية (٦٤).
(٤) الزمر: الآية (٨).
(٥) إبراهيم: الآية (٣٠).
(٦) الحجر: الآية (٣).
(٧) الزخرف: الآية (٨٣).
(٨) المرسلات: الآية (٤٦).
(٩) الطور: الآية (٤٥).
(١٠) أضواء البيان (٣/ ٢٥٧-٢٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع اللَّه غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيبا مما رزقهم اللَّه فقالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ﴾[1] أي: جعلوا لآلهتهم نصيبًا مع اللَّه وفضلوهم أيضًا على جانبه، فأقسم اللَّه تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه، وائتفكوه، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾»[2].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: واللَّه أيها المشركون الجاعلون الآلهة والأنداد نصيبًا فيما رزقناكم شركًا باللَّه وكفرا، ليسألنكم اللَّه يوم القيامة عما كنتم في الدنيا تفترون، يعني: تختلقون من الباطل والإفك على اللَّه بدعواكم له شريكًا، وتصييركم لأوثانكم فيما رزقكم نصيبا، ثم ليعاقبنكم عقوبة تكون جزاء لكفرانكم نعمه وافترائكم عليه»[3].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ في ضمير الفاعل في قوله ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ وجهان:

أحدهما: أنه عائد إلى الكفار. أي ويجعل الكفار للأصنام التي لا يعلمون أن اللَّه أمر بعبادتها، ولا يعلمون أنها تنفع عابدها أو تضر عاصيها نصيبًا الخ؛ كقوله

(١) الأنعام: الآية (١٣٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٧٧).

(٣) جامع البيان (١٤/ ١٢٢).

تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[١] ونحو ذلك من الآيات. .

الوجه الثاني: أن واو ﴿يَعْلَمُونَ﴾ واقعة على الأصنام. فهي جماد لا يعلم شيئًا؛ أي: يجعلون للأصنام الذين لا يعلمون شيئًا لكونهم جمادًا - نصيبًا إلخ. وهذا الوجه كقوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[٢]، وقوله: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾[٣]، وقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ﴾[٤] الآية، إلى غير ذلك من الآيات. وعلى هذا القول - فالواو راجعة إلى (ما) من قوله: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾. وعبر عنهم بـ(ما) التي هي لغير العاقل؛ لأن تلك المعبودات التي جعلوا لها من رزق اللَّه نصيبًا جماد لا تعقل شيئًا. وعبر بالواو في ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ على هذا القول لتنزيل الكفار لها منزلة العقلاء في زعمهم أنها تشفع، وتضر وتنفع.

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن هذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة بينه تعالى في غير هذا الموضع. كقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٥] وذلك أن الكفار كانوا إذا حرثوا حرثًا، أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منها جزءًا، وللوثن جزءًا. فما جعلوا من نصيب الأوثان حفظوه، وإن اختلط به شيء مما جعلوه لله ردوه إلى نصيب الأصنام، وإن وقع شيء مما جعلوه لله في نصيب الأصنام تركوه فيه. وقالوا: اللَّه غني والصنم فقير. وقد أقسم -جل وعلا-: على أنه يسألهم يوم القيامة عن هذا الافتراء والكذب! وهو زعمهم أن نصيبًا مما خلق اللَّه للأوثان التي لا تنفع ولا تضر في قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ وهو سؤال توبيخ وتقريع»[٦].

* * *

(١) الحج: الآية (٧١).
(٢) النحل: الآية (٢١).
(٣) يونس: الآية (٢٩).
(٤) الأعراف: الآية (١٩٥).
(٥) الأنعام: الآية (١٣٦).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٢٥٨-٢٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومن جهل هؤلاء المشركين وخبث فعلهم، وقبح فِرْيتهم على ربهم، أنهم يجعلون لمن خلقهم ودبَّرهم وأنعم عليهم، فاستوجب بنعمه عليهم الشكر، واستحق عليهم الحمد: البنات، ولا ينبغي أن يكون لله ولد ذكر ولا أنثى سبحانه، نزه ﷻ بذلك نفسه عما أضافوا إليه ونسبوه من البنات، فلم يرضوا بجهلهم إذ أضافوا إليه ما لا ينبغي إضافته إليه، ولا ينبغي أن يكون له من الولد أن يضيفوا إليه ما يشتهونه لأنفسهم ويحبونه لها، ولكنهم أضافوا إليه ما يكرهونه لأنفسهم ولا يرضونه لها من البنات ما يقتلونها إذا كانت لهم، وفي «ما» التي في قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ وجهان من العربية: النصب عطفا لها على البنات، فيكون معنى الكلام إذا أريد ذلك: ويجعلون لله البنات ولهم البنين الذين يشتهون، فتكون «ما» للبنين، والرفع على أن الكلام مبتدأ من قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ فيكون معنى الكلام: ويجعلون لله البنات ولهم البنون»[1].

قال الرازي: «من كلماتهم الفاسدة أنهم يجعلون لله البنات، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾[2]»[3].

وقال الشنقيطي: «بين أنه لو كان متخذًا ولدًا ﷻ عن ذلك لاصطفى أحسن النصيبين، ووبخهم عل أن جعلوا له أخس الولدين، وبين كذبهم في ذلك وشدة عظم ما نسبوه إليه. كل هذا ذكره في مواضع متعددة كقوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾[4]، وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[5]، وقوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٢٣).

(٢) الزخرف: الآية (١٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٥٦).

(٤) النجم: الآيتان (٢١-٢٢).

(٥) الصافات: الآيات (١٥١-١٥٤).

رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾[1]، وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[3]، وقوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾[4]، وقال -جل وعلا-: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَۚ﴾[5]، وقال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[6]، وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[7].

وبين شدة عظم هذا الافتراء بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[8]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾[9] إلى غير ذلك من الآيات»[10].

* * *

---

(١) الإسراء: الآية (٤٠).
(٢) الزخرف: الآية (١٦).
(٣) الزمر: الآية (٤).
(٤) الطور: الآية (٣٩).
(٥) النحل: الآية (٦٢).
(٦) الزخرف: الآية (١٨).
(٧) الزخرف: الآية (١٧).
(٨) مريم: الآيات (٨٨-٩٣).
(٩) الإسراء: الآية (٤٠).
(١٠) أضواء البيان (٤/ ٢٦٠-٢٦١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

كظيم: أي ممتلئ غيظًا وغمًّا. والكظم: أن يطبق فمه فلا يتكلم للغم الذي به.

يتوارى: يختفي.

الهون: الهوان والمشقة. قال الحطيئة:

فلما خشيت الهون والعين ممسك على رغمه ما أثبت الخيل حافره

يدسه: من دَسَّ الشيءَ في التراب يدسه، إذا أخفاه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ يعني متغيرًا من الغم والحزن والغيظ والكراهة التي حصلت له عند هذه البشارة، والمعنى أن هؤلاء المشركين لا يرضى أحدهم بالبنت الأنثى أن تنسب إليه، فكيف يرضى أن ينسبها إلى اللَّه تعالى، ففيه تبكيت لهم وتوبيخ.

وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني: أنه ظل ممتلئًا غمًّا وحزنًا ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ يعني أنه يختفي من ذلك القول الذي بشر به، وذلك أن العرب كانوا في الجاهلية إذا قربت ولادة زوجة أحدهم، توارى من القوم إلى أن يعلم ما ولد له، فإن كان ولدًا ابتهج بذلك وظهر، وإن كانت أنثى حزن ولم يظهر أيامًا، حتى يفكر ما يصنع بها، وهو قوله تعالى: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ يعني على هوان، وإنما ذكر الضمير في ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾؛ لأنه عائد إلى ما بشر به في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ يعني: أم يخفي الذي بُشر به في التراب.

والدس إخفاء الشيء في الشيء. قال أهل التفسير: إن مضر وخزاعة وتميمًا

كانوا يدفنون البنات أحياء، والسبب في ذلك إما خوف الفقر، وكثرة العيال، ولزوم النفقة، أو الحمية، فيخافون عليهن من الأسر ونحوه، أو طمع غير الأكفاء فيهن فكان الرجل من العرب في الجاهلية، إذا ولدت له بنت أراد أن يستحييها تركها حتى إذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر، وجعلها ترعى الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسية، قال لأمها: زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، ويكون قد حفر لها حفرة في الصحراء فإذا بلغ بها تلك الحفرة قال لها: انظري إلى هذه البئر، فإذا نظرت إليها دفعها من خلفها في تلك البئر، ثم يهيل التراب على رأسها..

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يعني بئس ما يصنعون ويقضون حيث يجعلون لله خلقهم البنات، وهم يستنكفون منهن ويجعلون لأنفسهم البنين، نظيره قوله ﷻ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[1] وقيل: معناه ألا ساء ما يحكمون في وأد البنات»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل تربية البنات

* عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو**. وضم أصابعه»[3].

* عن عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجابًا من النار يوم القيامة**»[4].

* عن عائشة ﵄ أنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطت كل واحدة منهما تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها

(١) النجم: الآيتان (٢١-٢٢).

(٢) تفسير الخازن (٣/ ١٢٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٧-٢٠٢٨/ ٢٦٣١)، والترمذي (٤/ ٢٨١/ ١٩١٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٥٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢١٠/ ٣٦٦٩)، وأبو يعلى (٣/ ٢٩٩-٣٠٠/ ١٧٦٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦). وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١/ ٥٩٠-٥٩١).

ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما فأعجبني شأنها فذكرت الذي صنعت لرسول اللَّه ﷺ فقال: «**إن اللَّه قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار**»(١).

* **عن عائشة قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت فدخل النبي ﷺ علينا، فأخبرته فقال: «من ابتلي من هذه البنات بشيء كن له سترا من النار»(٢).**

★ فوائد الأحاديث:

قال النووي: «فِي هَذِهِ الْأَحَادِيث فَضْل الْإِحْسَان إِلَى الْبَنَات، وَالنَّفَقَة عَلَيْهِنَّ. وَالصَّبْر عَلَيْهِنَّ، وَعَلَى سَائِر أُمُورهنَّ»(٣).

قال القرطبي: «قوله: «**من ابتلي بشيء من البنات فأحسن إليهن كن له سترًا من النار**» ابتلي: امتحن واختبر، وأحسن إليهن: صانهن وقام بما يصلحهن، ونظر في أصلح الأحوال لهن، فمن فعل ذلك، وقصد به وجه اللَّه تعالى؛ عافاه اللَّه تعالى من النار، وباعده منها، وهو المعبر عنه بالستر من النار، ولا شك في أن من لم يدخل النار دخل الجنة، وقد دل على ذلك قوله في الرواية الأخرى -في المرأة التي قسمت التمرة بين بنتيها-: «**إن اللَّه قد أوجب لها الجنة، وأعاذها من النار**».

وقوله: «**بشيء من البنات**» يفيد بحكم عمومه أن الستر من النار يحصل بالإحسان إلى واحدة من البنات، فأما إذا عال زيادة على الواحدة؛ فيحصل له -زيادة على الستر من النار- السبق مع رسول اللَّه ﷺ إلى الجنة، كما جاء في الحديث الآخر، وهو قوله: «**من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو وضم بين أصابعه**» ومعنى: من عال جاريتين حتى تبلغا؛ قام عليهما بما يصلحهما ويحفظهما، يقال منه: عالَ الرجلُ عيالَه، يعولُهم عوْلًا وعيالةً، ويقال: عُلْتُه شهرًا

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٩٢) ومسلم (٤/ ٢٠٢٧/ ٢٦٣٠).
(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٣ و ١٦٦). البخاري (٣/ ٣٦١/ ١٤١٨). مسلم (٤/ ٢٠٢٧/ ٢٦٢٩). الترمذي (٤/ ٢٨١/ ١٩١٣). النسائي (٥/ ٣٩/ ٢٤٧٦-٢٤٧٧).
(٣) شرح مسلم (١٦/ ١٤٧).

إذا كفيته معاشه. ويعني ببلوغهما وصولهما إلى حال يستقلان بأنفسهما، وذلك إنما يكون في النساء إلى أن يدخل بهن أزواجهن، ولا يعني ببلوغها إلى أن تحيض وتكلف، إذ قد تتزوج قبل ذلك، فتستغني بالزوج عن قيام الكافل، وقد تحيض وهي غير مستقلة بشيء من مصالحها، ولو تركت لضاعت وفسدت أحوالها؛ بل هي في هذه الحال أحق بالصيانة والقيام عليها لتكمل صيانتها فيرغب في تزويجها، ولهذا المعنى قال علماءنا: لا تسقط النفقة عن والد الصبية بنفس بلوغها بل بدخول الزوج بها»[١].

قال ابن عثيمين: «أما هذا الحديث (إشارة إلى الحديث الأول) ففيه فضل عول الإنسان للبنات، وذلك أن البنت قاصرة ضعيفة مهينة، والغالب أن أهلها لا يأبهون بها، لا يهتمون بها، فلذلك قال النبي ﷺ: «**من عال جاريتين حتى تبلغا؛ جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين**» وضمّ أصبعيه السبابة والوسطى، والمعنى أنه يكون رفيقًا لرسول اللَّه ﷺ في الجنة إذا عال الجاريتين يعني الأنثيين من بنات أو أخوات أو غيرهما أي: إنه يكون مع النبي ﷺ في الجنة، والعول في الغالب يكون بالقيام بمؤونة البدن، من الكسوة والطعام والشراب، والسكن والفراش، ونحو ذلك، وكذلك يكون في غذاء الروح بالتعليم والتهذيب والتوجيه، والأمر بالخير والنهي عن الشر وما إلى ذلك. ويؤخذ من هذا الحديث ومما قبله أيضا أنه ينبغي للإنسان أن يهتم بالأمور التي تقربه إلى اللَّه لا بالأمور الشكليات، أو مراعاة ما ينفع في الدنيا فقط، بل يلاحظ هذا ويلاحظ ما ينفع في الآخرة أكثر وأكثر»[٢].

* * *

(١) المفهم (٦/ ٦٣٦-٦٣٧).

(٢) شرح رياض الصالحين (٥/ ١٢٢-١٢٣).

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «هذه الجملة معترضة جوابًا عن مقالتهم التي تضمّنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾[1] فإن لها ارتباطًا بجملة ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾[2] كما تقدّم، فهي بمنزلة جملة سبحانه، غير أن جملة سبحانه جواب بتنزيه اللَّه عمّا نسبوه إليه، وهذه جواب بتحقيرهم على ما يعاملون به البنات مع نسبتهم إلى اللَّه هذا الصّنف المحقرّ عندهم»[3].

قال ابن جرير: «هذا خبر من اللَّه -جلَّ ثناؤه- أن قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، والآية التي بعدها مثل ضربه اللَّه لهؤلاء المشركين الذين جعلوا لله البنات، فبين بقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أنه مثل، وعنى بقوله -جلَّ ثناؤه- ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ للذين لا يصدّقون بالمعاد والثواب والعقاب من المشركين ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ وهو القبيح من المثل، وما يسوء من ضرب له ذلك المثل ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ يقول: ولله المثل الأعلى، وهو الأفضل والأطيب، والأحسن، والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره..

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: واللَّه ذو العزّة التي لا يمتنع عليه معها عقوبة هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، ولا عقوبة من أراد عقوبته على معصيته إياه، ولا يتعذّر عليه شيء أراده وشاءه؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، الحكيم في تدبيره، فلا يدخل تدبيره خَلَل، ولا خطأ»[4].

---

(١) النحل: الآية (٥٨).
(٢) النحل: الآية (٥٧).
(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ١٨٦).
(٤) جامع البيان (١٤/ ١٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ عصاة بني آدم بمعاصيهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ يعني: على الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ تدب عليها ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يقول: ولكن بحلمه يؤخر هؤلاء الظلمة فلا يعاجلهم بالعقوبة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول: إلى وقتهم الذي وُقِّت لهم»[١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة؛ أي: لأهلك جميع دواب الأرض تبعًا لإهلاك بني آدم، ولكن الرب ﷻ، يحلم ويستر، ويُنظِر ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحدًا»[٢].

قال الشنقيطي: «وهذا القول هو الصحيح. لما تقرر في الأصول من: أن النكرة في سياق النفي إذا زيدت قبلها لفظة «من» تكون نصًّا صريحًا في العموم. وعليه فقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ يشمل كل ما يطلق عليه اسم الدابة نصًا»[٣].

وقال أيضا: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه لو عاجل الخلق بالعقوبة لأهلك جميع من في الأرض، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة؛ لأن العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة، ورب السموات والأرض لا يفوته شيء أراده. وذكر هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله في آخر سورة فاطر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[٤] الآية، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾[٥] الآية. وأشار بقوله: ﴿وَلَٰكِن

(١) جامع البيان (١٤/ ١٢٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٧٨).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٢٦٤).
(٤) فاطر: الآية (٤٥).
(٥) الكهف: الآية (٥٨).

يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أنه تعالى يمهل ولا يهمل. وبين ذلك في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ﴾[2]»[3].

* * *

(١) إبراهيم: الآية (٤٢).

(٢) العنكبوت: الآية (٥٣).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: « ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ يقول: فإذا جاء الوقت الذي وُقِّت لهلاكهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عن الهلاك ساعة فيمهلون ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ له حتى يستوفُوا آجالهم»[١].

قال الشنقيطي: «وبين هنا: أن الإنسان إذا جاء أجله لا يستأخر عنه، كما أنه لا يتقدم عن وقت أجله.

وأوضح ذلك في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾[٢] الآية، وقوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾[٣] الآية، إلى غير ذلك من الآيات»[٤].

* * *

(١) جامع البيان (١٤/ ١٢٥).
(٢) نوح: الآية (٤).
(٣) المنافقون: الآية (١١).
(٤) أضواء البيان (٣/ ٢٦٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويجعل هؤلاء المشركون لله ما يكرهونه لأنفسهم. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ يقول: وتقول ألسنتهم الكذب وتفتريه، أن لهم الحسنى، فأن في موضع نصب؛ لأنها ترجمة عن الكذب. وتأويل الكلام: ويجعلون لله ما يكرهونه لأنفسهم، ويزعمون أن لهم الحسنى، والذي يكرهونه لأنفسهم. البنات يجعلونهن لله تعالى، وزعموا أن الملائكة بنات اللَّه. وأما الحُسنى التي جعلوها لأنفسهم: فالذكور من الأولاد، وذلك أنهم كانوا يئدون الإناث من أولادهم، ويستبقون الذكور منهم، ويقولون: لنا الذكور ولله البنات، وهو نحو قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

قال الخازن: «وقيل: أراد بالحسنى الجنة، والمعنى أنهم مع كفرهم، وقولهم الكذب يزعمون أنهم على الحق، وأن لهم الجنة وذلك أنهم قالوا: إن كان محمد صادقًا في البعث بعد الموت، فإن لنا الجنة لأنّا على الحق»[(٣)].

قال الشنقيطي: «ويدل على صحة هذا القول الأخير دليلان:

أحدهما: كثرة الآيات القرآنية المبينة لهذا المعنى؛ كقوله تعالى عن الكافر: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[(٥)]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[(٦)]، وقوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا

(١) النحل: الآية (٥٧).
(٢) جامع البيان (١٤/ ١٢٦).
(٣) تفسير الخازن (٣/ ١٢١).
(٤) فصلت: الآية (٥٠).
(٥) الكهف: الآية (٣٦).
(٦) مريم: الآية (٧٧).

﴿وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[2] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

والدليل الثاني: أن اللَّه أتبع قوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ الآية، فدل ذلك دلالة واضحة على ما ذكرنا، والعلم عند اللَّه. والمصدر المنسبك من «أن» وصلتها في قوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ في محل نصب، بدل من قوله: ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ ومعنى وصف ألسنتهم الكذب قولها للكذب صريحًا لا خفاء به»[3].

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾؛ أبهم -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة هذا الذي يجعلونه لله ويكرهونه؛ لأنه عبر عنه بـ«ما» الموصولة، وهي اسم مبهم، وصلة الموصول لن تبين من وصف هذا المبهم إلا أنهم يكرهونه. ولكنه بين في مواضع أخر: أنه البنات والشركاء وجعل المال الذي خلق لغيره، قال في البنات: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾[4] ثم بين كراهيتهم لها في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾[5] الآية. وقال في الشركاء: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾[6] الآية، ونحوها من الآيات.

وبين كراهيتهم للشركاء في رزقهم بقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[7] أي: إذا كان الواحد منكم لا يرضى أن يكون عبده المملوك شريكًا له مثل نفسه في جميع ما عنده، فكيف تجعلون الأوثان شركاء لله في عبادته التي هي حقه على عباده! وبين جعلهم بعض ما خلق اللَّه من الرزق للأوثان في قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ إلى قوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[8] وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾[9]»[10].

---

(١) سبأ: الآية (٣٥).
(٢) المؤمنون: الآية (٥٥-٥٦).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٢٦٧).
(٤) النحل: الآية (٥٧).
(٥) النحل: الآية (٥٨).
(٦) الأنعام: الآية (١٠٠).
(٧) الروم: الآية (٢٨).
(٨) الأنعام: الآية (١٣٦).
(٩) النحل: الآية (٥٦).
(١٠) أضواء البيان (٣/ ٢٦٦-٢٦٧).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: حقا واجبا أن لهؤلاء القائلين لله البنات، الجاعلين له ما يكرهونه لأنفسهم، ولأنفسهم الحسنى عند الله يوم القيامة؛ النار..

وقوله: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وأنهم مُخَلَّفون متروكون في النار، منسيون فيها.

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال أكثرهم بنحو ما قلنا في ذلك..

وقال آخرون: معنى ذلك: أنهم مُعْجَلُونَ إلى النار مقدّمون إليها..

وقال آخرون. معنى ذلك: مُبْعَدون في النار..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب القول الذي اخترناه»[1].

قال الشنقيطي: «ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾[2]، وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾[3] الآية، وقوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾[4]، فالنسيان في هذه الآيات معناه: الترك في النار. أما النسيان بمعنى زوال العلم: فهو مستحيل على الله. كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[5]، وقال: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾[6].

وممن قال بأن معنى ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ منسيون متركون في النار: مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة وابن الأعرابي، وأبو عبيدة، والفراء، وغيرهم»[7].

* * *

(١) جامع البيان (١٤/ ١٢٧-١٢٩).
(٢) الأعراف: الآية (٥١).
(٣) السجدة: الآية (١٤).
(٤) الجاثية: الآية (٣٤).
(٥) مريم: الآية (٦٤).
(٦) طه: الآية (٥٢).
(٧) أضواء البيان (٣/ ٢٦٨).

قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مقسِما بنفسه ﷻ لنبيه محمد ﷺ: واللَّه يا محمد لقد أرسلنا رسلًا من قبلك إلى أممها بمثل ما أرسلناك إلى أمتك من الدعاء إلى التوحيد لله، وإخلاص العبادة له، والإذعان له بالطاعة، وخلع الأنداد والآلهة ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يقول: فحسَّن لهم الشيطان ما كانوا عليه من الكفر باللَّه وعبادة الأوثان مقيمين، حتى كذّبوا رسلهم، وردّوا عليهم ما جاءوهم به من عند ربهم ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ يقول: فالشيطان ناصرهم اليوم في الدنيا، وبئس الناصر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة عند ورودهم على ربهم، فلا ينفعهم حينئذ ولاية الشيطان، ولا هي نفعتهم في الدنيا، بل ضرّتهم فيها وهي لهم في الآخرة أضرّ»(١).

قال ابن كثير: «يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رُسُلا فكُذِّبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يهيدنَّك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل، فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصا؛ ولا صريخ لهم ولهم عذاب أليم»(٢).

* * *

(١) جامع البيان (١٤/ ١٢٩-١٣٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وما أنزلنا يا محمد عليك كتابنا وبعثناك رسولًا إلى خلقنا إلا لتبين لهم ما اختلفوا فيه من دين اللَّه، فتعرّفهم الصواب منه، والحقّ من الباطل، وتقيم عليهم بالصواب منه حجة اللَّه الذي بعثك بها.

وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: وهدى بيانًا من الضلالة، يعني بذلك الكتاب، ورحمة لقوم يؤمنون به، فيصدّقون بما فيه، ويقرّون بما تضمن من أمر اللَّه ونهيه، ويعملون به، وعطف بالهدى على موضع ليبين؛ لأن موضعها نصب. وإنما معنى الكلام: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا بيانًا للناس فيما اختلفوا فيه هدى ورحمة»[1].

* * *

(١) جامع البيان (١٤/ ١٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- منبهَ خلقِه على حججه عليهم في توحيده، وأنه لا تنبغي الألوهية إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء سواه: أيها الناس معبودكم الذي له العبادة دون كلّ شيء، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: مطرًا، يقول: فأنبت بما أنزل من ذلك الماء من السماء الأرض الميتة التي لا زرع بها ولا عُشْبَ ولا نبت ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ بعد ما هي ميتة لا شيء فيها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن في إحيائنا الأرض بعد موتها بما أنزلنا من السماء من ماء لدليلا واضحًا، وحجة قاطعة، عذر من فكر فيه ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يقول: لقوم يسمعون هذا القول فيتدبرونه ويعقلونه، ويطيعون اللَّه بما دلهم عليه»[1].

قال الخازن: «﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يعني سماع إنصاف وتدبر وتفكر؛ لأن سماع القلوب هو النافع لا سماع الآذان، فمن سمع آيات اللَّه؛ أي: القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع، ومن لم يسمع بقلبه لم ينتفع بالآيات»[2].

قال ابن عاشور: «وهو تعريض بالمشركين الذين لم يفهموا دلالة ذلك على الوحدانية. ولذلك اختير وصف السمع هنا المراد منه الإنصاف والامتثال؛ لأن دلالة المطر وحياة الأرض به معروفة مشهورة، ودلالة ذلك على وحدانية اللَّه تعالى ظاهرة لا يصدّ عنها إلا المكابرة»[3].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٣٠).

(٢) تفسير الخازن (٣/ ١٢١).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ١٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾[1]

★ غريب الآية:

عبرة: أي: عظة.

فرث: الفرث: الزبل الذي ينزل إلى الكرش.

سائغًا: أي: لذيذًا سهلًا لا يسبب الغصة. قال الشاعر:

فساغ لي الشرابُ وكنتُ قبلا أكادُ أغُصُّ بالماء القُرَاحِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن لكم أيها الناس لعظة في الأنعام التي نُسقيكم مما في بطونه..

وأما قوله: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ وقد ذكر الأنعام قبل ذلك، وهي جمع والهاء في البطون موحدة، فإن لأهل العربية في ذلك أقوالا فكان بعض نحويِّي الكوفة يقول: النَّعم والأنعام شيء واحد؛ لأنهما جميعًا جمعان، فردّ الكلام في قوله: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ إلى التذكير مرادًا به معنى النَّعم، إذ كان يؤدي عن الأنعام..

وكان غيره منهم يقول: إنما قال: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ لأنه أراد: مما في بطون ما ذكرنا.. ويقول: من ذلك قول اللَّه -تعالى ذكره-: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾[2] بمعنى: هذا الشيء الطالع. وقوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[3] ولم يقل ذكرها؛ لأن معناه: فمن شاء ذكر هذا الشيء. وقوله: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم

---

(١) النحل: الآية (٦٦).

(٢) الأنعام: الآية (٧٨).

(٣) عبس: الآيتان (١١-١٢).

بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾[١] ولم يقل جاءت. وكان بعض البصريين يقول: قيل: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ لأن المعنى: نسقيكم من أيّ الأنعام كان في بطونه، ويقول: فيه اللبن مضمر، يعني أنه يسقي من أيها كان ذا لبن، وذلك أنه ليس لكلها لبن، وإنما يُسقى من ذوات اللبن. والقولان الأوّلان أصحّ مخرجا على كلام العرب من هذا القول الثالث.

وقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ يقول: نسقيكم لبنًا، نخرجه لكم من بين فرث ودم خالصًا: يقول: خلص من مخالطة الدم والفرث، فلم يختلطا به ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ يقول: يسوغ لمن شربه فلا يَغَصّ به كما يَغَصّ الغاصّ ببعض ما يأكله من الأطعمة. وقيل: إنه لم يَغصّ أحد باللبن قَطُّ»[٢].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ الآية؛ بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن في الأنعام عبرة دالة على تفرد من خلقها، وأخلص لبنها من بين فرث ودم- بأنه هو وحده المستحق لأن يعبد، ويطاع ولا يعصى.

وأوضح هذا المعنى أيضًا في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[٤]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[٥]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[٦]، إلى غير ذلك من الآيات»[٧].

قال ابن القيم: «ثم تأمل العبرة التي ذكرها اللَّه ﷻ في الأنعام وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم، فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة، فينقلب بعضه دما بإذن اللَّه، وما

---

(١) النمل: الآيتان (٣٥-٣٦).
(٢) جامع البيان (١٤/ ١٣١-١٣٣).
(٣) المؤمنون: الآية (٢١).
(٤) النحل: الآية (٥).
(٥) يس: الآيات (٧١-٧٣).
(٦) الغاشية: الآية (١٧).
(٧) أضواء البيان (٣/ ٢٦٩).

يسرى في عروقها وأعضائها وشعورها ولحومها، فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء، قَلَبَه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر إلى طبيعته، ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له، إذ به قوام الحيوان. ثم ينصب ثقله إلى الكرش فيصير زبلًا، ثم ينقلب باقيه لبنًا صافيًا أبيض سائغًا للشاربين، فيخرج من بين الفرث والدم، حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلبا خرج الدم مشوبًا بحمرة، فصفى اللَّه سبحانه الألطف من الثقل بالطبخ الأول، فانفصل إلى الكبد وصار دما، وكان مخلوطا بالأخلاط الأربعة، فأذهب اللَّه ﷻ كل خلط منها إلى مقره وخزانته المهيأة له من المرارة والطحال والكلية. وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة الكبد، فينصب من تلك العروق إلى الضرع، فيقلبه اللَّه -تبارك وتعالى- من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه، فاستخرج من الفرث والدم، فَسَلِ المعطل الجاحد مَنِ الذي دبر هذا التدبير، وقدر هذا التقدير، وأتقن هذا الصنع، ولطف هذا اللطف، سوى اللطيف الخبير»[1].

قال الشنقيطي: «استنبط القاضي إسماعيل من تذكير الضمير في قوله: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾: أن لبن الفحل يفيد التحريم. وقال: إنما جيء به مذكرًا لأنه راجع إلى ذكر النعم؛ لأن اللبن للذكر محسوب، ولذلك قضى النَّبي ﷺ «أن لبن الفحل يحرم»[2] حيث أنكرته عائشة في حديث أفلح أخي أبي القعيس، فللمرأة السقي، وللرجل اللقاح. فجرى الاشتراك فيه بينهما اه. بواسطة نقل القرطبي.

قال مقيده -عفا اللَّه عنه-: أما اعتبار لبن الفحل في التحريم فلا شك فيه، ويدل له الحديث المذكور في قصة عائشة مع أفلح أخي أبي القعيس. فإنه متفق عليه مشهور. وأما استنباط ذلك من عود الضمير في الآية فلا يخلو عندي من بعد وتعسف، والعلم عند اللَّه تعالى»[3].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٧٢).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٨)، والبخاري (٨/ ٥٣١/ ٤٧٩٦)، ومسلم (٢/ ١٠٦٩/ ١٤٤٥)، وأبو داود (٢/ ٥٤٥-٥٤٦/ ٢٠٥٥)، والترمذي (٣/ ٤٥٣/ ١١٤٧)، والنسائي (٦/ ٤٠٧/ ٣٣٠١)، وابن ماجه (١/ ٦٢٣/ ١٩٣٧) من حديث عائشة ﵂.

(٣) أضواء البيان (٣/ ٢٧٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في شرب اللبن

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «أتي رسول اللَّه ﷺ ليلة أسري به بقدح لبن وقدح خمر»[١].

* عن أم الفضل قالت: «شك الناس في صيام رسول اللَّه ﷺ يوم عرفة فأرسلت إليه بإناء فيه لبن فشرب». فكان سفيان ربما قال: «شك الناس في صيام رسول اللَّه ﷺ يوم عرفة فأرسلت إليه أم الفضل» فإذا وقف عليه قال: هو عن أم الفضل[٢].

* عن جابر بن عبد اللَّه قال: «جاء أبو حميد بقدح من لبن من النقيع فقال له رسول اللَّه ﷺ: **ألا خمرته ولو أن تعرض عليه عودًا**»[٣].

* عن البراء ﷺ قال: «قدم النبي ﷺ من مكة وأبو بكر معه قال أبو بكر: مررنا براعٍ --وقد عطش رسول اللَّه ﷺ- قال أبو بكر ﷺ: فحلبت كثبة من لبن في قدح فشرب حتى رضيت وأتانا سراقة بن جعشم على فرس فدعا عليه فطلب إليه سراقة أن لا يدعو عليه وأن يرجع ففعل النبي ﷺ»[٤].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**نعم الصدقة اللقحة الصفي منحة، والشاة الصفي منحة، تغدو بإناء وتروح بآخر**»[٥].

* عن ابن عباس ﷺ: «أن رسول اللَّه ﷺ شرب لبنًا فمضمض وقال: إن له دسمًا»[٦].

* عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**رفعت إلي السدرة فإذا أربعة**

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٥١٢)، والبخاري (١٠/ ٨٦/ ٥٦٠٣)، ومسلم (١/ ١٥٤/ ١٦٨)، والترمذي (٥/ ٢٨٠/ ٣١٣٠)، والنسائي (٨/ ٣١٢/ ٥٦٧٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٤٤)، والبخاري (١٠/ ٨٦/ ٥٦٠٤)، ومسلم (٢/ ٧٩١/ ١١٢٣)، وأبو داود (٣/ ٨١٧/ ٢٤٤١)، والترمذي (٣/ ١٢٤-١٢٥/ ٧٥٠)، والنسائي في الكبرى (٢/ ١٥٣/ ٢٨١٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٩٤)، والبخاري (١٠/ ٨٦/ ٥٦٠٥)، ومسلم (٣/ ١٥٩٣/ ٢٠١١)، والنسائي في الكبرى (٤/ ١٤٩/ ٦٦٣٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٠-٢٨١)، والبخاري (١٠/ ٨٦/ ٥٦٠٧)، ومسلم (٣/ ١٥٩٢/ ٢٠٠٩).

(٥) أخرجه: البخاري (١٠/ ٨٧/ ٥٦٠٨)، ومسلم (١/ ٧٠٧/ ١٠١٩).

(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٣)، والبخاري (١٠/ ٨٧/ ٥٦٠٩)، ومسلم (١/ ٢٧٤/ ٣٥٨)، وأبو داود (١/ ١٣٥/ ١٩٦)، والترمذي (١/ ١٤٩/ ٨٩)، وابن ماجه (١/ ١٦٧/ ٤٩٨).

أنهار: نهران ظاهران ونهران باطنان، فأما الظاهران فالنيل والفرات؛ وأما الباطنان فنهران في الجنة، فأتيت بثلاثة أقداح: قدح فيه لبن وقدح فيه عسل وقدح فيه خمر، فأخذت الذي فيه اللبن فشربت فقيل لي: أصبت الفطرة أنت وأمتك». وقال هشام وسعيد وهمام عن قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ في الأنهار نحوه ولم يذكروا ثلاثة أقداح[1].

⋆ غريب الأحاديث:

النقيع: بفتح النون وكسر القاف وبالعين المهملة: وهو موضع بوادي العقيق، وهو الذي حماه رسول اللَّه ﷺ لرعي الغنم، وقيل: إنه غير الحِمَى.

خمرته: بالخاء المعجمة وتشديد الميم: أي: هلاّ غطّيته. ومنه خمار المرأة لأنه يسترها.

كُثْبة: بضم الكاف وسكون الثاء المثلثة وفتح الباء الموحدة، قال ابن فارس: هي القطعة من اللبن أو التمر، وقال الخليل: كل قليل جمعته فهو كثبة، وقال أبو زيد: هي من اللبن ملء القدح، وقيل: قدر حَلْبة تامّة».

اللّقحة: بكسر اللام ويجوز فتحها وسكون القاف وبالحاء المهملة، قال الكرماني: هي الحلوب من الناقة، وقال بعضهم: هي التي قرب عهدها بالولادة».

الصفي: المختارة. وقيل: غزيرة اللبن.

منحة: بكسر الميم وهي العطية.

⋆ فوائد الأحاديث:

ترجم البخاري لهذه الأحاديث بالآية وبقوله: «باب شرب اللبن».

قال ابن حجر: «قال ابن المنير: أطال التفنن في هذه الترجمة ليرد قول من زعم أن اللبن يسكر كثيره فرد ذلك بالنصوص، وهو قول غير مستقيم لأن اللبن لا يسكر بمجرده، وإنما يتفق فيه ذلك نادرًا بصفة تحدث. وقال غيره: قد زعم بعضهم أن اللبن إذا طال العهد به وتغير صار يسكر، وهذا ربما يقع نادرًا إن ثبت وقوعه،

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٦٤)، والبخاري (١٠/ ٨٧/ ٥٦١٠)، ومسلم (١/ ١٤٩-١٥٠/ ١٦٤).

ولا يلزم منه تأثيم شاربه إلا إن علم أن عقله يذهب به فشربه لذلك. نعم قد يقع السكر باللبن إذا جعل فيه ما يصير باختلاطه معه مُسكرًا فيحرم»[١].

وقال ابن حجر: «قال ابن المنير: لم يذكر السر في عدوله عن العسل إلى اللبن كما ذكر السر في عدوله عن الخمر، ولعل السر في ذلك كون اللبن أنفع، وبه يشتد العظم وينبت اللحم، وهو بمجرده قوت، ولا يدخل في السرف بوجه، وهو أقرب إلى الزهد، ولا منافاة بينه وبين الورع بوجه. والعسل وإن كان حلالًا لكنه من المستلذات التي قد يخشى على صاحبها أن يندرج في قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾[٢]. قلت: ويحتمل أن يكون السر فيه ما وقع في بعض طرق الإسراء أنه ﷺ عطش -كما تقدم في بعض طرقه مبينًا هناك- فأتي بالأقداح، فآثر اللبن دون غيره لما فيه من حصول حاجته دون الخمر والعسل، فهذا هو السبب الأصلي في إيثار اللبن، وصادف مع ذلك رجحانه عليهما من عدة جهات»[٣].

قال ابن القيم: «قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[٤] وقال في الجنة: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾[٥]. وفي السنن مرفوعًا: «**من أطعمه الله طعامًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وارزقنا خيرًا منه. ومن سقاه الله لبنًا، فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه، فإني لا أعلم ما يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن**»[٦].

اللبن وإن كان بسيطًا في الحس، إلا أنه مركب في أصل الخلقة تركيبًا طبيعيًا من جواهر ثلاثة: الجبنية، والسمنية، والمائية، فالجبنية: باردة رطبة، مغذية للبدن، والسمنية: معتدلة الحرارة والرطوبة ملائمة للبدن الإنساني الصحيح، كثيرة المنافع، والمائية: حارة رطبة، مطلقة للطبيعة، مرطبة للبدن، واللبن على الإطلاق أبرد وأرطب من المعتدل. وقيل: قوته عند حلبه الحرارة والرطوبة، وقيل: معتدل في الحرارة والبرودة.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٨٧).
(٢) الأحقاف: الآية (٢٠).
(٣) فتح الباري (١٠/ ٩١).
(٤) النحل: الآية (٦٦).
(٥) محمد: الآية (١٥).
(٦) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٥)، وأبو داود (٤/ ١١٦/ ٣٧٣٠)، والترمذي (٥/ ٤٧٢-٤٧٣/ ٣٤٥٥) وقال: حسن. وابن ماجه (٢/ ١١٠٣/ ٣٣٢٢) من حديث عبد الله بن عباس ﵄، وحسنه الشيخ الألباني.

وأجود ما يكون اللبن حين يُحلب، ثم لا يزال تنقص جودته على ممر الساعات، فيكون حين يُحلب أقل برودة، وأكثر رطوبة، والحامض بالعكس، ويُختار اللبن بعد الولادة بأربعين يومًا، وأجوده ما اشتد بياضه، وطاب ريحه، ولذ طعمه، وكان فيه حلاوة يسيرة، ودسومة معتدلة، واعتدل قوامه في الرقة والغلظ، وحُلب من حيوان فتي صحيح، معتدل اللحم، محمود المرعى والمشرب.

وهو محمود يولد دمًا جيدًا، ويرطب البدن اليابس، ويغذو غذاءً حسنًا، وينفع من الوسواس والغم والأمراض السوداوية، وإذا شُرب مع العسل نقى القروح الباطنة من الأخلاط العفنة، وشربه مع السكر يحسّن اللون جدًّا، والحليب يتدارك ضرر الجماع، ويُوافق الصدر والرئة، جيد لأصحاب السل، رديء للرأس والمعدة، والكبد والطحال، والإكثار منه مضر بالأسنان واللثة، ولذلك ينبغي أن يتمضمض بعده بالماء، وفي الصحيحين: أن النبي ﷺ شرب لبنًا، ثم دعا بماء فتمضمض وقال: «**إن له دسمًا**»...

واللبن المطلق أنفع المشروبات للبدن الإنساني لما اجتمع فيه من التغذية والدموية، ولاعتياده حال الطفولية، وموافقته للفطرة الأصلية»[1].

* * *

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٨٤-٣٨٦).

قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابا للناس سائغا، ثَنَّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ دل على إباحته شرعا قبل تحريمه، ودل على التسوية بين السَّكَر المتخذ من العنب، والمتخذ من النخل كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حُكْم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ قال: السَّكَر: ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما. وفي رواية: السَّكر حرامه، والرزق الحسن حلاله. يعني: ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء وهو الدِّبس- وخل ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما في الإنسان؛ ولهذا حرم اللَّه على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(١)»(٢).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولكم أيضًا أيها الناس عِبرةٌ فيما نسقيكم

(١) يس: الآيات (٣٤-٣٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٨١).

من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا، مع ما نسقيكم من بطون الأنعام من اللبن الخارج من بين الفرث والدم..

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ فقال بعضهم: عني بالسَّكَر: الخمر، وبالرزق الحسن: التمر والزبيب، وقال: إنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر، ثم حُرّمت بعد..

وقال آخرون: السَّكَر بمنزلة الخمر في التحريم، وليس بخمر، وقالوا: هو نقيع التمر والزبيب إذا اشتدّ وصار يُسْكِر شاربه..

وقال آخرون: السَّكَر: هو كلّ ما كان حلالا شربه، كالنبيذ الحلال والخلّ والرطَب. والرزق الحسن: التمر والزبيب..

وعلى هذا التأويل، الآية غير منسوخة، بل حكمها ثابت. وهذا التأويل عندي هو أولى الأقوال بتأويل هذه الآية»[1].

قال الشنقيطي: «جمهور العلماء على أن المراد بالسكر في هذه الآية الكريمة: الخمر؛ لأن العرب تطلق اسم السكر على ما يحصل به السكر، من إطلاق المصدر وإرادة الاسم..

وممن قال بأن السكر في الآية الخمر: ابن عباس، و ابن مسعود، وابن عمر، وأبو رزين، والحسن، ومجاهد، والشعبي، والنخعي، وابن أبي ليلى، والكلبي، وابن جبير، وأبو ثور، وغيرهم. وقيل: السكر: الخل. وقيل: العصير الحلو.

وإذا عرفت أن الصحيح هو مذهب الجمهور، وأن اللّه امتن على هذه الأمة بالخمر قبل تحريمها - فاعلم أن هذه الآية مكية، نزلت بعدها آيات مدنية بينت تحريم الخمر، وهي ثلاث آيات نزلت بعد هذه الآية الدالة على إباحة الخمر.

الأولى: آية البقرة التي ذكر فيها بعض معائبها ومفاسدها، ولم يجزم فيها بالتحريم، وهي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[2]، وبعد نزولها تركها قوم للإثم الذي فيها، وشربها آخرون للمنافع التي فيها.

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٣٣-١٣٨).

(٢) البقرة: الآية (٢١٩).

الثانية: آية النساء الدالة على تحريمها في أوقات الصلوات، دون الأوقات التي يصحو فيها الشارب قبل وقت الصلاة، كما بين صلاة العشاء وصلاة الصبح، وما بين صلاة الصبح وصلاة الظهر، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾[١] الآية.

الثالثة: آية المائدة الدالة على تحريمها تحريمًا باتاً، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٢] إلى قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[٣].

وهذه الآية الكريمة تدل على تحريم الخمر أتم دلالة وأوضحها؛ لأنه تعالى صرح بأنها رجس، وأنها من عمل الشيطان، وأمر باجتنابها أمرًا جازمًا في قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ واجتناب الشيء: هو التباعد عنه، بأن تكون في غير الجانب الذي هو فيه. وعلق رجاء الفلاح على اجتنابها في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ ويفهم منه أنه من لم يجتنبها لم يفلح، وهو كذلك»[٤].

* * *

(١) النساء: الآية (٤٣).

(٢) المائدة: الآية (٩٠).

(٣) المائدة: الآية (٩١).

(٤) أضواء البيان (٣/ ٢٧٩-٢٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

★ غريب الآية:

ذللا: جمع ذلول. وهو المنقاد المسخر بلا عناء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «المراد بالوحي هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوي إليها، ومن الشجر، ومما يعرشون. ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها، بحيث لا يكون بينها خلَل. ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها اللّٰه تعالى لها مذللة؛ أي: سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل من فيها وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

وقال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي: مطيعة. فجعلاه حالا من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول اللّٰه تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾[1] قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل من بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم.

والقول الأول أظهر، وهو أنه حال من الطريق؛ أي: فاسلكيها مذلَّلةً لك، نص عليه مجاهد..

---

(١) يس: الآية (٧٢).

وقوله تعالى ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها.

وقوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: في العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه: «الشفاء للناس» لكان دواء لكل داء، ولكن قال: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يداوى بضده.

وقال مجاهد بن جَبْر في قوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن.

وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر هاهنا من سياق الآية؛ فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله هاهنا، وإنما الذي قاله ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(١) الآية. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢)»(٣).

قال ابن جرير: «قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن في إخراج اللَّه من بطون هذه النحل: الشراب المختلف، الذي هو شفاء للناس، لدلالة وحجة واضحة على من سخَّر النحل وهداها لأكل الثمرات التي تأكل، واتخاذها البيوت التي تنحت من الجبال والشجر والعروش، وأخرج من بطونها ما أخرج من الشفاء للناس، أنه الواحد الذي ليس كمثله شيء، وأنه لا ينبغي أن يكون له شريك ولا تصحّ الألوهة إلا له»(٤).

قال ابن القيم: «ثم تأمل في أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات، فانظر إليها وإلى اجتهادها في صنعة العسل، وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة، وأحكمها صنعا، فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن فيها فرجة ولا خلل. كل هذا بغير قياس ولا آلة ولا بيكار، وتلك من أثر صنع اللَّه وإلهامه إياها وإيحائه إليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ

---

(١) الإسراء: الآية (٨٢). (٢) يونس: الآية (٥٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٥٨١-٥٨٢).

(٤) جامع البيان (١٤/ ١٤١).

بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمارها لأمر ربها، كيف اتخذت بيوتها في هذه الأمكنة الثلاثة في الجبال والشقفانات، وفي الشجر وفي بيوت الناس حيث يعرشون، أي يبنون العروش وهي البيوت، فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة، وتأمل كيف أكثر بيوتها في الجبال والشقفان، وهو البيت المقدم في الآية، ثم في الأشجار وهي من أكثر بيوتها ومما يعرش الناس، وأقل بيوتها بينهم حيث يعرشون.

وأما في الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جدا، وتأمل كيف أداها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت قبل المرعى، فهي تتخذ أولًا، فإذا استقر لها بيت خرجت منه فَرَعَت وأكلت من الثمار، ثم آوت إلى بيوتها؛ لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولا، ثم بالأكل بعد ذلك، ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة لا يستوعر عليها شيء، ترعى ثم تعود. ومن عجيب شأنها أن لها أميرا يسمى اليعسوب، لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به، فهي مؤتمرة لأمره، سامعة له مطيعة، وله عليها تكليف وأمر ونهي، وهي راعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته، حتى إنها إذا آوت إلى بيوتها وقف على باب البيت، فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى، ولا تتقدم عليها في العبور، بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم، كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق لا يجوزه إلا واحد واحد، ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب، ويعلم أن هذا ليس في مقدورها، ولا هو من ذاتها، فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الإحكام والإتقان، فإذا نظرت إلى العامل رأيته من أضعف خلق اللّه أجهله بنفسه وبحاله، وأعجزه عن القيام بمصلحته، فضلا عما يصدر عنه من الأمور العجيبة.

ومن عجيب أمرها: أن فيها أميرين لا يجتمعان في بيت واحد ولا يتأمّران على جمع واحد، بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحد الأميرين وقطعوه،

---

(١) النحل: الآيتان (٦٨-٦٩).

واتفقوا على الأمير الواحد من غير معاداة بينهم ولا أذى من بعضهم لبعض، بل يصيرون يدا واحدة وجندا واحدا.

فصل: ومن عجيب أمرها ما لا يهتدي له أكثر الناس ولا يعرفونه، وهو النتاج الذي يكون لها، هل هو على وحه الولادة والتوالد، أو الاستحالة، فقَلَّ من يعرف ذلك أو يفطن له، وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين، وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجب فإنها إذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التي على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره، وهي الطل، فتمصها، وذلك مادة العسل. ثم إنها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتعقدها على رجلها كالعدسة، فتملأ بها المسدسات الفارغة من العسل، ثم يقوم يعسوبها على بيته مبتدئا منه فينفخ فيه، ثم يطوف على تلك البيوت بيتًا بيتًا وينفخ فيها كلها، فتدب فيها الحياة بإذن اللَّه ﷻ، فتتحرك وتخرج طيورا بإذن اللَّه، وتلك إحدى الآيات والعجائب التي قل من يتفطن لها، وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الإلهي، أفادها وأَكْسَبَها هذا التدبير والسفر والمعاش و البناء والنتاج، فسل المعطل مَنِ الذي أوحى إليها أمرها، وجعل ما جعل في طباعها، ومَنِ الذي سهل لها سبله ذللا منقادة، لا تستعصي عليها ولا تستوعرها، ولا تضل عنها على بعدها، ومن الذي هداها لشأنها، ومن الذي أنزل لها من الطل ما إذا جنته ردته عسلًا صافيًا مختلفًا ألوانه في غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة، من بين أبيض يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته في المرآة. وسمَّاه لي من جاء به وقال: هذا أفخر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه، فإذا طَعْمُه ألذ شيء يكون من الحلوى. ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها.

وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله في غالب الأدوية، حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر ولا هو مذكور في كتبهم أصلا، وإنما كان الذي يستعملونه في الأدوية هو العسل، وهو المذكور في كتب القوم، ولعمر اللَّه إنه لأنفع من السكر وأجدى وأجلى للأخلاط، وأقمع لها، وأذهب لضررها، وأقوى للمعدة، وأشد تفريحا للنفس وتقوية للأرواح، وتنفيذا للدواء، وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن. ولهذا لم يجىء في شيء من الحديث قط ذكر

السكر، ولا كانوا يعرفونه أصلا، ولو عدم من العالم لما احتاجوا إليه، ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه، وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل واستطابوه عليه، ورأوه أقل حدة وحرارة منه، ولم يعلموا أن من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة، فإذا لم يوافق من يستعمله كسرها بمقابلها، فيصير أنفع له من السكر»[١].

وقال أيضا: «وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب، وذلك أن لها أميرًا ومدبرًا وهو اليعسوب، وهو أكبر جسما من جميع النحل وأحسن لونًا وشكلًا، وإناث النحل تلد في إقبال الربيع، وأكثر أولادها يكن إناثا، وإذا وقع فيها ذَكَر لم تدعه بينها، بل إمّا أن تطرده، وإما أن تقتله، إلا طائفة يسيرة منها تكون حول الملك. وذلك أن الذكور منها لا تعمل شيئًا ولا تكسب.

ثم تجمع الأمهات وفراخها عند الملك فيخرج بها إلى المرعى من المروج والرياض والبساتين والمراتع في أقصد الطرق وأقربها. فيجتني منها كفايتها، فيرجع بها الملك، فإذا انتهوا إلى الخلايا وقف على بابها، ولم يدع ذكرا ولا نحلة غريبة تدخلها. فإذا تكامل دخولها دخل بعدها، وتواجدت النحل على مقاعدها وأماكنها، فيبتدئ الملك بالعمل كأنه يعلمها إياه، فيأخذ النحل في العمل ويتسارع إليه، ويترك الملك العمل ويجلس ناحية بحيث يشاهد النحل. فيأخذ النحل في إيجاد الشمع من لزوجات الأوراق والأنوار، ثم تقتسم النحل فرقا، فمنها فرقة تَلْزم الملك ولا تفارقه، ولا تعمل ولا تكسب، وهم حاشية الملك من الذكورة. ومنها فرقة تهيئ الشمع وتصنعه، والشمع هو ثفل العسل، وفيه حلاوة كحلاوة التين، وللنحل فيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل، فينظفه النحل ويصفيه ويخلصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها. وفرقة تبني البيوت. وفرقة تسقي الماء وتحمله على متونها. وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل.

وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعها وقتلها حتى لا تفسد عليهن بقية العمال، وتُعْدِيَهن ببطالتها ومهانتها. وأول ما يبنى في الخلية مقعد الملك وبيته، فيبنى له بيتًا مربعًا يشبه السرير والتخت، فيجلس عليه ويستدير حوله طائفة من النحل يشبه

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٦٥-١٦٩).

الأمراء والخدم والخواص لا يفارقنه، ويجعل النحل بين يديه شيئًا يشبه الحوض يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه، ويملأ منه الحوض يكون ذلك طعاما للملك وخواصه، ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سكك ومحال، وتبنى بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع كأنها قرأت كتاب إقليدس حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها؛ لأن المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعة، والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلا مستديرا كاستدارة الرحى، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضًا حتى يصير طبقًا واحدًا محكمًا، لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر، فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم الذي يعجز البشر عن صنع مثله.

فعَلِمَت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين، إحداهما: أن لا يكون من زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق مُعَطلا، الثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض وامتلأت العرصة منها فلا يبقى منها ضائعا. ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط، فإن المثلثات والمربعات وإن أمكن امتلاء العرصة منها، إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلئ العرصة منها، بل يبقى بينها فروج خاليه ضائعة.

وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين، فهداها سبحانه على بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مسطر ولا آلة، ولا مثال يحتذى عليه، وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكبيرة، فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها إلى قوتها وتأتيها ذللا، لا تستعصي عليها ولا تضل عنها، وأن تجتني أطيب ما في المرعى وألطفه، وأن تعود إلى بيوتها الخالية فتصب فيها شرابًا مختلفًا ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصًا تسيح سهلًا وجبلًا، فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار فترجع بطانًا، وجعل سبحانه في أفواهها حرارة منضجة تنضج ما جنته فتعيده حلاوة ونضجا، ثم تمجه في البيوت حتى إذا امتلأت ختمتها وسدت رؤوسها بالشمع المصفى، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته فاتخذت فيه بيوتًا، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى، فإذا برد الهوى

وأخلف المرعى وحيل بينها وبين الكسب لزمت بيوتها واغتذت بما ادخرته من العسل، وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة وتسيح في المراتع، وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل، فإذا أمست رجعت إلى بيوتها، وإذا كان وقت رجوعها وقف على باب الخلية بواب منها ومعها أعوان، فكل نحلة تريد الدخول يشمها البواب ويتفقدها، فإن وجد منها رائحة منكرة، أو رأى بها لطخة من قذر، منعها من الدخول، وعزلها ناحية إلى أن يدخل الجميع، فيرجع إلى المعزولات الممنوعات من الدخول فيتفقدهن ويكشف أحوالهن مرة ثانية، فمن وجده قد وقع على شيء منتن أو نجس قَدَّه نصفين، ومن كانت جنايته خفيفة تركه خارج الخلية، هذا دأب البواب كل عشية، وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادرا إذا اشتهى التنزه، فيخرج ومعه أمراء النحل والخدم، فيطوف في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار، ثم يعود إلى مكانه.

ومن عجيب أمره: أنه ربما لحقه أذى من النحل، أو من صاحب الخلية، أو من خدمه، فيغضب ويخرج من الخلية ويتباعد عنها، ويتبعه جميع النحل، وتبقى الخلية خالية. فإذا رأى صاحبها ذلك وخاف أن يأخذ النحل ويذهب بها إلى مكان آخر، احتال لاسترجاعه، وطلب رضاه، فيتعرف موضعه الذي صار إليه النحل فيعرفه باجتماع النحل إليه، فإنها لا تفارقه، وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقودًا، وهو إذا خرج غضبًا جلس على مكان مرتفع من الشجرة، وطافت به النحل، وانضمت إليه حتى يصير كالكرة، فيأخذ صاحب النحل رمحا أو قصبة طويلة، ويشد على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف، ويدنيه إلى محل الملك، ويكون معه إما مزهر أو يراع أو شيء من آلات الطرب فيحركه، وقد أدنى إليه ذلك الحشيش فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك، فإذا رضي وزال غضبه طفر ووقع على الضغث، وتبعه خدمه وسائر النحل، فيحمله صاحبه إلى الخلية فينزل ويدخلها هو وجنوده، ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام.

ومن عجيب أمرها: أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة ولا تدين لطاعتها، والنحل الصغار المجتمعة الخلق هي العسالة، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع، وإخراجها ونفيها عن الخلايا، وإذا فعلت ذلك جاد العسل. وتجتهد أن تقتل ما تريد قتله خارج الخلية صيانة للخلية عن جيفته.

ومنها صنف قليل النفع كبير الجسم، وبينها وبين العسالة حرب، فهي تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها وتقصد هلاكها، والعسالة شديدة التيقظ والتحفظ منها. فإذا هجمت عليها في بيوتها حاورتها وألجأتها إلى أبواب البيوت، فتتلطخ بالعسل، فلا تقدر على الطيران، ولا يفلت منها إلا كل طويل العمر، فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلى القتلى فحملتها وألقتها خارج الخلية.

وقد ذكرنا أن الملك لا يخرج إلا في الأحايين، وإذا خرج خرج في جموع من الفراخ والشبان، وإذا عزم على الخروج ظل قبل ذلك اليوم أو يومين يعلم الفراخ وينزلها منازلها ويرتبها، فيخرج ويخرجن معه على ترتيب ونظام قد دبره معهن لا يخرجن عنه، وإذا تولدت عنده ذكران عرف أنهن يتطلبن الملك، فيجعل كل واحد منهم على طائفة من الفراخ، ولا يقتل ملك منها ملكًا آخر لما في ذلك من فساد الرعية وهلاكها وتفرقها، وإذا رأى صاحب الخلية الملوك قد كثرت في الخلية وخاف من تفرق النحل بسببهم، احتال عليهم وأخذ الملوك كلها إلا واحدًا، ويحبس الباقي عنده في إناء، ويدع عندهم من العسل ما يكفيهم، حتى إذا حدث بالملك المنصوب حدث مرض أو موت، أو كان مفسدا فقتلته النحل، أخذ من هؤلاء المحبوسين واحدا وجعله مكانه، لئلا يبقى النحل بلا ملك فيتشتت أمرها.

ومن عجيب أمرها: أن الملك إذا خرج متنزها ومعه الأمراء والجنود، ربما لحقه إعياء فتحمله الفراخ، وفي النحل كرام عمال لها سعي وهمة واجتهاد، وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة، فالكرام دائما تطردها وتنفيها عن الخلية، ولا تساكنها خشية أن تُعْدِي كرامها وتفسدها.

والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه، ولذلك لا تُلقي زبلها إلا حين تطير، وتكره النتن والروائح الخبيثة، وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهادا من الكبار، وأقل لسعا وأجود عسلا، ولسعها إذا لسعت أقل ضررا من لسع الكبار.

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه، قد خصت من وحي الرب تعالى وهدايته لما لم يشركها فيه غيرها، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام، والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام، كان أكثر الحيوان أعداءها، وكان أعداؤها من أقل الحيوان منفعة وبركة، وهذه سنة اللَّه في خلقه،

وهو العزيز الحكيم»[١].

قلت: سبحان الخالق الذي لا نهاية لعلمه، ولا لقدرته، ولا لحكمته، ولا لفضله، فهذه الدراسة التي قام بها العلامة ابن القيم على جزئية صغيرة في الكون لا تكاد تخطر ببال كثير من الناس، ومع ذلك ففيها من الآيات ما يعجز عن تصورها أخص الناس، فالكون كله آيات، فهو تعبير عن ربوبيته -تبارك وتعالى-، وهذا مبلغ علم العلامة ابن القيم في هذه الجزئية، فربما كان غيره أكثر وأعلم بحال النحل، فيزداد بذلك المؤمن إيمانا، ويزداد بذلك الكافر عنادًا وخسرانًا، فالمؤمن يزيد إيمانه بالآيات الكونية، وبالمواعظ والذكرى الشرعية، فيقوم إيمانه على العقل والفطرة، وعلى الشرع والنبوة، ومن اكتفى بواحدة منها دون الأخرى تاه وضاع، فلا يثمر إيمان المؤمن إلا بشرع ونبوة، ولا يقوم إيمانه إلا على عقل وفطرة ومحبة تبعث فيه الامتثال، وتجعل الشرع أسوته وقدوته ونموذجه.

قال الخازن: «فإن قالوا: كيف يكون شفاء للناس، وهو يضر بأصحاب الصفراء ويهيج الحرارة ويضر بالشباب المحرورين ويعطش، قلنا: في الجواب عن هذا الاعتراض أيضًا: إن قوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ مع أنه يضر بأصحاب الصفراء، ويهيج الحرارة أنه خرج مخرج الأغلب، وأنه في الأغلب فيه شفاء، ولم يقل: إنه شفاء لكل الناس لكل داء، ولكنه في الجملة دواء، وأن نفعه أكثر من مضرته، وقل معجون من المعاجين إلا وتمامه به.

والأشربة المتخذة من العسل نافعة لأصحاب البلغم والشيوخ المبرودين، ومنافعه كثيرة جدًّا، والقول الثاني: أنه شفاء للأوجاع التي شفاؤها فيه وهذا قول السدي»[٢].

قال ابن عاشور: «وتنكير ﴿شِفَآءٌ﴾ في سياق الإثبات لا يقتضي العموم، فلا يقتضي أنه شفاء من كل داء»[٣].

---

(١) شفاء العليل (١/ ١٨٤-١٨٨).
(٢) تفسير الخازن (٣/ ١٢٥).
(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٠٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التدواي بالعسل والنهي عن قتل النحل

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يعجبه الحلوى والعسل»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «قال العلماء المراد بالحلواء هنا كل شيء حلو، وذكر العسل بعدها تنبيهًا على شرافته ومزيته، وهو من باب ذكر الخاصّ بعد العامّ، والحلواء بالمدّ، وفيه جواز أكل لذيذ الأطعمة والطيبات من الرزق، وأن ذلك لا ينافي الزهد والمراقبة لاسيما إذا حصل اتفاقًا»(٢).

قال ابن حجر: «قال الخطابي وتبعه ابن التين: لم يكن حبه ﷺ لها على معنى كثرة التشهي لها وشدة نزاع النفس إليها، وإنما كان ينال منها إذا أحضرت إليها نيلًا صالحًا فيعلم بذلك أنها تعجبه»(٣).

* عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن كان في شيء من أدويتكم -أو يكون في شيء من أدويتكم- خير ففي شرطة محجم أو شربة عسل أو لذعة بنار توافق الداء وما أحب أن أكتوي**»(٤).

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن**»(٥).

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٩)، والبخاري (١٠/ ١٧١/ ٥٦٨٢)، ومسلم (٢/ ١١٠١/ ١٤٧٤[٢١])، وأبو داود (٤/ ١٠٦/ ٣٧١٥)، والترمذي (٤/ ٢٤١/ ١٨٣١)، وابن ماجه (٢/ ١١٠٤/ ٣٣٢٣).

(٢) شرح مسلم (١٠/ ٦٦-٦٧).

(٣) فتح الباري (٩/ ٦٩٥-٦٩٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٤٣)، والبخاري (١٠/ ١٧١-١٧٢/ ٥٦٨٣)، ومسلم (٤/ ١٧٢٩/ ٢٢٠٥) من طرق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن جابر به، والنسائي في السنن الكبرى (٤/ ٣٧٦/ ٧٥٩٣).

(٥) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١١٤٢/ ٣٤٥٢) وقال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات»، والحاكم (٤/ ٢٠٠) وقال: «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقد أوقفه وكيع بن الجراح عن سفيان» ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (٢/ ٥١٩/ ٢٥٨١) من طريق علي بن سلمة النيسابوري حدثنا زيد بن الحباب حدثنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله مرفوعًا.
وأخرجه موقوفًا: الحاكم (٤/ ٢٠٠)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦/ ٣٠٠١٩). قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢١٠): «ورجاله رجال الصحيح». وقال البيهقي في الشعب (٢/ ٥١٩/ ٢٥٨١): «رفعه زيد بن الحباب والصحيح موقوف على ابن مسعود».

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي»**[(١)].

* عن معاوية بن خديج رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن كان في شيء شفاء ففي شرطة من محجم، أو شربة من عسل، أو كية بنار تصيب الداء، وما أحب أن أكتوي»**[(٢)].

★ فوائد الأحاديث:

قال النووي: «هذا من بديع الطب عند أهله؛ لأن الأمراض الامتلائية دموية أو صفراوية أو سوداوية أو بلغمية، فإن كانت دموية فشفاؤها إخراج الدم، وإن كانت الثلاثة الباقية فشفاؤها بالإسهال بالمسهل اللائق لكل خلط منها، فكأنه نبه ﷺ بالعسل على المسهلات، وبالحجامة على إخراج الدم بها، وبالفصد ووضع العلق وغيرها مما في معناها، وذكر الكي لأنه يستعمل عند عدم نفع الأدوية المشروبة ونحوها»[(٣)].

قال ابن القيم: «ولا ريب أن كونه شفاء، وكون القرآن شفاء، والصلاة شفاء، وذكر اللَّه والإقبال عليه شفاء، أمر لا يعم الطبائع والأنفس، فهذا كتاب اللَّه هو الشفاء النافع، وهو أعظم الشفاء، وما أقل المستشفين به، بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداءة، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا، وكذلك ذكر اللَّه والإقبال عليه، والإنابة إليه، والفزع إلى الصلاة، كم قد شفي به من عليل، وكم قد عوفي به من مريض، وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريبا من مبلغه في الشفاء، وأنت ترى كثيرا من الناس، بل أكثرهم لا نصيب لهم من الشفاء بذلك إليه أصلًا، ولقد رأيت في بعض كتب الأطباء المسلمين في ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة، ذكرها في باب الصاد، وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوها عديدة، ومن

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٥-٢٤٦)، والبخاري (١٠/ ١٦٨/ ٥٦٨١)، وابن ماجه (٢/ ١١٥٥/ ٣٤٩١).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٠١)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٨/ ٧٦٠٣)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٤٣٠/ ١٠٤٤) وفي الأوسط (١٠/ ١٥٧/ ٩٣٣٣). قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٩١): «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح خلا سويد بن قيس وهو ثقة».

(٣) شرح مسلم (١٤/ ١٦١).

منافعها في الروح والقلب. وسمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول وقد عرض له بعض الألم فقال له الطبيب: أضر ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه، والتوجه، والذكر، فقال: ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تُعين بها الطبيعة على دفع العارض، فإنه عدوها، فإذا قويت عليه قهرته. فقال له الطبيب: بلى، فقال: إذا اشتَغَلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم، وظفرت بما يشكل عليها منه، فَرِحَت به وقَوِيت، فأوجب ذلك دفع العارض. هذا أو نحوه من الكلام. والمقصود: أن ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجه عن كونه شفاء، كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجه عن كونه شفاء لها وهو شفاء لما في الصدور، وإن لم يستشف به أكثر المرضى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] فعم بالموعظة والشفاء، وخص بالهدى والمعرفة، فهو نفسه شفاء استشفى به أو لم يستشف به، ولم يصف اللَّه في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل، فهما الشفاءان، هذا شفاء القلوب من أمراض غيها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها، وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها، ولقد أصابني أيام مقامي بمكة أسقام مختلفة، ولا طبيب هناك، ولا أدوية، كما في غيرها من المدن، فكنت أستشفي بالعسل وماء زمزم، ورأيت فيهما من الشفاء أمرا عجيبا. وتأمل إخباره ﷺ عن القرآن بأنه نفسه شفاء، وقال عن العسل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل فيه شفاء، وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه»[٢].

وقال أيضا: «والعسل فيه منافع عظيمة؛ فإنه جلاء للأوساخ التي في العروق والأمعاء وغيرها، محلِّل للرطوبات أكلًا وطلاء، نافع للمشايخ وأصحاب البلغم ومن كان مزاجه باردًا رطبا، وهو مغذّ ملين للطبيعة، حافظ لقوى المعاجين، ولِما استودع فيه مذهب لكيفيات الأدوية الكريهة، مُنقّ للكبد والصدر، مدرّ للبول، موافق للسعال الكائن عن البلغم، وإذا شرب حارا بدهن الورد نفع من نهش الهوام

---

(١) يونس: الآية (٥٧).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٧٠-١٧١).

وشرب الأفيون[١]، وإن شرب وحده ممزوجًا بماء نفع من عضة الكلب الكلِب، وأكل الفُطُر[٢] القتال، وإذا جعل فيه اللحم الطري حفظ طراوته ثلاثة أشهر، وكذلك إن جعل فيه القثاء والخيار والقرع والباذنجان، ويحفظ كثيرا من الفاكهة ستة أشهر، ويحفظ جثة الموتى، ويسمى الحافظ الأمين، وإذا لطخ به البدن المقمِل والشعر قَتل قمله وصئبانه، وطوّل الشعر وحسنه ونعّمه، وإن اكتُحل به جلا ظلمة البصر، وإن استن به بيض الأسنان وصقلها، وحفظ صحتها وصحة اللثة، ويفتح أفواه العروق، ويدرّ الطمث، ولعقه على الريق يذهب البلغم، ويغسل خمل المعدة، ويدفع الفضلات عنها، ويسخنها تسخينا معتدلا، ويفتح سددها، ويفعل ذلك بالكبد والكلى والمثانة، وهو أقل ضررا لسدد الكبد والطحال من كل حلو.

وهو مع هذا كله مأمون الغائلة، قليل المضار، مُضر بالعرض للصفراويين، ودفعها بالخَل ونحوه، فيعود حينئذ نافعا له جدا.

وهو غذاء مع الأغذية، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة، وحلو مع الحلوى، وطلاء مع الأطلية، ومفرح مع المفرحات، فما خُلق لنا شيء في معناه أفضل منه ولا مثله ولا قريبًا منه، ولم يكن معوّل القدماء إلا عليه، وأكثر كتب القدماء لا ذكر فيها للسكر البتة ولا يعرفونه؛ فإنه حديث العهد حدث قريبًا»[٣].

* عن أبي سعيد ﷺ: «أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: اسقه عسلًا. ثم أتاه الثانية فقال: اسقه عسلًا، ثم أتاه الثالثة فقال: اسقه عسلًا، ثم أتاه فقال: فعلت، فقال: صدق اللّه وكذب بطن أخيك، اسقه عسلًا، فسقاه فبرأ»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله: «**وكذب بطن أخيك**» إشارة إلى أن هذا الدواء نافع، وأن

---

(١) هو لبن الخشخاش وهو مخدر. (٢) نوع من الكمأة قتال.

(٣) زاد المعاد (٤/ ٣٣-٣٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩)، والبخاري (١٠/ ١٧٢/ ٥٦٨٤)، ومسلم (٤/ ١٧٣٦-١٧٣٧/ ٢٢١٧)، والترمذي (٤/ ٣٥٦-٣٥٧/ ٢٠٨٢)، والنسائي في الكبرى (٤/ ١٦٣-١٦٤/ ٦٧٠٦).

بقاء الداء ليس لقصور الدواء في نفسه ولكن لكثرة المادة الفاسدة، فمن ثم أمره بمعاودة شرب العسل لاستفراغها، فكان كذلك، وبرأ بإذن الله»(١).

وقال: «قال الخطابي وغيره: أهل الحجاز يطلقون الكذب في موضع الخطأ، يقال «**كذب سمعك**» أي: زلّ فلم يدرك حقيقة ما قيل له، فمعنى «**كذب بطنه**» أي: لم يصلح لقبول الشفاء بل زلّ عنه»(٢).

وقال ابن كثير: «قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلًا -وهو حارّ- تحللت فأسرعت في الاندفاع، فزاد إسهاله؛ فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره، وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام، ببركة إشارته -عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام-»(٣).

وقال ابن القيم: «فهذا الذي وصف له النبي ﷺ العسل؛ كان استطلاق بطنه عن تخمة أصابته عن امتلاء، فأمره بشرب العسل لدفع الفضول المجتمعة في نواحي المعدة والأمعاء؛ فإن العسل فيه جلاء ودفع للفضول، وكان قد أصاب المعدة أخلاط لزجة تمنع استقرار الغذاء فيها للزوجتها؛ فإن المعدة لها خمل كخمل القطيفة، فإذا علقت بها الأخلاط اللزجة أفسدتها وأفسدت الغذاء، فدواؤها بما يجلوها من تلك الأخلاط، والعسل جلاء، والعسل من أحسن ما عولج به هذا الداء، لا سيما إن مزج بالماء الحار، وفي تكرار سقيه العسل معنىً طبي بديع، وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية بحسب حال الداء، إن قصر عنه؛ لم يزله بالكلية، وإن جاوزه؛ أوهى القوى، فأحدث ضررًا آخر، فلما أمره أن يسقيه العسل، سقاه مقدارًا لا يفي بمقاومة الداء، ولا يبلغ الغرض، فلما أخبره، علم أن الذي سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة، فلما تكرّر تردداه إلى النبي ﷺ، أكّد عليه المعاودة ليصل إلى المقدار المقاوم للداء، فلما تكرّرت الشربات بحسب مادة

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٠٩).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٨٣).

الداء، برأ بإذن اللَّه، واعتبار مقادير الأدوية أو كيفياتها ومقدار قوة المرض والمريض؛ من أكبر قواعد الطب»[1].

قال الخازن: «قد اعترض بعض الملحدين، ومن في قلبه مرض على هذا الحديث. فقال: إن الأطباء مجمعون على أن العسل مسهل، فكيف يوصف لمن به الإسهال؟ فنقول في الرد على هذا المعترض الملحد الجاهل بعلم الطب أن الإسهال يحصل من أنواع كثيرة منها التخم، والهيضات، وقد أجمع الأطباء في مثل هذا على أن علاجه بأن تترك الطبيعة وفعلها، فإن احتاجت إلى معين على الإسهال أعينت ما دامت القوة باقية، فأما حبسها فمضر عندهم، واستعجال مرض، فيحتمل أن يكون إسهال الشخص المذكور في الحديث أصابه من امتلاء أو هيضة، فدواؤه بترك إسهاله على ما هو عليه أو تقويته، فأمره رسول اللَّه ﷺ بشرب العسل فزاده إسهالًا فزاده عسلًا إلى أن فنيت المادة فوقف الإسهال، و يكون الخلط الذي كان به يوافقه شرب العسل، فثبت بما ذكرناه أن أمره ﷺ لهذا الرجل بشرب العسل جار على صناعة الطب، وأن المعترض عليه جاهل لها، ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث بقول الأطباء: بل لو كذبوه لكذبناهم وكفرناهم بذلك وإنما ذكرنا هذا الجواب الجاري على صناعة الطب، دفعًا لهذا المعترض بأنه لا يحسن صناعة الطب التي اعترض بها واللَّه أعلم. وقوله ﷺ: **«صدق اللَّه وكذب بطن أخيك»** يحتمل أنه ﷺ، علم بالوحي الإلهي أن العسل، الذي أمره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك، فلما لم يظهر نفعه في الحال عندهم قال: **«صدق الله»** يعني فيما وعد به من أن فيه شفاء، **«وكذب بطن أخيك»** يعني باستعجالك للشفاء في أول مرة واللَّه أعلم بمراده، وأسرارِ رسوله ﷺ»[2].

* عن أبي أُبَيّ بن أم حرام -وكان قد صلى مع رسول اللَّه ﷺ القبلتين- قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«عليكم بالسَّنى والسَّنّوت، فإن فيهما شفاءً من كل داء إلا السّام. قيل: يا رسول اللَّه، وما السام؟ قال: الموت»**.

قال عمرو: قال ابن أبي عبلة: السّنّوت: الشِّبِتُّ. وقال آخرون: بل هو العسل

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٥).

(٢) تفسير الخازن (٣/ ١٢٤-١٢٥).

الذي يكون في رقاق السمن. وهو قول الشاعر:

هُمُ السمنُ بالسّنّوت لا أَلْسَ فيهم وهم يمعنون جارَهم أن يقَرَّدا[١].

★ فوائد الحديث:

السنا: فيه لغتان: المد والقصر، وهو نبت حجازي أفضله المكي، وهو دواء شريف مأمون الغائلة، قريب من الاعتدال[٢].

السَّنُّوت: قال ابن القيم: «فيه ثمانية أقوال: أحدها: أنه العسل. الثاني: أنه رُبُّ عكة السمن يخرج خططًا سوداء على السمن... الثامن: أنه العسل الذي يكون في زقاق السمن، قال بعض الأطباء: وهذا أجدر بالمعنى، وأقرب إلى الصواب؛ أي: يخلط السناء مدقوقًا بالعسل المخالط للسمن، ثم يلعق فيكون أصلح من استعماله مفردًا لما في العسل والسمن من إصلاح السنا، وإعانته له على الإسهال. واللَّه أعلم»[٣].

* عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «إن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّرَد»[٤].

★ غريب الحديث:

الصُّرَد: بضم الصاد المهملة وفتح الراء وبعدها دال مهملة: طائر ضخم الرأس

---

(١) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١١٤٤/ ٣٤٥٧)، والحاكم (٤/ ٢٠١) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ورده الذهبي بقوله: «عمرو بن بكر اتهمه ابن حبان وقال ابن عدي: له مناكير».
قال في الزوائد: «في إسناده عمرو بن بكر السكسكي قال فيه ابن حبان: روى عن إبراهيم بن أبي عبلة الأوابد والطامات، لا يحل الاحتجاج به، لكن قال الحاكم: إنه إسناد صحيح».
قال الشيخ ناصر في السلسلة الصحيحة (٤/ ٤٠٨): «لكن للحديث شواهد بمعناه يتقوى بها: الأول: عن أم سلمة عند الطبراني (٢٣/ ٣٩٨-٣٩٩/ ٩٥٢). قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٩٠): رواه الطبراني من طريق رَكيح بن أبي عبيدة عن أبيه عن أمه ولم أعرفهم. والثاني: عن أسماء بنت عميس، عند الترمذي (٤/ ٣٥٦/ ٢٠٨١)، وابن ماجه (٢/ ١١٤٥/ ٣٤٦١) وقال الترمذي: حسن غريب. والثالث: عن أنس عند النسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٣/ ٧٥٧٧)».
(٢) أفاده ابن القيم في «زاد المعاد» (٤/ ٧٥).
(٣) زاد المعاد (٤/ ٧٥-٧٦).
(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٣٢، ٣٤٧)، وأبو داود (٥/ ٤١٨-٤١٩/ ٥٢٦٧)، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٤/ ٣٢٢٤)، وصححه ابن حبان (١٢/ ٤٦٢/ ٥٦٤٦).

والمنقار له ريش عظيم نصفه أبيض ونصفه أسود.

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «يقال: إن النهي إنما جاء في قتل النمل في نوع منه خاصّ، وهو الكبار منها، ذوات الأرجل الطوال وذلك: أنها قليلة الأذى والضرر.

ونهى عن قتل النحلة لما فيها من المنفعة. فأما الهدهد والصرد فنهيه في قتلها يدلّ على تحريم لحومها.

وذلك أن الحيوان إذا نهى عن قتله، ولم يكن ذلك لحرمته، ولا لضرر فيه، كان ذلك لتحريم لحمه. ألا ترى أن رسول اللّه ﷺ قد نهى عن ذبح الحيوان إلا لمأكلة ويقال: إن الهدهد منتن اللحم، فصار في معنى الجلاّلة المنهي عنها.

وأما الصُّرَد فإن العرب تتشاءم به، وتتطير بصوته وشخصه»[1].

* * *

(١) معالم السنن (٤/ ١٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٧٠﴾

★ غريب الآية:

أرذل: أخس وأَرْدَؤُهُ. والرَّذْلُ والرَّذَالُ: الشيء المرغوب عنه لِرَدَاءَتِهِ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «انتقال من الاستدلال بدقائق صنع اللَّه على وحدانيته إلى الاستدلال بتصرّفه في الخلق التصرّفَ الغالب لهم الذي لا يستطيعون دفعهُ، على انفراده بربوبيّتهم، وعلى عظيم قدرته. كما دلّ عليه تذييلها بجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فهو خَلقهم بدون اختيار منهم، ثم يتوفّاهم كَرهًا عليهم، أو يردّهم إلى حالة يكرهونها فلا يستطيعون ردًّا لذلك ولا خلاصًا منه، وبذلك يتحقّق معنى العبودية بأوضح مظهر»[1].

قال الخازن: «قوله ﷻ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ يعني أوجدكم من العدم وأخرجكم إلى الوجود ولم تكونوا شيئًا ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ يعني عند انقضاء آجالكم إما صبيانًا وإما شبانًا وإما كهولًا ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ يعني أرأده وأضعفه وهو الهرم قال بعض العلماء: عمر الإنسان له أربع مراتب أولها من النشوء والنماء، وهو من أول العمر إلى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة، وهو غاية سن الشاب وبلوغ الأشد، ثم المرتبة الثانية: سن الوقوف، وهو من ثلاث وثلاثين سنة إلى أربعين سنة، وهو غاية القوة وكمال العقل، ثم المرتبة الثالثة: سن الكهولة، وهو من الأربعين إلى الستين، وهذه المرتبة يشرع الإنسان في النقص لكنه يكون نقصًا خفيًا لا يظهر، ثم المرتبة الرابعة: سن الشيخوخة والانحطاط من الستين إلى آخر العمر، وفيها يتبين النقص، ويكون الهرم والخرف»[2].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢١١).

(٢) تفسير الخازن (٣/ ١٢٥).

قال الشنقيطي: «قال بعض العلماء: إن العلماء العاملين لا ينالهم هذا الخرف، وضياع العلم والعقل من شدة الكبر. ويستروح لهذا المعنى من بعض التفسيرات في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1] الآية»[2].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ يقول: إنما نردّه إلى أرذل العمر ليعود جاهلًا كما كان في حال طفولته وصباه، ﴿بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾: يقول: لئلا يعلم شيئًا بعد علم كان يعلمه في شبابه، فذهب ذلك بالكبر ونسي، فلا يعلم منه شيئًا، وانسلخ من عقله، فصار من بعد عقل كان له لا يعقل شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ يقول: إن الله لا ينسى، ولا يتغير علمه، عليم بكلّ ما كان ويكون، قدير على ما شاء لا يجهل شيئًا، ولا يُعجزه شيء أراده»[3].

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن من الناس من يموت قبل بلوغ أرذل العمر، ومنهم من يعمر حتى يرد إلى أرذل العمر. وأرذل العمر آخره الذي تفسد فيه الحواس، ويختل فيه النطق والفكر، وخص بالرذيلة لأنه حال لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد. بخلاف حال الطفولة، فإنها حالة ينتقل منها إلى القوة وإدراك الأشياء. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله في سورة الحج: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[4]، وقوله في الروم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[5] الآية. وأشار إلى ذلك أيضًا بقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾[6]، وقوله في سورة المؤمن: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[7]»[8].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في تعوذ العبد من أن يرد إلى أرذل العمر

* عن سعد بن أبي وقاص ﷺ كان يأمر بهؤلاء الخمس ويحدثهن عن النبي ﷺ:

---

(١) التين: الآيتان (٥-٦).
(٢) أضواء البيان (٣/ ٢٨٧).
(٣) جامع البيان (١٤/ ١٤٢).
(٤) الحج: الآية (٥).
(٥) الروم: الآية (٥٤).
(٦) فاطر: الآية (١١).
(٧) غافر: الآية (٦٧).
(٨) أضواء البيان (٣/ ٢٨٥-٢٨٦).

«اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر»(١).

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه كان رسول اللّه ﷺ يقول: **«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات»**(٢).

★ **فوائد الحديثين:**

قال القاضي عياض: «واستعاذته من الهرم وأن يرد إلى أرذل العمر لما فيه من الخوف واختلال الحواس والعقل وعدم العلم وتشويه المنظر والعجز عن أداء الطاعات، وربما أدّى ذلك إلى التساهل فيها ويعذر نفسه بتركها»(٣).

قال القرطبي: «العجز المتعوَّذ منه: هو عدم القدرة على تلك الأمور. والهرم المتعوَّذ منه: هو المعبَّر عنه في الحديث الآخر بـ**«أرذل العمر»**، وهو ضعف القوى، واختلال الحواس والعقل الذي يعود الكبير بسببه إلى أسوأ من حال الصغير، وهو الذي قال اللّه تعالى فيه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾(٤)»(٥).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٨٣)، والبخاري (١١/ ٢١٣/ ٦٣٧٠)، والترمذي (٥/ ٥٢٥/ ٣٥٦٧) والنسائي (٨/ ٦٤٨/ ٥٤٦٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٣) والبخاري (٨/ ٤٩٤/ ٤٧٠٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٠/ ٢٧٠٦)، وأبو داود (٢/ ١٨٩/ ١٥٤٠) والنسائي (٨/ ٦٤٩/ ٥٤٦٣).

(٣) إكمال المعلم (٨/ ٢٠٣).

(٤) يس: الآية (٦٨).

(٥) المفهم (٧/ ٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ يعني: أن اللَّه ﷻ بسط على واحد وضيق وقتر على واحد، وكثر لواحد وقلل على آخر، وكما فضل بعضكم على بعض في الرزق، كذلك فضل بعضكم على بعض في الخَلق والخُلق والعقل والصحة والسقم والحسن والقبح والعلم والجهل وغير ذلك؛ فهم متفاوتون ومتباينون في ذلك كله، وهذا مما اقتضته الحكمة الإلهية والقدرة الربانية ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ يعني من العبيد حتى يستووا فيه هم وعبيدهم، يقول اللَّه ﷻ: هم لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقتهم سواء، وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني. يُلزم بهذه الحجة المشركين حيث جعلوا الأصنام شركاء لله، قال قتادة: هذا مثل ضربه اللَّه ﷻ، يقول: هل منكم أحد يرضى أن يشركه مملوكه في جميع ماله فكيف تعدلون باللَّه خلقه وعباده.

وقيل: في معنى الآية أن الموالي والمماليك اللَّه رازقهم جميعًا ﴿فَهُمْ فِيهِ﴾ يعني في رزقه ﴿سَوَآءٌ﴾ فلا تحسبن أن الموالي يردون رزقهم على مماليكهم من عند أنفسهم، بل ذلك رزق اللَّه أجراه على أيدي الموالي للمماليك، والمقصود منه بيان أن الرازق هو اللَّه ﷻ لجميع خلقه، وأن الموالي والمماليك في الرزق سواء، وأن المالك لا يرزق المملوك، بل الرازق للمماليك والمالك هو اللَّه ﷻ. وقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فيه إنكار على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره»[1].

---

(١) تفسير الخازن (٣/ ١٢٥-١٢٦).

قال ابن عاشور: «هذا من الاستدلال على أن التّصرف القاهر لله تعالى. وذلك أنه أعقب الاستدلال بالإحياء والإماتة وما بينهما من هرم بالاستدلال بالرّزق.

ولما كان الرّزق حاصلًا لكل موجود بُني الاستدلال على التّفاوت فيه بخلاف الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾[1].

ووجه الاستدلال به على التصرّف القاهر أن الرزق حاصل لِجميع الخلق، وأن تفاضل الناس فيه غير جار على رغباتهم ولا على استحقاقهم؛ فقد تجد أكيس الناس وأجودهم عقلًا وفهمًا مقتّرًا عليه في الرزق، وبضدّه ترى أجهل الناس وأقلّهم تدبيرًا موسّعًا عليه في الرزق، وكلا الرجلين قد حصل له ما حصل قهرًا عليه، فالمقتّر عليه لا يدري أسباب التّقتير، والموسّع عليه لا يدري أسباب تيسير رزقه، ذلك لأن الأسباب كثيرة متوالدة ومتسلسلة ومتوغّلة في الخفاء؛ حتى يُظن أن أسباب الأمرين مفقودة وما هي بمفقودة، ولكنها غير محاط بها. ومما ينسب إلى الشافعي:

ومن الدّليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ولذلك أسند التفضيل في الرزق إلى اللّه تعالى لأن أسبابه خارجة عن إحاطة عقول البشر، والحكيم لا يستفزّه ذلك بعكس قول ابن الراوندي:

كم عاقل عاقل أعيَت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصيّر العالِم النّحرير زنديقا

وهذا الحكم دلّ على ضعف قائله في حقيقة العلم فكيف بالنّحريرية.

وتفيد وراء الاستدلال معنى الامتنان لاقتضائها حصول الرزق للجميع»[2].

قال الشنقيطي: «أظهر التفسيرات في هذه الآية الكريمة: أن اللّه ضرب فيها مثلًا للكفار، بأنه فضل بعض الناس على بعض في الرزق، ومن ذلك تفضيله المالكين على المملوكين في الرزق، وأن المالكين لا يرضون لأنفسهم أن يكون المملوكون شركاءهم فيما رزقهم اللّه من الأموال والنساء وجميع نعم اللّه. ومع

---

(١) النحل: الآية (٧٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢١٣-٢١٤).

هذا يجعلون الأصنام شركاء لله في حقه على خلقه الذي هو إخلاص العبادة له وحده؛ أي: إذا كنتم لا ترضون بإشراك عبيدكم معكم في أموالكم ونسائكم، فكيف تشركون عبيدي معي في سلطاني!.

ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[1] الآية. ويؤيده أن «ما» في قوله: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ نافية. أي ليسوا برادي رزقهم عليهم حتى يسووهم مع أنفسهم اهـ.

فإذا كانوا يكرهون هذا لأنفسهم، فكيف يشركون الأوثان مع الله في عبادته! مع اعترافهم بأنها ملكه، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

وهذه الآية الكريمة نص صريح في إبطال مذهب الاشتراكية القائل: بأنه لا يكون أحد أفضل من أحد في الرزق، ولله في تفضيل بعضهم على بعض في الرزق حكمة؛ قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[2] الآية، وقال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾[3]، وقال: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «هاجر إبراهيم ﷺ بسارة فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك -أو جبار من الجبابرة. فقيل: دخل إبراهيم بامرأة من أحسن الناس فأرسل إليه أن يا إبراهيم من هذه التي معك؟ قال: أختي ثم رجع إليها فقال: لا تكذبي حديثي فإني أخبرتهم أنك أختي والله إن على الأرض من مؤمن

(١) الروم: الآية (٢٨).
(٢) الزخرف: الآية (٣٢).
(٣) الرعد: الآية (٢٦).
(٤) البقرة: الآية (٢٣٦).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٢٨٧-٢٨٨).

غيري وغيرك، **فأرسل بها إليه فقام إليها فقامت توضأ وتصلي فقالت: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر، فغط حتى ركض برجله**، قال الأعرج: قال أبو سلمة بن عبدالرحمن: إن أبا هريرة قال: **قالت: اللهم إن يمت يقال هي قتلته فأرسل ثم قام إليها فقامت توضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي هذا الكافر فغط، حتى ركض برجله**. قال عبدالرحمن: قال أبو سلمة: قال أبو هريرة: **فقالت: اللهم إن يمت فيقال هي قتلته، فأرسل في الثانية أو في الثالثة، فقال: والله ما أرسلتم إلي إلا شيطانًا أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر، فرجعت إلى إبراهيم ﷺ فقالت: أشعرت أن الله كبت الكافر وأخدم وليدة**»[1].

* عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «اختصم سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في غلام، فقال سعد: هذا يا رسول الله ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عهد إلي أنه ابنه، انظر إلى شبهه، وقال عبد بن زمعة: هذا أخي يا رسول الله ولد على فراش أبي من وليدته. فنظر رسول الله ﷺ إلى شبهه فرأى شبهًا بينًا بعتبة فقال: **هو لك يا عبد، الولد للفراش وللعاهر الحجر، واحتجبي منه يا سودة بنت زمعة، فلم تره سودة قط**»[2].

* عن عروة بن الزبير: «أن حكيم بن حزام أخبره أنه قال: يا رسول الله أرأيت أمورًا كنت أتحنث -أو أتحنت- بها في الجاهلية من صلة وعتاقة وصدقة هل لي فيها أجر؟ قال حكيم رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **أسلمت على ما سلف لك من خير**»[3].

* عن سعد عن أبيه قال عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه لصهيب: اتق الله ولا تدّع

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٣-٤٠٤)، والبخاري (٤/ ٥١٦-٥١٧/ ٢٢١٧)، ومسلم (٤/ ١٨٤٠و١٨٤١/ ٢٣٧١)، وأبو داود (٢/ ٦٥٩-٦٦٠/ ٢٢١٢)، والترمذي (٥/ ٣٠٠-٣٠١/ ٣١٦٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٧-٩٨/ ٨٣٧٣-٨٣٧٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٧-٢٤٦-٢٤٧)، والبخاري (٤/ ٥١٧/ ٢٢١٨)، ومسلم (٢/ ١٠٨٠/ ١٤٥٧)، وأبو داود (٢/ ٧٠٣/ ٢٢٧٣)، والنسائي (٦/ ٤٩١-٤٩٣/ ٣٤٨٤-٣٤٨٧)، وابن ماجه (١/ ٦٤٦/ ٢٠٠٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٠٢-٤٣٤)، والبخاري (٤/ ٥١٧/ ٢٢٢٠)، ومسلم (١/ ١١٣/ ١٢٣).

إلى غير أبيك. فقال صهيب: ما يسرني أنّ لي كذا وكذا وأني قلتُ ذلك، ولكني سُرقت وأنا صبي[١].

★ **غريب الأحاديث:**

فغط: الغط: العصر الشديد والكبس.

ركد: الركود: السكون والثبات.

كبت الكافر: صرعه وخيبه.

وليدة: تطلق على الجارية والأمة وإن كانت كبيرة.

العاهر: الزاني. وقد عهر: إذا أتى المرأة ليلًا للفجور بها، ثم غلب على الزنا مطلقًا.

أتحنث: أتقرّب إلى اللّٰه.

★ **فوائد الأحاديث:**

بوّب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الأحاديث بقوله: «باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه»، وأورد قول اللّٰه تعالى: . . . ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ الآية.

قال العيني: «مطابقة هذه الآية الكريمة للترجمة في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾. والخطاب فيه للمشركين فأثبت لهم ملك اليمين مع كون ملكهم غالبًا على غير الأوضاع الشرعية. وقيل: مقصوده صحة ملك الحربي وملك المسلم عنه. قلت: إذا صح ملكهم يصح تصرفهم فيه بالبيع والشراء والهبة والعتق ونحوها، وقال ابن التين: معناه أن اللّٰه فضل الملاك على مماليكهم، فجعل المملوك لا يقوى على ملك مولاه، واعلم أن المالك لا يشرك مملوكه فيما عنده، وهما من بني آدم، فكيف تجعلون بعض الرزق الذي يرزقكم اللّٰه لله، وبعضه لأصنامكم فتشركون بين اللّٰه وبين الأصنام وأنتم لا ترضون ذاك مع عبيدكم لأنفسكم؟»[٢].

---

(١) البخاري (٤/ ٢٢١٩).

(٢) عمدة القاري (١٠/ ٥٣٤).

وقال ابن بطال: «غرض البخاري في هذا الباب -والله أعلم- إثبات ملك الحربي والمشرك، وجواز تصرفه في ملكه بالبيع والهبة والعتق، وجميع ضروب التصرف؛ إذ قد أقر النبي ﷺ سلمان عند مالكه من الكفار، فلم يُزل ملكه عنه، وأمره أن يكاتب، وقد كان حرًا وأنهم ظلموه وباعوه، ولم ينقض ذلك ملك مالكه، وكذلك كان أمر عمار وصهيب وبلال، باعهم مالكوهم الكفار من المسلمين، واستحقوا أثمانهم وصارت ملكًا لهم، ألا ترى أن إبراهيم ﷺ قبل هبة الملك الكافر، وأن عبد بن زمعة قال للنبي: هذا ابن أمة أبي ولد على فراشه؛ فأثبت لأبيه أمة وملكًا عليها في الجاهلية، فلم ينكر ذلك النبي ﷺ وسماعه الخصام في ذلك دليل على تنفيذ عهد المشرك، والحكم له إن تحوكم فيه إلى المسلمين، وكذلك جوّز ﷺ عتق حكيم بن حزام وصدقته في الجاهلية، ومعنى قوله تعالى: . . ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ﴾ الآية، فالآية تضمنت التقريع للمشركين والتوبيخ لهم على تسويتهم عبادة الأصنام بعبادة الله، فنبههم الله أن مماليكهم غير مساوين لهم في أموالهم، فالله تعالى أولى بإفراد العبادة وألا يشرك معه أحد من عبيده، إذ لا ملك على الحقيقة، ولا مستحق للإلهية غيره ﷻ»[1].

* * *

(١) شرح ابن بطال (٦/ ٣٤١-٣٤٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حفدة: الحفدة: جمع حافد. وهو الخادم المسرع في الخدمة. وقيل: الأسباط أي أولاد الأولاد. من حَفَدَ يَحْفِدُ إذا أسرع. ومنه قيل للأعوان حفدة لإسراعه في الخدمة. قال الشاعر:

فَلَوْ أَنَّ نفسي طَاوَعَتْنِي لأصْبَحَتْ لَهَا حَفَدٌ مِمَّا يُعَدُّ كَثِيرُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- ﴿وَٱللَّهُ﴾ الذي ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني أنه خلق من آدم زوجته حوّاء، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾..

واختلف أهل التأويل في المعنيين بالحفدة، فقال بعضهم: هم الأختان، أختان الرجل على بناته.. وقال آخرون: هم أعوان الرجل وخدمه..

وقال آخرون: هم ولد الرجل وولد ولده..

وقال آخرون: هم بنو امرأة الرجل من غيره..

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن اللّه تعالى أخبر عباده معرفهم نعمه عليهم، فيما جعل لهم من الأزواج والبنين، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ فأعلمهم أنه جعل لهم من أزواجهم بنين وحفَدة..

وإذ كان معنى الحفدة ما ذكرنا من أنهم المسرعون في خدمة الرجل، المتخففون فيها، وكان اللّه -تعالى ذكره- أخبرنا أن مما أنعم به علينا أن جعل لنا حفدة تحفد

لنا، وكان أولادنا وأزواجنا الذين يصلحون للخدمة منا ومن غيرنا وأختاننا الذين هم أزواج بناتنا من أزواجنا وخدمنا من مماليكنا إذا كانوا يحفدوننا، فيستحقون اسم حفدة، ولم يكن اللَّه تعالى دلّ بظاهر تنزيله، ولا على لسان رسوله ﷺ؛ ولا بحجة عقل، على أنه عنى بذلك نوعا من الحفدة، دون نوع منهم، وكان قد أنعم بكلّ ذلك علينا، لم يكن لنا أن نوجه ذلك إلى خاص من الحفدة دون عام، إلا ما اجتمعت الأمة عليه أنه غير داخل فيهم. وإذا كان ذلك كذلك فلكلّ الأقوال التي ذكرنا عمن ذكرنا وجه في الصحة، ومَخْرج في التأويل. وإن كان أولى بالصواب من القول ما اخترنا، لما بيّنا من الدليل.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يقول: ورزقكم من حلال المعاش والأرزاق والأقوات، ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: يحرّم عليهم أولياء الشيطان من البحائر والسوائب والوصائل، فيصدّق هؤلاء المشركون باللَّه ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يقول: وبما أحلّ اللَّه لهم من ذلك، وأنعم عليهم بإحلاله، يكفرون، يقول: ينكرون تحليله، ويجحدون أن يكون اللَّه أحله»[(١)].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه امتن على بني آدم أعظم مِنَّة بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجًا من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكورًا وإناثًا، وجعل الإناث أزواجًا للذكور، وهذا من أعظم المنن، كما أنه من أعظم الآيات الدالة على أنه -جل وعلا- هو المستحق أن يعبد وحده.

وأوضح في غير هذا الموضع: أن هذه نعمة عظيمة، وأنها من آياته -جل وعلا-؛ كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(٢)] وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[(٤)] الآية»[(٥)].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٤٣-١٤٧).
(٢) الروم: الآية (٢١).
(٣) القيامة: الآيات (٣٦-٣٩).
(٤) الأعراف: الآية (١٨٩).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٢٨٨-٢٨٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن النعم جزاؤها الشكر وحسن العبادة والاستقامة على أمر الله

* عن أبي هريرة قال: «قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة، ليست في سحابة؟ قالوا: لا. قال: فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابة؟ قالوا: لا. قال: فوالذي نفسي بيده! لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، قال: فيلقى العبد فيقول: أي فلان! ألم أكرمك وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس، وتربع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل! ألم أكرمك، وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى أي رب! فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول: يا رب! آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا إذا.

قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه.

وذلك المنافق وذلك الذي يسخط اللَّه عليه»[1].

★ **فوائد الحديث:**

وجه مطابقة الحديث للآية امتنان اللَّه ﷻ بالأزواج على خلقه كما ذكره ابن كثير.

* * *

---

(١) أحمد (٢/ ٣٨٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٩-٢٢٨٠/ ٢٩٦٨)، وأبو داود (٥/ ٩٨-٩٩/ ٤٧٣٠)، وليس عند أحمد وأبي داود محل الشاهد.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى إخبارا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك؛ أي: ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له أندادًا وأشباهًا وأمثالًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا اللّه وأنتم بجهلكم تشركون به غيره»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الكفار يعبدون من دون اللّه ما لا يملك لهم رزقًا من السموات بإنزال المطر، ولا من الأرض بإنبات النبات. وأكد عجز معبوداتهم عن ذلك بأنهم لا يستطيعون، أي لا يملكون أن يرزقوا. والاستطاعة منفية عنهم أصلًا؛ لأنهم جماد ليس فيه قابلية استطاعة شيء.

ويفهم من الآية الكريمة: أنه لا يصح أن يعبد إلا من يرزق الخلق؛ لأن أكلهم رزقه، وعبادتهم غيره كفر ظاهر لكل عاقل. وهذا المعنى المفهوم من هذه الآية الكريمة بينه -جل وعلا- في مواضع أخر، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢]، وقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَمَا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٨٨).
(٢) العنكبوت: الآية (١٧).
(٣) الملك: الآية (٢١).

خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[1] وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[2]، وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[3]، وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4] الآية، وقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[5] الآية، إلى غير ذلك من الآيات»[6].

وقال أيضا: «قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ : نهى -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة خلقه أن يضربوا له الأمثال. أي يجعلوا له أشباهًا ونظراء من خلقه، ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا!

وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[7] الآية، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[8]، إلى غير ذلك من الآيات»[9].

* * *

---

(١) الذاريات: الآيات (٥٦-٥٨).

(٢) الأنعام: الآية (١٤).

(٣) طه: الآية (١٣٢).

(٤) فاطر: الآية (٣).

(٥) يونس: الآية (٣١).

(٦) أضواء البيان (٣/ ٢٩٤-٢٩٥).

(٧) الشورى: الآية (١١).

(٨) الإخلاص: الآية (٤).

(٩) أضواء البيان (٣/ ٢٩٥-٢٩٦).

قوله تعالى: ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وشَبَّه لكم شَبها أيها الناس للكافر من عبيده، والمؤمن به منهم. فأما مثَل الكافر: فإنه لا يعمل بطاعة اللَّه، ولا يأتي خيرًا، ولا ينفق في شيء من سبيل اللَّه ماله لغلبة خذلان اللَّه عليه، كالعبد المملوك، الذي لا يقدر على شيء فينفقه. وأما المؤمن باللَّه فإنه يعمل بطاعة اللَّه، وينفق في سبيله ماله كالحر الذي آتاه اللَّه مالا فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا، يقول: بعلم من الناس وغير علم ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ يقول هل يستوي العبد الذي لا يملك شيئًا ولا يقدر عليه، وهذا الحرّ الذي قد رزقه اللَّه رزقًا حسنًا فهو ينفق كما وَصَف، فكذلك لا يستوي الكافر العامل بمعاصي اللَّه المخالف أمره، والمؤمن العامل بطاعته..

وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يقول: الحمد الكامل لله خالصًا دون ما تَدْعُون أيها القوم من دونه من الأوثان فإياه فاحمدوا دونها.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: ما الأمر كما تفعلون، ولا القول كما تقولون، ما للأوثان عندهم من يد ولا معروف فتُحْمد عليه، إنما الحمد لله، ولكن أكثر هؤلاء الكفرة الذين يعبدونها لا يعلمون أن ذلك كذلك، فهم بجهلهم بما يأتون ويَذَرون يجعلونها لله شركاء في العبادة والحمد»[١].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٤٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيمن ملك من العرب رقيقًا فوهب وباع وجامع وفدى وسبى الذرية

* عن ابن شهاب: «ذكر عروة أن مروان والمسور بن مخرمة أخبراه: أن النبي ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال: **إن معي من ترون، وأحب الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما المال وإما السبي، وقد كنت استأنيت بهم** -وكان النبي ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف- فلما تبين لهم أن النبي ﷺ غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: فإنا نختار سبينا، فقام النبي ﷺ في الناس، فأثنى على اللَّه بما هو أهله ثم قال: **أما بعد فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وإني رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء اللَّه علينا فليفعل**، فقال الناس: طيبنا لك ذلك، قال: إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم، فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه أنهم طيبوا وأذنوا. فهذا الذي بلغنا عن سبي هوازن، وقال أنس: قال عباس للنبي ﷺ: فاديت عقيلًا»[1].

★ **غريب الحديث:**

سبيهم: السبي: النهب وأخذ الناس عبيدًا وإماءً.

استأنيت: أي: انتظرت وتربصت.

بِضع: البِضع في العدد، بالكسر وقد يفتح: ما بين الثلاث إلى التسع. وقيل: ما بين الواحد إلى العشرة؛ لأنه قطعة من العدد.

قَفَلَ: قَفَلَ يقفل: إذا عاد من سفره. وقد يقال للسفر: قفول، في الذهاب والمجيء، وأكثر ما يستعمل في الرجوع.

يفيء: الفيء هو ما حصل للمسلمين من أموال الكفار من غير حرب ولا جهاد،

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٢٦-٣٢٧)، والبخاري (٥/ ٢١٢و٢١٣/ ٢٥٣٩و٢٥٤٠)، وأبو داود (٣/ ١٤١-١٤٢/ ٢٦٩٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٦/ ٨٨٧٦) مختصرًا.

وأصل الفيء: الرجوع.

عرفاؤكم: العُرفاء: جمع عَريف، وهو القيم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس على أمورهم ويتعرف الأمير منه أحوالهم.

* عن ابن عون قال: كتبت إلى نافع فكتب إلي: «إن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارُّون وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وأصاب يومئذ جويرية. حدثني به ابن عمر وكان في ذلك الجيش»[1].

★ غريب الحديث:

غارّون: أي: غافلون.

* عن أبي سعيد ﷺ قال: «خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ في غزوة بني المصطلق، فأصبنا سبيًا من سبي العرب، فاشتهينا النساء، فاشتدت علينا العزبة، وأحببنا العزل، فسألنا رسول اللَّه ﷺ فقال: **ما عليكم أن لا تفعلوا؛ ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة**»[2].

★ غريب الحديث:

العزبة: العزوبة: البعد عن النكاح.

العزل: هو عزل الماء عن النساء حذر الحمل.

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «مازِلْتُ أحب بني تميم منذ ثلاث سمعت من رسول اللَّه ﷺ يقول فيهم، سمعته يقول: **هم أشد أمتي على الدجال**. قال: وجاءت صدقاتهم فقال رسول اللَّه ﷺ: **هذه صدقات قومنا**. وكانت سبية منهم عند عائشة فقال: **أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل**»[3].

★ فوائد الأحاديث:

قال العيني: «أي هذا باب في بيان حكم من ملك من العرب رقيقًا، والعرب

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١و٥١)، والبخاري (٥/ ٢١٣/ ٢٥٤١)، ومسلم (٣/ ١٣٥٦/ ١٧٣٠).

(٢) أخرجه: البخاري (٥/ ٢١٣/ ٢٥٤٢)، (٩/ ٣٨١/ ٥٢١٠)، ومسلم (٢/ ١٠٦١/ ١٤٣٨[١٢٥-١٢٧])، وأبو داود (٢/ ٦٢٤/ ٢١٧٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٩٠)، والبخاري (٥/ ٢١٣/ ٢٥٤٣)، ومسلم (٤/ ١٩٥٧/ ٢٥٢٥).

الجيل المعروف من الناس، ولا واحد له من لفظه، وسواء أقام بالبادية أو المدن، والأعراب ساكنو البادية من العرب الذين لا يقيمون في الأمصار ولا يدخلون بها إلا لحاجة، والنسب إليها أعرابي وعربي. واختلف في نسبتهم، والأصح: أنهم نسبوا إلى عَرَبة، بفتحتين: وهي من تهامة؛ لأن أباهم إسماعيل، -عليه الصلاة والسلام-، نشأ بها.

قوله: (فوهب) إلى آخره، تفصيل قوله: (ملك)، فذكر خمسة أشياء: الهبة والبيع والجماع والفدى والسبي، وذكر في الباب أربعة أحاديث وبين في كل حديث حكم كل واحد منها غير البيع، وهو أيضًا مذكور في حديث أبي هريرة في بعض طرقه، كما سيجيء بيانه إن شاء اللَّه تعالى، ومفعولات: وهب وباع وجامع وفدى محذوفة.

قوله: (وسبى)، عطف على قوله: ملك (والذرية) نسل الثقلين، يقال: ذرأ اللَّه الخلق؛ أي: خلقهم، وأراد البخاري بعقد هذه الترجمة بيان الخلاف في استرقاق العرب، والجمهور على أن العربي إذا سبي جاز أن يسترق، وإذا تزوج أمة بشرطه كان ولدها رقيقًا تبعًا لها، وبه قال مالك والليث والشافعي، وحجتهم أحاديث الباب، وبه قال الكوفيون. وقال الثوري والأوزاعي وأبو ثور: يلزم سيد الأمة أن يقومه على أبيه ويلتزم أبوه بأداء القيمة ولا يسترق، وهو قول سعيد بن المسيب، واحتجوا بما روي عن عمر -رضي اللَّه تعالى عنه- أنه قال لابن عباس: لا يسترق ولد عربي من أبيه، وقال الليث: أما ما روي عن عمر -رضي اللَّه تعالى عنه- من فداء ولد العرب من الولائد، إنما كان من أولاد الجاهلية، وفيما أقر به الرجل من نكاح الإماء، فأما اليوم فمن تزوج أمة وهو يعلم أنها أمة، فولده عبد لسيدها عربيًا كان أو قريشيًا أو غيره»[1].

قال الشوكاني: «وظاهر الآية عدم التفريق بين العربي والعجمي. وقد خصت الهادوية عدم جواز الاسترقاق بذكور العرب دون إناثهم. ومن أدلتهم على عدم جواز استرقاق الذكور من العرب أنه لو ثبت الاسترقاق لهم لوقع، ولم يرد في وقوعه شيء على كثرة أسر العرب في زمانه ﷺ، فإن المكروه أيضًا لا بد أن يقع ولو

(١) عمدة القاري (٩/ ٣٤٢).

لبيان الجواز، ولا يجوز أن يخل النبي ﷺ بتبليغ حكم اللَّه. قال في «المنار» مستدلاً على ما ذهب إليه الجمهور: وقد استفتحت الصحابة أرض الشام وهم عرب، وكذلك في أطراف بلاد العرب المتصلة بالعجم، ولم يفتشوا العربي من العجمي والكتابي من الأمي، بل سووا بينهم، لم يرو عن أحد خلاف ذلك ثم ذكر قول أحمد ابن حنبل الذي ذكره المصنف.

والحاصل أنه قد ثبت في جنس أسارى الكفار جواز القتل والمن والفداء والاسترقاق، فمن ادعى أن بعض هذه الأمور تختص ببعض الكفار دون بعض، لم يقبل منه ذلك إلا بدليل ناهض يخصص العمومات، والمجوّز قائم في مقام المنع، وقول علي وفعله عند بعض المانعين من استرقاق ذكور العرب حجة. وقد استرقّ بني ناجية ذكورهم وإناثهم وباعهم كما هو مشهور في كتب السير والتواريخ، وبنو ناجية من قريش فكيف ساغت لهم مخالفته»[1].

قال الصنعاني: «والحديث دليل على أن انفساخ نكاح المسبية، فالاستثناء في الآية -أي: قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[2] متصل. وإلى هذا ذهبت الهادوية والشافعي، وظاهر الآية الإطلاق سواء سُبي معها زوجها أم لا. ودل أيضًا على جواز الوطء ولو قبل إسلام المسبية سواءٌ كانت كتابية أو وثنية إذ الآية عامة ولم يعلم أنه ﷺ عرض على سبايا أوطاس الإسلام ولا أخبر أصحابه أنها لا توطأ مسبية حتى تسلم مع أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة. ويدل لهذا ما أخرجه الترمذي من حديث العرباض بن سارية: «**أن النبي ﷺ** حرم وطء السبايا حتى يضعن ما في بطونهن»[3] فجعل للتحريم غاية واحدة وهي وضع الحمل، ولم يذكر الإسلام، وما أخرجه في السنن مرفوعًا: «**لا يحل لامرئ يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها**»[4] ولم يذكر الإسلام، أخرجه أحمد. وأخرج أحمد أيضًا: «**من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فلا ينكح**

(١) نيل الأوطار (٨/ ٦).
(٢) النساء: الآية (٢٤).
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧).
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٨-١٠٩) وأبو داود (٢/ ٥-٦/ ٢١٥٨) وابن حبان (١١/ ١٨٦/ ٤٨٥٠) من حديث رويفع بن ثابت الأنصاري.

شيئًا من السبايا حتى تحيض حيضة»[1] ولم يذكر الإسلام، ولا يعرف اشتراط الإسلام في المسبية في حديث واحد. وقد ذهب إلى هذا طاوس وغيره. وذهب الشافعي وغيره من الأئمة إلى أنه لا يجوز وطء المسبية بالملك حتى تُسلم إذا لم تكن كتابية، وسبايا أوطاس هن وثنيات فلا بد عندهم من التأويل بأن حلهن بعد الإسلام، ولا يتم ذلك إلا لمجرد الدعوى وقد عرفت أنه لم يأت دليل شرطية الإسلام»[2].

* عن عبدالله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا نصح العبد سيده، وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين**»[3].

* عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**للمملوك الذي يحسن عبادة ربه، ويؤدي إلى سيده الذي له عليه من الحق والنصيحة والطاعة أجران**»[4].

* عن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته: فالأمير الذي على الناس فهو راعٍ عليهم وهو مسؤول عنهم، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**»[5].

★ **غريب الأحاديث:**

بعلها: البعل: الزوج.

★ **فوائد الأحاديث:**

بوّب البخاري بقوله: «باب العبد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده».

---

(١) ولفظ أحمد: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يبتاعن ذهبًا بذهب إلا وزنًا بوزن، ولا ينكح ثيبا من السبي حتى تحيض**» (٤/ ١٠٩).

(٢) سبل السلام (٧/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨)، والبخاري (٥/ ٢٢٢/ ٢٥٥٠)، ومسلم (٣/ ١٢٨٤/ ١٦٦٤)، وأبو داود (٥/ ٣٦٥/ ٥١٦٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٥)، والبخاري (٥/ ٢٢٢/ ٢٥٥١)، ومسلم (١/ ١٣٤و١٣٥/ ١٥٤)، والترمذي (٣/ ٤٢٤/ ١١١٦)، والنسائي في المجتبى (٦/ ٤٢٥/ ٣٣٤٤)، وفي الكبرى (٣/ ٣١٢/ ٥٥٠٢).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٥)، والبخاري (٥/ ٢٢٢-٢٢٣/ ٢٥٥٤)، ومسلم (٣/ ١٤٥٩/ ١٨٢٩)، والترمذي (٤/ ١٨٠-١٨١/ ١٧٠٥).

قال العيني: «هذا باب في بيان فضل العبد -أو في بيان ثوابه- إذا أحسن عبادة ربه، بأن أقامها بشروطها. قوله: (ونصح)، من النصيحة، وهي كلمة جامعة معناها: حيازة الحظ للمنصوح له، وهو إرادة صلاح حاله وتخليصه من الخلل وتصفيته من الغش»(١).

قال الحافظ: «والغرض منه هنا قوله: **«والعبد راعٍ على مال سيده»** فإنه إن كان ناصحًا له في خدمته مؤديًا له الأمانة ناسب أن يعينه ولا يتعاظم عليه»(٢).

وقال الحافظ: «فيه حجة لمن قال: إن العبد لا يملك، وتعقبه ابن المنير بأنه لا يلزم من كونه راعيًا في مال سيده أن لا يكون هو له مال، فإن قيل: فاشتغاله برعاية مال سيده يستوعب أحواله، فالجواب: أن المطلق لا يفيد العموم، ولا سيما إذا سيق لغير قصد العموم، وحديث الباب إنما سيق للتحذير من الخيانة والتخويف بكونه مسؤولًا ومحاسبًا، فلا تعلق له بكونه يملك أو لا يملك»(٣).

* عن أبي هريرة ﷺ يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك، وليقل: سيدي مولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»**(٤).

★ فوائد الحديث:

بوّب البخاري بقوله: «باب كراهية التطاول على الرقيق، وقولِه: عبدي أو أمتي».

قال العيني: «هذا باب في بيان التطاول؛ أي: الترفع والتجاوز عن الحد فيه. قيل: المراد بالكراهة كراهة التنزيه، وذلك لأن الكل عبيد اللَّه، واللَّه لطيف بعباده رفيق بهم، فينبغي للسادة امتثال ذلك في عبيدهم، ومن ملكهم اللَّه إياهم، ويجب عليهم حسن الملك ولين الجانب، كما يجب على العبيد حسن الطاعة والنصح لسادتهم والانقياد لهم وترك مخالفتهم. قوله: (وقولِهِ) بالجر، عطف على (كراهية

---

(١) عمدة القاري (٩/ ٣٥٣).
(٢) فتح الباري (٥/ ٢٢٦).
(٣) فتح الباري (٥/ ٢٢٧).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٦)، والبخاري (٥/ ٢٢٢/ ٢٥٥٢)، ومسلم (٤/ ١٧٦٥/ ٢٢٤٩[١٥])، وأبو داود (٥/ ٢٥٦-٢٥٧/ ٤٩٧٥-٤٩٧٦).

التطاول)، والتقدير: وكراهية قول الشخص لمن يملكه من العبيد: عبيدي، ولمن يملك من الجواري: أمتي، والكراهة فيه أيضًا للتنزيه من غير تحريم.

وجه الكراهة: أن هذا الاسم من باب المضاف ومقتضاه إثبات العبودية له، وصاحبه الذي هو المالك عبد لله تعالى متعبد بأمره ونهيه، فإدخال مملوك اللَّه تعالى تحت هذا الاسم يوجب الشرك ومعنى المضاهاة، فلذلك استحب له أن يقول: فتاي وفتاتي، والمعنى في ذلك كله يرجع إلى البراءة من الكبر، والأليق بالشخص الذي هو عبد اللَّه ومملوك له أن لا يقول: عبدي، وإن كان قد ملك قياده في الاستخدام ابتلاءً فيه من اللَّه بخلقه»[1].

قال الحافظ: «فيه نهي العبد أن يقول لسيده: ربي، كذلك نهي غيره فلا يقول له أحد: ربك، ويدخل في ذلك أن يقول السيد ذلك عن نفسه، فإنه قد يقول لعبده: اسق ربك، فيضع الظاهر موضع الضمير على سبيل التعظيم لنفسه، والسبب في النهي أن حقيقة الربوبية لله تعالى؛ لأن الرب هو المالك والقائم بالشيء فلا توجد حقيقة ذلك إلا لله تعالى. قال الخطابي: سبب المنع أن الإنسان مربوب متعبد بإخلاص التوحيد لله وترك الإشراك معه، فكره له المضاهاة في الاسم لئلا يدخل في معنى الشرك، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد، فأما ما لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجمادات فلا يكره إطلاق ذلك عليه عند الإضافة كقوله رب الدار ورب الثوب، وقال ابن بطال: لا يجوز أن يقال لأحد غير الله: رب، كما لا يجوز أن يقال له: إله. اهـ.

والذي يختص باللَّه تعالى إطلاق الرب بلا إضافة، أما مع الإضافة فيجوز إطلاقه كما في قوله تعالى حكاية عن يوسف ﷺ: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾[2] وقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[3] وقوله -عليه الصلاة والسلام- في أشراط الساعة: «أن تلد الأمة ربها»[4]، فدل على أن النهي في ذلك محمول على الإطلاق، ويحتمل

---

(١) عمدة القاري (٩/ ٣٥٦).

(٢) يوسف: الآية (٤٢).
(٣) يوسف: الآية (٥٠).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٦) والبخاري (١/ ١٥٣/ ٥٠) ومسلم (١/ ٣٩/ ٩) النسائي (٨/ ٤٧٥-٤٧٦/ ٥٠٠٦) وابن ماجه (١/ ٢٥/ ٦٤) كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «ربها» إلا النسائي وابن ماجه فبلفظ: «ربتها».

أن يكون النهي للتنزيه، وما ورد من ذلك فلبيان الجواز. وقيل: هو مخصوص بغير النبي ﷺ ولا يرد ما في القرآن، أو المراد النهي عن الإكثار من ذلك واتخاذ استعمال هذه اللفظة عادة، وليس المراد النهي عن ذكرها في الجملة».

قوله: «**وليقل: سيدي ومولاي**» فيه جواز إطلاق العبد على مالكه: سيدي، قال القرطبي وغيره: إنما فرق بين الرب والسيد لأن الرب من أسماء اللَّه تعالى اتفاقًا، واختلف في السيد، ولم يرد في القرآن أنه من أسماء اللَّه تعالى. فإن قلنا: إنه ليس من أسماء اللَّه تعالى، فالفرق واضح إذ لا التباس؛ وإن قلنا: إنه من أسمائه، فليس في الشهرة والاستعمال كلفظ الرب فيحصل الفرق بذلك أيضًا، وقد روى أبو داود والنسائي وأحمد والمصنف في «الأدب المفرد» من حديث عبد اللَّه بن الشخير عن النبي ﷺ قال: «**السيد الله**»[1]، وقال الخطابي: إنما أطلقه لأن مرجع السيادة إلى معنى الرياسة على من تحت يده والسياسة له وحسن التدبير لأمره، ولذلك سمي الزوج سيدًا، قال: وأما المولى فكثير التصرف في الوجوه المختلفة من ولي وناصر وغير ذلك، ولكن لا يقال السيد ولا المولى على الإطلاق من غير إضافة إلا في صفة اللَّه تعالى. انتهى. وفي الحديث جواز إطلاق (مولاي) أيضًا، وأما ما أخرجه مسلم والنسائي من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة في هذا الحديث نحوه وزاد: «**ولا يقل أحدكم: مولاي، فإن مولاكم اللَّه، ولكن ليقل: سيدي**» فقد بين مسلم الاختلاف في ذلك على الأعمش وأن منهم من ذكر هذه الزيادة ومنهم من حذفها، وقال عياض: حذفها أصح. وقال القرطبي: المشهور حذفها، قال: وإنما صرنا إلى الترجيح للتعارض مع تعذر الجمع وعدم العلم بالتاريخ. انتهى. ومقتضى ظاهر هذه الزيادة أن إطلاق السيد أسهل من إطلاق المولى، وهو خلاف المتعارف، فإن المولى يطلق على أوجه متعددة منها الأسفل والأعلى، والسيد لا يطلق إلا على الأعلى، فكان إطلاق المولى أسهل وأقرب إلى عدم الكراهة، واللَّه أعلم»[2].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤-٢٥) والبخاري في الأدب المفرد (٢١١) وأبو داود (٥/ ١٥٤-١٥٥/ ٤٨٠٦)، النسائي في الكبرى (٦/ ٧٠/ ١٠٠٧٦) وصححه الشيخ الألباني انظر صحيح الجامع رقم ٦٠١٣.

(٢) فتح الباري (٥/ ٢٢٤-٢٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أبكم: الأبكم: الأخرس الذي لا يتكلم.

كَلٌّ: الكلُّ: الثقيل، وهو العَيَالُ على غيره.

يوجهه: يرسله في أمر مّا. يقال: وجهته إلى موضع كذا: إذا أرسلته إليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «هذا مثل ضربه اللَّه تعالى لنفسه والآلهة التي تُعبد من دونه، فقال -تعالى ذكره- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ يعني بذلك الصنم أنه لا يسمع شيئًا، ولا ينطق؛ لأنه إما خشب منحوت، وإما نحاس مصنوع لا يقدر على نفع لمن خدمه، ولا دفع ضرّ عنه ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾، يقول: وهو عيال على ابن عمه وحلفائه وأهل ولايته، فكذلك الصنم كَلٌّ على من يعبده، يحتاج أن يحمله، ويضعه ويخدمه، كالأبكم من الناس الذي لا يقدر على شيء، فهو كَلٌّ على أوليائه من بني أعمامه وغيرهم ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ يقول: حيثما يوجهه لا يأت بخير؛ لأنه لا يفهم ما يُقال له، ولا يقدر أن يعبر عن نفسه ما يريد، فهو لا يفهم، ولا يُفْهَم عنه، فكذلك الصنم، لا يعقل ما يقال له، فيأتمر لأمر من أمره، ولا ينطق فيأمر وينهى، يقول اللَّه تعالى ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ يعني: هل يستوي هذا الأبكم الكلّ على مولاه الذي لا يأتي بخير حيث توجه ومن هو ناطق متكلم يأمر بالحقّ ويدعو إليه وهو اللَّه الواحد القهار، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، يقول: لا يستوي هو -تعالى ذكره-، والصنم الذي صفته ما وصف.

وقوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يقول: وهو مع أمره بالعدل، على طريق من الحقّ في دعائه إلى العدل، وأمره به مستقيم، لا يَعْوَجّ عن الحقّ ولا يزول عنه.

وقد اختلف أهل التأويل في المضروب له هذا المثل، فقال بعضهم في ذلك بنحو الذي قلنا فيه.. وقال آخرون: بل كلا المثلين للمؤمن والكافر..

وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في المثل الأوّل لأنه -تعالى ذكره- مثَّل مثَل الكافر بالعبد الذي وصف صفته، ومثَّل مثل المؤمن بالذي رزقه رزقًا حسنًا، فهو ينفق مما رزقه سرّا وجهرا، فلم يجز أن يكون ذلك لله مثلًا إذ كان اللَّه إنما مثل الكافر الذي لا يقدر على شيء بأنه لم يرزقه رزقا ينفق منه سرّا؛ ومثَّل المؤمن الذي وفَّقه اللَّه لطاعته فهداه لرشده، فهو يعمل بما يرضاه اللَّه، كالحرّ الذي بسط له في الرزق فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا، واللَّه -تعالى ذكره- هو الرازق غير المرزوق، فغير جائز أن يمثل إفضاله وجوده بإنفاق المرزوق الرزق الحسن، وأما المثل الثاني، فإنه تمثيل منه -تعالى ذكره- مَنْ مثله الأبكم الذي لا يقدر على شيء والكفار لا شكّ أن منهم من له الأموال الكثيرة، ومن يضرّ أحيانا الضرّ العظيم بفساده، فغير كائن ما لا يقدر على شيء، كما قال -تعالى ذكره- مثلا لمن يقدر على أشياء كثيرة. فإذا كان ذلك كذلك كان أولى المعاني به تمثيل ما لا يقدر على شيء، كما قال -تعالى ذكره- بمثله ما لا يقدر على شيء، وذلك الوثن الذي لا يقدر على شيء، بالأبكم الكَلّ على مولاه الذي لا يقدر على شيء كما قال ووصف»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن المرأة والأبناء كَلّ على الرجل

* عن أم سلمة: «قلت: يا رسول اللَّه، هل لي من أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم، ولست بتاركتهم هكذا وهكذا إنما هم بنيّ؟ قال: **نعم لك أجر ما أنفقت عليهم**»[2].

* عن هند: «قالت: يا رسول اللَّه، إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل عليّ جناح

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٥٠-١٥١).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٩٢-٢٩٣-٣١٤)، والبخاري (٩/ ٦٤٢/ ٥٣٦٩)، ومسلم (٢/ ٦٩٥/ ١٠٠١).

أن آخذ من ماله ما يكفيني وبنيّ؟ قال: خذي بالمعروف»[١].

★ **فوائد الحديثين:**

بوب البخاري على هذين الحديثين بقوله: باب ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾[٢] وهل على المرأة منه شيء؟ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ﴾ إلى قوله: ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قال ابن المنير: «وجه المطابقة إنما يتبين بمقصوده، وإنما قصد الرد على من زعم أن الأم يجب عليها نفقة ولدها بعد أبيه، وإرضاعه لدخولها في إطلاق الآية، فبين البخاري أن الأم كلٌّ على الأب، واجبة النفقة عليه، ومن هو كلّ بالأصالة لا يقدر على شيء في الغالب، كيف أن يتوجه عليه أن ينفق على غيره؟ وبحديث أم سلمة فإنه صريح في إنفاقها على بنيها فضلا وتطوعا، وبحديث هند فإنه أوجب لها أن تأخذ من مال زوجها نفقة بنيه من حيث لا يشعر، فإذا كانت ساقطة عنها في حياته فالأصل استصحاب حال السقوط بعد الوفاة»[٣].

قال الحافظ بعد إيراده لكلام ابن المنير: «وتعقب بأنه لا يلزم من السقوط عنها في حياة الأب السقوط عنها بعد فقده، وإلا فقد القيام بمصالح الولد بفقده، فيحتمل أن يكون مراد البخاري من الحديث الأول وهو حديث أم سلمة في إنفاقها على أولادها الجزء الأول من الترجمة وهو أن وارث الأب كالأم يلزمه نفقة المولود بعد موت الأب، ومن الحديث الثاني الجزء الثاني وهو أنه ليس على المرأة شيء عند وجود الأب، وليس فيه تعرض لما بعد الأب، والله أعلم»[٤].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٢٥)، والبخاري (٩/ ٦٤٢/ ٥٣٧٠)، ومسلم (٣/ ١٣٣٨/ ١٧١٤)، وأبو داود (٣/ ٨٠٤/ ٣٥٣٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٨/ ٩١٩٠).

(٢) البقرة: الآية (٢٣٣).

(٣) المتواري على تراجم أبواب البخاري (ص: ٣٠٢).

(٤) فتح الباري (٩/ ٦٤٣).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السماوات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء -وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع، وأنه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن، فيكون، كما قال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) النحل: الآية (٧٧).

(٢) القمر: الآية (٥٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٧٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: « ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ يقول: وما أمر قيام القيامة والساعة التي تنشر فيها الخلق للوقوف في موقف القيامة، إلا كنظرة من البصر؛ لأن ذلك إنما هو أن يقال له كن فيكون..

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ يقول: إن اللَّه على إقامة الساعة في أقرب من لمح البصر قادر، وعلى ما يشاء من الأشياء كلها، لا يمتنع عليه شيء أراده»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ أظهر الأقوال فيها أن المعنى أن اللَّه إذا أراد الإتيان بها فهو قادر على أن يأتي بها في أسرع من لمح البصر؛ لأنه يقول للشيء كن فيكون. ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾[2].

وقال بعض العلماء: المعنى هي قريب عنده تعالى كلمح البصر، وإن كانت بعيدًا عندكم. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾[3]، وقال: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[4]»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أشراط الساعة

* عن سهل قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير بإصبعيه**

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٥١-١٥٢).

(٢) القمر: الآية (٥٠).

(٣) المعارج: الآيتان (٦و٧).

(٤) الحج: الآية (٤٧).

(٥) أضواء البيان (٣/ ٢٩٦).

فيمدهما»[١].

* عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[٢].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**بعثت أنا والساعة كهاتين يعني إصبعين**»[٣].

★ **فوائد الأحاديث:**

انظر الآية الأولى من سورة النحل.

* * *

(١) أخرجه: البخاري (١١/ ٤٢٢/ ٦٥٠٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨/ ٢٩٥٠).

(٢) أخرجه: البخاري (١١/ ٤٢٢/ ٦٥٠٤)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٨و٢٢٦٩/ ٢٩٥١).

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٤٢٢/ ٦٥٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والله تعالى أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من بعد ما أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعقلون شيئًا ولا تعلمون، فرزقكم عقولا تفقهون بها، وتميزون بها الخير من الشرّ وبصّركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم، والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميزون بها بعضا من بعض. ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ يقول: والقلوب التي تعرفون بها الأشياء فتحفظونها وتفكرون فتفقهون بها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول: فعلنا ذلك بكم، فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من ذلك، دون الآلهة والأنداد، فجعلتم له شركاء في الشكر، ولم يكن له فيما أنعم به عليكم من نعمه شريك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ كلام متناه، ثم ابتدئ الخبر، فقيل: وجعل الله لكم السمع والأبصار والأفئدة. وإنما قلنا ذلك كذلك؛ لأن الله -تعالى ذكره- جعل العبادة والسمع والأبصار والأفئدة قبل أن يخرجهم من بطون أمهاتهم، وإنما أعطاهم العلم والعقل بعد ما أخرجهم من بطون أمهاتهم»[1].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه أخرج بني آدم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وجعل لهم الأسماع والأبصار والأفئدة. لأجل أن يشكروا له نعمه. وقد قدمنا: أن «لعل» للتعليل. ولم يبين هنا هل شكروا أو لم يشكروا. ولكنه

(١) جامع البيان (١٤/ ١٥٢).

بين في مواضع أخر: أن أكثرهم لم يشكروا. كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[١]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[٢]، إلى غير ذلك من الآيات»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن كل جارحة وعضو ينبغي أن تستغل في طاعة اللَّه وتحقيق توحيده

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن اللَّه قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»**[٤].

⋆ غريب الحديث:

آذَنته: بالمد وفتح المعجمة بعدها نون؛ أي: أعلمته. والإيذان: الإعلام، ومنه أخذ الأذان.

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «وإنما جعل تعالى هذه -أي: الجوارح- في الإنسان ليتمكن فيها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه»، ثم ذكر الحديث، ثم قال: «فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعات صارت أفعاله كلها لله ﷻ، فلا يسمع إلا اللَّه، ولا يبصر إلا اللَّه؛ أي: ما شرعه اللَّه له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة اللَّه ﷻ مستعينًا باللَّه في ذلك كله»[٥].

---

(١) البقرة: الآية (٢٤٣). (٢) الملك: الآية (٢٣).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٢٩٦).
(٤) أخرجه: البخاري (١١/ ٤١٤/ ٦٥٠٢).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٠٨-٥٠٩).

قال الحافظ: «وقد استشكل كيف يكون الباري -جل وعلا- سمع العبد وبصره إلخ؟ والجواب من أوجه:

أحدها: أنه ورد على سبيل التمثيل، والمعنى كنت سمعه وبصره في إيثاره أمري، فهو يحب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يحب هذه الجوارح.

ثانيها: أن المعنى كليته مشغولة بي فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيه، ولا يرى ببصره إلا ما أمرته به.

ثالثها: المعنى: أجعل له مقاصده كأنه ينالها بسمعه وبصره إلخ.

رابعها: كنت له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوه.

خامسها: قال الفاكهاني وسبقه إلى معناه ابن هبيرة: هو فيما يظهر لي أنه على حذف مضاف، والتقدير كنت حافظ سمعه الذي يسمع به فلا يسمع إلا ما يحل استماعه، وحافظ بصره كذلك إلخ.

سادسها: يحتمل معنى آخر أدق من الذي قبله، وهو أن يكون معنى سمعه مسموعه؛ لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول مثل فلان أملي بمعنى مأمولي، والمعنى أنه لا يسمع إلا ذكري ولا يلتذ إلا بتلاوة كتابي ولا يأنس إلا بمناجاتي ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي ولا يمد يده إلا فيما فيه رضاي ورجله كذلك، وبمعناه: قال ابن هبيرة أيضًا»[1].

قال الخطابي: «والمعنى -واللَّه أعلم- توفيقه للأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء وتيسير المحبة له فيها فيحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره اللَّه من إصغاء إلى اللهو بسمعه، ونظر إلى ما نهي عنه ببصره، وبطش إلى ما لا يحلّ بيده، ومشي في الباطل برجله.

وقد يكون معناه سرعة إجابة الدعاء، والإنجاح في الطَّلِبة، وذلك أن مساعي الإنسان إنما تكون بهذه الجوارح الأربع»[2].

قال الحافظ: «وحمله بعض أهل الزيغ على ما يدعونه من أن العبد إذا لازم

(١) فتح الباري (١١/ ٤١٨).
(٢) أعلام الحديث (٣/ ٢٢٥٩).

العبادة الظاهرة والباطنة حتى يصفى من الكدورات، أنه يصير في معنى الحق -تعالى اللَّه عن ذلك- وأنه يفنى عن نفسه جملة حتى يشهد أن اللَّه هو الذاكر لنفسه الموحد لنفسه المحب لنفسه، وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدمًا صرفًا في شهوده وإن لم تعدم في الخارج. وعلى الأوجه كلها، فلا متمسك فيه للاتحادية ولا القائلين بالوحدة المطلقة، لقوله في بقية الحديث: «ولئن سألني»، «ولئن استعاذني»، فإنه كالصريح في الردّ عليهم»[1].

قال الشوكاني: «وأما ما ذكره من الردّ على ما حكاه عن بعض أهل الزيغ من قوله: لئن سألني ولئن استعاذني. فوجه الرد أنه يقتضي سائلًا ومسؤولًا ومستعيذًا ومستعاذًا به. ولعله رَحِمَهُ اللَّهُ لم يتأمل هذا الحديث كما ينبغي فإنه لو تأمله لم يقتصر على ما ذكره من السؤال والاستعاذة، فإن الحديث كله يرد عليهم فإن قوله: «**من عادى لي وليًا**» يرد عليهم؛ لأنه يقتضي وجود معادٍ ومعادى ومعادى لأجله، ويقتضي وجود موالٍ وموالى، ويقتضي وجود مؤذِن ومؤذَن ومحارِب ومحارَب، ومتقرِّب ومتقرَّب إليه، وعبد ومعبود ومحِبّ، ومُحَبّ وهكذا إلى آخر الحديث.

فهو جميعه يرد على الاتحادية المتمسكين به من حيث لا يشعرون فإن قلت: لعله اقتصر في الاستدلال على الرد عليهم بذلك الوجه المأخوذ من ذلك اللفظ لكونه أوضح مما يستفاد منه الرد عليهم في سائر ألفاظ الحديث.

قلت: ليس ذلك الوجه أوضح من غيره حتى يكون لتأثيره على ما عداه مزية، بل هي كلها مستوية من هذه الحيثية.

بل الوضوح أظهر في قوله: «**وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن**» فإنه يقتضي وجود متردد ومتردد فيه، وفاعل ومفعول، ووجود نفس متردد فيها وهي نفس العبد المؤمن، ومتردد وهو القابض لها، وكاره للموت وهو المؤمن، وكاره لمساءته وهو الربّ سبحانه»[2].

وبمثل ذلك أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية حتى قال في آخر كلامه: «**فهذا كله ينقض قولهم: الوجود واحد**»[3].

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤١٩).

(٢) قطر الولي (٤٣٧-٤٣٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٧١).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لما ذكر موهبة العقل والحواس التي بها تحصيل المنافع ودفع الأضرار نبّه الناس إلى لطف يشاهدونه أجلَى مشاهدةً لأضعف الحيوان، بأن تسخير الجوّ للطير وخلْقَها صالحة لأن ترفرف فيه بدون تعليم هو لطف بها اقتضاه ضعف بنياتها، إذ كانت عادمة وسائل الدفاع عن حياتها، فجعل اللَّه لها سرعة الانتقال مع الابتعاد عن تناول ما يعدو عليها من البشر والدوابّ»[(١)].

وقال ابن كثير: «نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض، في جو السماء ما يمسكه هناك إلا اللَّه بقدرته تعالى، الذي جعل فيها قوًى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾[(٢)].

وقال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾»[(٣)].

قال ابن جرير: «قوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: إن في تسخير اللَّه الطير، وتمكينه لها الطيران في جوّ السماء، لعلامات ودلالات على أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأنه لا حظ للأصنام والأوثان في الألوهة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لقوم يقرّون بوجدان ما تعاينه أبصارهم، وتحسه حواسهم»[(٤)].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٣٤).
(٢) الملك: الآية (١٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٩٠).
(٤) جامع البيان (١٤/ ١٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ۝٨٠﴾

★ غريب الآية:

ظعنكم: الظعن: السفر والرحيل. والظعينة: المرأة، جمعها: ظعائن.

أثاثًا: الأثاث: متاع البيت. قال الشاعر:

أَهَاجتك الظعائنُ يوم بانوا ... بذي الزي الجميل من الأثاث

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ يعني التي هي من الحجر والمدر ﴿سَكَنٗا﴾ يعني مسكنًا تسكنونه، والسكن ما سكنتَ إليه وفيه من إلفٍ أو بيت ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ يعني الخيام والقباب والأخبية، والفساطيط المتخذة من الأُدم والأنطاع.

واعلم أن المساكن على قسمين: أحدهما: ما لم يمكن نقله من مكان إلى مكان آخر، وهي البيوت المتخذة من الحجارة والخشب ونحوهما، والقسم الثاني: ما يمكن نقله من مكان إلى آخر وهي الخيام والفساطيط المتخذة من جلود الأنعام، وإليها الإشارة بقوله تعالى ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ يعني يخف عليكم حملها ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ يعني في يوم سيركم ورحيلكم في أسفاركم، وظعن البادية هو لطلب ماء أو مرعى، نحو ذلك ﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ يعني وتخف عليكم أيضًا في إقامتكم وحضركم، والمعنى: لا تثقل عليكم في الحالتين ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ الكناية عائدة إلى الأنعام، يعني ومن أصواف الضأن، وأوبار الإبل وأشعار المعز ﴿أَثَٰثٗا﴾ يعني تتخذون أثاثًا. الأثاث. متاع البيت الكبير، وأصله من أث إذا كثر وتكاثف، وقيل للمال أثاث إذا كثر. قال ابن عباس: أثاثًا يعني مالًا: وقال مجاهد: متاعًا.

وقال القتيبي: الأثاث المال أجمع من الإبل والغنم والعبيد والمتاع. وقال غيره الأثاث هو متاع البيت من الفرش والأكسية ونحو ذلك ﴿وَمَتَٰعًا﴾ يعني وبلاغًا وهو ما يتمتعون به ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعني إلى حين يبلى ذلك الأثاث، وقيل: إلى حين الموت. فإن قلت: أي فرق بين الأثاث والمتاع حتى ذكره بواو العطف، والعطف يوجب المغايرة فهل من فرق؟. قلت: الأثاث ما كثر من آلات البيت وحوائجه وغير ذلك، فيدخل فيه جميع أصناف المال، والمتاع ما ينتفع به في البيت خاصة، فظهر الفرق بين اللفظتين والله أعلم»[(١)].

قال ابن عاشور: «هذا من تعداد النّعم التي ألهم اللّه إليها الإنسان، وهي نعمة الفكر بصنع المنازل الواقية والمرفّهة وما يشبهها من الثياب والأثاث عطفًا على جملة ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

وكلّها من الألطاف التي أعدّ اللّه لها عقل الإنسان وهيّأ له وسائلها.

وهذه نعمة الإلهام إلى اتّخاذ المساكن وذلك أصل حفظ النوع من غوائل حوادث الجوّ من شدّة برد أو حرّ ومن غوائل السباع والهوامّ. وهي أيضًا أصل الحضارة والتمدّن؛ لأن البلدان ومنازل القبائل تتقوّم من اجتماع البيوت. وأيضًا تتقوّم من مجتمع الحِلل والخيام»[(٢)].

قال القرطبي: «تضمنت هذه الآية جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال، ولذلك قال أصحابنا: صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز الانتفاع به على كل حال، ويغسل مخافة أن يكون علق به وسخ..

سواء كان شعر ما يؤكل لحمه أو لا، كشعر ابن آدم والخنزير، فإنه طاهر كله»[(٣)].

* * *

(١) تفسير الخازن (٣/ ١٢٨-١٢٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٣٦-٢٣٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أكنانًا: جمع كن. وهو ما يسترك ويصونك عما يُؤْذِيكَ. وكَنَنْتُ الشيءَ: جعلته في كَنِّهِ.

سرابيل: جمع سربال، وهو القميص.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من غير صنعٍ من قِبلكم ﴿ظِلَٰلًا﴾ أشياءَ تستظلون بها من الحر كالغمام والشجرِ والجبل وغيرها. امتنّ سبحانه بذلك لِما أن تلك الديارَ غالبةُ الحرارة ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ مواضعَ تسكنون فيها من الكهوف والغِيران والسُّروب، والكلام في الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذي مرَّ غير مرة.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ جمع سِربال وهو كل ما يُلبس؛ أي: جعل لكم ثيابًا من القُطن والكَتان والصوف وغيرها ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ خصّه بالذكر اكتفاءً بذكر أحد الضدّين عن ذكر الآخر أو لأن وقايتَه هي الأهم عندهم لما مر آنفًا ﴿وَسَرَٰبِيلَ﴾ من الدروع والجواشن ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي البأسَ الذي يصل إلى بعضكم من بعض في الحرب من الضرب والطعن، ولقد منّ اللَّه سبحانه علينا حيث ذكر جميعَ نعمِه الفائضةِ على جميع الطوائف فبدأ بما يخُص المقيمين حيث قال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ثم بما يخص المسافرين ممن لهم قدرةٌ على الخيام وأضرابِها حيث قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الخ، ثم بما يعم من لا يقدر على ذلك ولا يأويه إلا الظلالُ حيث قال: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ الخ، ثم بما لا بد

منه لأحد حيث قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ الخ، ثم بما لا غنى عنه في الحروب حيث قال: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾»[١].

قال ابن عاشور: «امتنان بنعمة الإلهام إلى التوقّي من أضرار الحرّ والقُرّ في حالة الانتقال، أعقبت به المنّة بذلك في حال الإقامة والسكنى، وبنعمة خلق الأشياء التي يكون بها ذلك التوقّي باستعمال الموجود وصنع ما يحتاج إليه الإنسان من اللباس، إذ خلق اللّه الظّلال صالحة للتوقّي من حَرّ الشمس، وخلقَ الكهوف في الجبال ليمكن اللجأ إليها، وخلق مواد اللباس مع الإلهام إلى صناعة نسجها، وخلق الحديد لاتّخاذ الدروع للقتال»[٢].

قال ابن جرير: «وقوله ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: كما أعطاكم ربكم هذه الأشياء التي وصفها في هذه الآيات نعمة منه بذلك عليكم، فكذا يُتِمّ نعمته عليكم لعلكم تسلمون. يقول: لتخضعوا لله بالطاعة، وتذِلّ منكم بتوحيده النفوس، وتخلصوا له العبادة»[٣].

قال ابن تيمية: «اللباس له منفعتان: إحداهما: الزينة بستر السوأة. والثانية: الوقاية لما يضر من حر أو برد أو عدو. فذكر اللباس في سورة الأعراف لفائدة الزينة وهي المعتبرة في الصلاة والطواف كما دل عليه قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[٤] وقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾[٥] وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[٦]، ردا على ما كانوا عليه في الجاهلية من تحريم الطواف في الثياب الذي قدم بها غير الحمس ومن أكل ما سلوه من الأدهان. وذكره في النحل لفائدة الوقاية في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ولما كانت هذه الفائدة حيوانية طبيعية لا قوام للإنسان إلا بها جعلها من النعم ولما كانت تلك فائدة كمالية قرنها بالأمر الشرعي وتلك الفائدة من باب جلب المنفعة بالتزين، وهذه من باب دفع المضرة، فالناس إلى هذه أحوج. فأما قوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ١٣٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٣٩-٢٤٠).
(٣) جامع البيان (١٤/ ١٥٦).
(٤) الأعراف: الآية (٣١).
(٥) الأعراف: الآية (٢٦).
(٦) الأعراف: الآية (٣٢).

﴿ٱلۡحَرَّ﴾ ولم يذكر «البرد» فقد قيل لأن التنزيل كان بالأرض الحارة فهم يتخوفونه، وقيل: حذف الآخر للعلم به، ويقال هذا من باب التنبيه؛ فإنه إذا امتن عليهم بما يقي الحر فالامتنان بما يقي البرد أعظم؛ لأن الحر أذى؛ والبرد بؤس، والبرد الشديد يقتل، والحر قل أن يقع فيه هكذا، فإن باب التنبيه والقياس كما يكون في خطاب الأحكام يكون في خطاب الآلاء وخطاب الوعد والوعيد كما قلته في قوله: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ﴾[١] مثله من يقول: لا تنفروا في البرد، فإن جهنم أشد زمهريرا «ومن اغبرت قدماه في سبيل اللّه حرمهما اللّه على النار»[٢]، فالوحل والثلج أعظم ونحو ذلك.

وفي الآية شرع لباس جُنَنِ[٣] الحرب؛ ولهذا قرن من قرن باب اللباس والتحلي بالصلاة لأن للحرب لباسا مختصا مع اللباس المشترك وطابق قولهم اللباس والتحلي قوله: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾[٤]. وأحسن من هذا أنه قد تقدم ذكر وقاية البرد في أول السورة بقوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾[٥] فيقال: لم فرق هذا؟ فيقال واللّه أعلم: المذكور في أول السورة النعم الضرورية التي لا يقومون بدونها: من الأكل وشرب الماء القراح ودفع البرد والركوب الذي لا بد منه في النقلة، وفي آخرها ذكر كمال النعم: من الأشربة الطيبة والسكون في البيوت وبيوت الأدم والاستظلال بالظلال ودفع الحر والبأس بالسرابيل، فإن هذا يستغنى عنه في الجملة. ففي الأول الأصول وفي الآخر الكمال؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾. وأيضًا: فالمساكن لها منفعتان: إحداهما السكون فيها لأجل الاستتار فهي كلباس الزينة من هذا الوجه. والثاني: وقاية الأذى من الشمس والمطر والريح ونحو ذلك، فجمع اللّه الامتنان بهذين فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ هذه بيوت المدر ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾

---

(١) التوبة: الآية (٨١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٩) والبخاري (٢/ ٤٩٥/ ٩٠٧) والترمذي (٤/ ١٤٦/ ١٦٣٢) وقال: حسن غريب صحيح، والنسائي (٦/ ٣٢١-٣٢٢/ ٣١١٦) من حديث أبي عبس عبد الرحمن بن جبر.

(٣) جمع جُنّة وهي الوقاية، أي الألبسة التي تقي في الحرب.

(٤) فاطر: الآية (٣٣).

(٥) النحل: الآية (٥).

هذه بيوت العمود ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ يدخل فيه أهبة البيت من البسط والأوعية والأغطية ونحوها، وقال ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ولم يقل من المدر بيوتا كما قال: ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ لأن السكن بيان منفعة البيت فبه تظهر النعمة واتخاذ البيوت من المدر معتاد فالنعمة بظهور أثرها؛ بخلاف الأنعام فإن الهداية إلى اتخاذ البيوت من جلودها أظهر من الهداية إلى نفس اتخاذ البيوت.

وأما فائدة الوقاية فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ فالظلال يعم جميع ما يظل من العرش والفساطيط والسقوف مما يصطنعه الآدميون، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ لأن الجبل يُكِنّ الإنسان من فوقه ويمينه ويساره وأسفل منه، ليس مقصوده الاستظلال؛ بخلاف الظلال فإن مقصودها الاستظلال؛ ولهذا قرن بهذه ما في السرابيل من منفعة الوقاية فجمع في هذه الآية بين وقاية اللباس المنتقل مع البدن ووقاية الظلال الثابتة على الأرض؛ ولهذا كانوا في الجاهلية يسوون بينهما في حق المحرم، فكما نهى عن تغطية الرأس نهوا عن الدخول تحت سقف حتى أنزل اللّه ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[1]. وجاز للمحرم أن يستظل بالثابت من الخيام والشجر، وأما الشيء المنتقل معه المتصل كالمحمل ففيه ما فيه لتردده بين السرابيل وبين المستقر من الظلال والأكنة. كما أنه قبل هذه الآيات ذكر أصناف الأشربة من اللبن والخمر والعسل، وذكر في أول السورة المراكب والأطعمة، وهذه مجامع المطاعم والمشارب والملابس والمساكن والمراكب»[2].

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة منته على خلقه. بأنه جعل لهم سرابيل تقيهم الحر. أي والبرد؛ لأن ما يقي الحر من اللباس يقي البرد. والمراد بهذه السرابيل: القمصان ونحوها من ثياب القطن والكتان والصوف. وقد بين هذه النعمة الكبرى في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾[3] الآية، وقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[4]

---

(١) البقرة: الآية (١٨٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢١٧-٢٢٠).

(٣) الأعراف: الآية (٢٦).

(٤) الأعراف: الآية (٣١).

الآية. أي وتلك الزينة هي ما خلق اللَّه لهم من اللباس الحسن.

وقوله هنا: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ المراد بها الدروع ونحوها، مما يقي لابسه وقع السلاح، ويسلمه من بأسه.

وقد بين أيضًا هذه النعمة الكبرى، واستحقاق من أنعم بها لأن يشكر له في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾[1]»[2].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٨٠).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٢٩٨).

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فإن أدبر هؤلاء المشركون يا محمد عما أرسلتك به إليهم من الحقّ، فلم يستجيبوا لك وأعرضوا عنه، فما عليك من لوم ولا عذل لأنك قد أديت ما عليك في ذلك، إنه ليس عليك إلا بلاغهم ما أرسِلت به. ويعني بقوله: ﴿الْمُبِينُ﴾ الذي يبين لمن سمعه حتى يفهمه»[1].

قال ابن عاشور: «المقصود تسلية النبي ﷺ على عدم استجابتهم»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٥٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٤١).

قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «استئناف بياني لأن تولّيهم عن الإسلام مع وفرة أسباب اتّباعه يثير سؤالًا في نفس السامع: كيف خفيت عليهم دلائل الإسلام، فيجاب بأنهم عرفوا نعمة اللَّه ولكنهم أعرضوا عنها إنكارًا ومكابرة. ويجوز أن تجعلها حالًا من ضمير ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾. ويجوز أن تكون بدل اشتمال لجملة ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾.

وهذه الوجوه كلها تقتضي عدم عطفها على ما قبلها. والمعنى: هم يعلمون نعمة اللَّه المعدودة عليهم فإنهم منتفعون بها، ومع تحقّقهم أنها نعمة من اللَّه ينكرونها؛ أي: ينكرون شكرها فإن النّعمة تقتضي أن يشكُر المنعَمُ عليه بها من أنعم عليه؛ فلما عبدوا ما لا ينعم عليهم فكأنهم أنكروها»[1].

قال الرازي: «ذمهم بأنهم يعرفون نعمة اللَّه ثم ينكرونها، وذلك نهاية في كفران النعمة.

فإن قيل: ما معنى ثم؟

قلنا: الدلالة على أن إنكارهم أمر يستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر. وفي المراد بهذه النعمة وجوه: الأول: قال القاضي: المراد بها جميع ما ذكره اللَّه تعالى في الآيات المتقدمة من جميع أنواع النعم؛ ومعنى أنهم أنكروه هو أنهم ما أفردوه تعالى بالشكر والعبادة، بل شكروا على تلك النعم غير اللَّه تعالى ولأنهم قالوا: إنما حصلت هذه النعم بشفاعة هذه الأصنام. والثاني: أن المراد أنهم عرفوا أن نبوة محمد ﷺ حق ثم ينكرونها، ونبوته نعمة عظيمة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]. الثالث: يعرفون نعمة اللَّه ثم ينكرونها، أي لا يستعملونها في طلب رضوان اللَّه تعالى.

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٤٢).

(٢) الأنبياء: الآية (١٠٧).

ثم قال تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مع أنه كان كلهم كافرين.

قلنا: الجواب من وجوه: الأول: إنما قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ لأنه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف أو كان ناقص العقل معتوهًا، فأراد بالأكثر البالغين والأصحاء. الثاني: أن يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند، وحينئذ نقول إنما قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ لأنه كان فيهم من لم يكن معاندًا بل كان جاهلًا بصدق الرسول -عليه الصلاة والسلام- وما ظهر له كونه نبيًا من عند اللَّه. الثالث: أنه ذكر الأكثر والمراد الجميع؛ لأن أكثر الشيء يقوم مقام الكل، فذكر الأكثر كذكر الجميع، وهذا كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] واللَّه أعلم»[2].

وقال ابن عاشور: «وإنكار النّعمة يستوي فيه جميع المشركين أيّمتهم ودهماؤهم، ففريق من المشركين وهم أيّمة الكفر شأنهم التعقّل والتأمّل فإنهم عرفوا النّعمة بإقرارهم بالمنعِم وبما سمعوا من دلائل القرآن حتى تردّدوا وشكّوا في دين الشّرك، ثم ركبوا رؤوسهم وصمّموا على الشّرك. ولهذا عبّر عن ذلك بالإنكار المقابل للإقرار.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فظاهر كلمة «أكثر» وكلمة ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أن الذين وصفوا بأنهم الكافرون هم غالب المشركين لا جميعهم، فيحمل المراد بالغالب على دهماء المشركين. فإن معظمهم بسطاء العقول بعداء عن النّظر فهم لا يشعرون بنعمة اللَّه، فإن نعمة اللَّه تقتضي إفراده بالعبادة. فكان إشراكهم راسخًا، بخلاف عقلائهم وأهل النظر فإن لهم تردّدًا في نفوسهم، ولكن يحملهم على الكفر حبّ السيادة في قومهم»[3].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الكفار يعرفون نعمه اللَّه؛ لأنهم يعلمون أنه هو الذي يرزقهم ويعافيهم، ويدبر شؤونهم، ثم ينكرون هذه النعمة. فيعبدون معه غيره، ويسوونه بما لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئًا.

---

(١) لقمان: الآية (٢٥). (٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٩٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٤٢).

وقد أوضح -جل وعلا- هذا المعنى في آيات كثيرة. كقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[1]. فقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ دليل على معرفتهم نعمته. وقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ دليل على إنكارهم لها. والآيات بمثل هذا كثيرة جدًا..

وعن السدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي نبوة محمد ﷺ ثم ينكرونها. أي يكذبونه وينكرون صدقه.

وقد بين -جل وعلا-: أن بعثة نبيه ﷺ فيهم من منن اللّه عليهم. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[2] الآية.

وبين في موضع آخر: أنهم قابلوا هذه النعمة بالكفران. وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾[3]. وقيل: يعرفون نعمة اللّه في الشدة، ثم ينكرونها في الرخاء. وقد تقدمت الآيات الدالة على ذلك، كقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[4]، ونحوها من الآيات - إلى غير ذلك من الأقوال في الآية»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قيام المؤمن بالتوحيد وجحد الكافر بالشرك

* عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: «**صلى لنا رسول اللّه ﷺ** صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: **هل تدرون ماذا قال ربكم؟** قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: **أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل اللّه ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[6].

---

(١) يونس: الآية (٣١).
(٢) آل عمران: الآية (١٦٤).
(٣) إبراهيم: الآية (٢٨).
(٤) العنكبوت: الآية (٦٥).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٢٩٨-٢٩٩).
(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٧)، والبخاري (٢/ ٦٦٣-٦٦٤/ ١٠٣٨) واللفظ له، ومسلم (١/ ٨٣-٨٤/ ٧١)، وأبو داود (٤/ ٢٢٧-٢٢٨/ ٣٩٠٦)، والنسائي (٣/ ١٨٣-١٨٤/ ١٥٢٤).

★ **غريب الحديث:**

إثر: هو ما يعقب الشيء.

سماء: المراد به: المطر.

بنوء: النَّوْء في أصله ليس هو نفس الكوكب، فإنه مصدر ناء النجمُ، ينوء نوءًا؛ أي: سقط وغاب. وقيل: أي: نهض وطلع. وبيان ذلك أن ثمانية وعشرين نجمًا معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها، وهي المعروفة بمنازل القمر الثمانية والعشرين، يسقط في كل ثلاث عشرة ليلة منها نجم في المغرب مع طلوع الفجر ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته، وكان أهل الجاهلية إذا كان عند ذلك مطر ينسبونه إلى الساقط الغارب منها. وقال الأصمعي: إلى الطالع منها. قال أبو عبيد: لم أسمع أحدًا ينسب النوء للسقوط إلا في هذا الموضع، ثم إن النجم نفسه قد يسمى نوءًا تسمية للفاعل بالمصدر.

★ **فوائد الحديث:**

قال السعدي: «لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفرده بالنعم ودفع النقم، وإضافتها إليه قولًا واعترافًا واستعانة بها على طاعته كان قول القائل: (مُطرنا بنوء كذا وكذا) ينافي هذا المقصود أشد المنافاة لإضافة المطر إلى النوء.

والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلى الله فإنه الذي تفضل بها على عباده.

ثم الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه، وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال، فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم.

فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق ويضيفها إليه ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره.

وهذا الموضع من محققات التوحيد وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه»[1].

قال الشيخ ابن عثيمين: «والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

---

(١) القول السديد (٨٤-٨٦).

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا! اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك، فهذا شرك أكبر؛ لأنه دعا غير اللَّه، ودعاء غير اللَّه من الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(٣) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهي عن دعاء غير اللَّه وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هي الفاعلة بنفسها دون اللَّه ولو لم يدعها، فهذا شرك أكبر في الربوبية، والأول في العبادة؛ لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك في الربوبية؛ لأنه لم يدعها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة.

القسم الثاني: شرك أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سببًا مع اعتقاده أن اللَّه هو الخالق الفاعل؛ لأن كل من جعل سببًا لم يجعله اللَّه سببًا لا بوحيه ولا بقدره، فهو مشرك شركًا أصغر»(٤).

وقال سليمان بن عبدالله: «فالاستسقاء بالنجوم نوعان:

أحدها: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم، فهذا كفر ظاهر، إذ لا خالق إلا اللَّه، وما كان المشركون هكذا، بل كانوا يعلمون أن اللَّه هو المنزل للمطر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾(٥) وليس هذا معنى الحديث، فالنبي ﷺ أخبر أن هذا لا يزال في أمته، ومن اعتقد أن النجم ينزل المطر، فهو كافر.

الثاني: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم، مع اعتقاده أن اللَّه تعالى هو الفاعل لذلك المنزل له، إلا أنه ﷻ أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم، فحكى ابن مفلح خلافًا في مذهب أحمد في تحريمه وكراهته، وصرح أصحاب

---

(١) المؤمنون: الآية (١١٧).
(٢) الجن: الآية (١٨).
(٣) يونس: الآية (١٠٦).
(٤) القول المفيد (٢/ ١١٥-١١٦).
(٥) العنكبوت: الآية (٦٣).

الشافعي بجوازه، والصحيح أنه محرم؛ لأنه من الشرك الخفي، وهو الذي أراده النبي ﷺ، وأخبر أنه من أمر الجاهلية، ونفاه، وأبطله، وهو الذي كان يزعم المشركون، ولم يزل موجودًا في هذه الأمة إلى اليوم، وأيضًا فإن هذا من النبي ﷺ حماية لجناب التوحيد وسدًّا لذرائع الشرك ولو بالعبادات الموهمة التي لا يقصدها الإنسان، كما قال لرجل قال له: ما شاء اللَّه وشئت، قال: «**أجعلتني لله ندًّا؟! بل ما شاء اللَّه وحده**»[1].

وفيه التنبيه على ما هو أولى بالمنع من نسبة السقيا إلى الأنواء كدعاء الأموات، وسؤالهم الرزق والنصر والعافية ونحو ذلك من المطالب، فإن هذا من الشرك الأكبر، سواء قالوا: إنهم شفعاؤنا إلى اللَّه، كما قال المشركون: هؤلاء شفعاؤنا عند اللَّه، أو اعتقدوا أنهم يخلقون، ويرزقون وينصرون استقلالًا على سبيل الكرامة، كما ذكره بعض عباد القبور في رسالة صنفها في ذلك؛ لأنه إذا منع من إطلاق نسبة السقيا إلى الأنواء مع عدم القصد والاعتقاد، فلأن يمنع من دعاء الأموات والتوجه إليهم في الملمات مع اعتقاد أن لهم أنواع التصرفات أولى وأحرى»[2].

قال النووي: «وأما معنى الحديث فاختلف العلماء في كفر من قال: (مطرنا بنوء كذا) على قولين:

أحدهما: هو كفر باللَّه ﷻ سالب لأصل الإيمان مخرج من ملة الإسلام. قالوا: وهذا فيمن قال ذلك، معتقدًا أن الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم، ومن اعتقد هذا فلا شك في كفره. وهذا القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء والشافعي منهم، وهو ظاهر الحديث، قالوا: وعلى هذا لو قال: (مطرنا بنوء كذا) معتقدًا أنه من اللَّه تعالى وبرحمته، وأن النوء ميقات له وعلامة اعتبارًا بالعادة فكأنه قال: مطرنا في وقت كذا، فهذا لا يكفر، واختلفوا في كراهته، والأظهر كراهته، لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها. وسبب الكراهة أنها كلمة

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٨٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، وابن ماجه (١/ ٦٨٤/ ٢١١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الشيخ الألباني (السلسلة الصحيحة رقم ١٣٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٤٦٥-٤٦٦).

مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بصاحبها ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم.

والقول الثاني: في أصل تأويل الحديث أن المراد كفر نعمة اللَّه تعالى؛ لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب، وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب، ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخيرة في الباب: «**أصبح من الناس شاكر وكافر**»[١].

قال الشيخ سليمان بن عبدالله: «والمراد بالكفر هنا هو الأصغر بنسبة ذلك إلى غير اللَّه وكفران النعمة وإن كان يعتقد أن اللَّه هو الخالق للمطر المنزل له بدليل قوله في الحديث: «**فأما من قال: مطرنا بفضل اللَّه ورحمته**» إلى آخره. فلو كان المراد هو الأكبر لقال: (أنزل علينا المطر نوء كذا) فأتى بباء السببية ليدل على أنهم نسبوا وجود المطر إلى ما اعتقدوه سببًا». اهـ[٢].

وقال أيضًا: «فبين الكفر والشرك المراد هنا بأن نسبة ذلك إلى غيره تعالى، بأن يقال: (مطرنا بنوء كذا)، قال ابن قتيبة: كانوا في الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء إما بصنعه على زعمهم، وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم، وجعله كفرًا، فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعًا في ذلك، فكفره كفر شرك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة، فليس بشرك، لكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة؛ لأنه لم يقع في شيء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر فيه على المعنيين.

وقال الشافعي: من قال: (مطرنا بنوء كذا) على معنى: (مطرنا في وقت كذا)، فلا يكون كفرًا، وغيره من الكلام أحب إليّ منه.

قلت: قد يقال: إن كلام الشافعي لا يدل على جواز ذلك، وإنما يدل على أنه لا يكون كفر شرك، وغيره من الكلام أحسن منه. أما كونه يجوز إطلاق ذلك أو لا يجوز، فالصحيح أنه لا يجوز، لما تقدم أن معنى الحديث هو نسبة السقيا إلى الأنواء لفظًا، وإن كان القائل لذلك يعتقد أن اللَّه هو المنزل للمطر، فهذا من باب الشرك الخفي في الألفاظ، كقوله: لولا فلان لم يكن كذا، وفيه معنى قوله تعالى:

---

(١) شرح مسلم (٢/ ٥٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٤٦٩).

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[1] فإن كثيرًا من النعم قد تجر الإنسان إلى شر، كالذين قالوا: (مطرنا بنوء كذا) بسبب نزول النعمة...

وفيه: أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة.

قوله: «**فأما من قال: مُطرنا بفضل اللّه ورحمته**» أي: من نسبه إلى اللّه واعتقد أنه أنزله بفضله ورحمته من غير استحقاق من العبد على ربه وأثنى به عليه، فقال: مطرنا بفضل اللّه ورحمته...

وهكذا يجب على الإنسان أن لا يضيف نعم اللّه إلى غيره، ولا يحمدهم عليها بل يضيفها إلى خالقها ومقدرها الذي أنعم بها على العبد بفضله ورحمته، ولا ينافي ذلك الدعاء لمن أحسن بها إليك، وذكر ما أولاكم من المعروف إذا سلم لك دينك، والسر في ذلك -واللّه أعلم- أن العبد يتعلق قلبه بمن يظن حصول الخير له من جهته وإن كان صنع له في ذلك، وذلك نوع شرك خفي فمنع من ذلك.

قوله: «**وأما من قال: مطرنا بنوء كذا إلى آخره**» كالصريح فيما ذكرنا أن المراد نسبة ذلك إلى غير اللّه، وإن كان يعتقد أن المنزل للمطر هو اللّه. ولهذا لم يقل: فأما من قال: أنزل علينا المطر أو أمطرنا بنوء كذا. قال المصنف -أي: الشيخ محمد بن عبد الوهاب- وفيه التفطن للكفر في هذا الموضع، يشير إلى أن المراد بالكفر هنا هو نسبة النعمة إلى غير اللّه كالنوء ونحوه على ما تقدم، ولما كان إنزال الغيث من أعظم نعم اللّه وإحسانه إلى عباده لما اشتمل عليه من منافعهم، فلا يستغنون عنه أبدًا كان شكره الواجب عليهم أن يضيفوه إلى البر الرحيم المنعم، ويشكروه فإن النفوس قد جبلت على حب من أحسن إليها، واللّه تعالى هو المحسن المنعم على الإطلاق الذي ما بالعباد من نعمة فمنه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾[2]»[3].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢١٦).

(٢) النحل: الآية (٥٣).

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص: ٤٦٩-٤٧١).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤)﴾

★ **غريب الآية:**

يستعتبون: العتبى: الموجدة. يقال: عتب عليه يعتب إذا وجد عليه. واسْتَعْتَبْتُه: إذا أنكرت منه فعلًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين من حال القوم أنهم عرفوا نعمة اللَّه ثم أنكروها وذكر أيضًا من حالهم أن أكثرهم الكافرون أتبعه بالوعيد، فذكر حال يوم القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وذلك يدل على أن أولئك الشهداء يشهدون عليهم بذلك الإنكار وبذلك الكفر، والمراد بهؤلاء الشهداء الأنبياء كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[1] وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه وجوه:

أحدها: لا يؤذن لهم في الاعتذار لقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[2].

وثانيها: لا يؤذن لهم في كثرة الكلام. **وثالثها:** لا يؤذن لهم في الرجوع إلى دار الدنيا وإلى التكلف.

ورابعها: لا يؤذن لهم في حال شهادة الشهود، بل يسكت أهل الجمع كلهم ليشهد الشهود.

وخامسها: لا يؤذن لهم في كثرة الكلام ليظهر لهم كونهم آيسين من رحمة اللَّه تعالى»[3].

---

(١) النساء: الآية (٤١).

(٢) المرسلات: الآية (٣٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٩٩).

قال الشوكاني: «وإيراد «ثم» هاهنا للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الإقناط الكلي أشد من ابتلائهم بشهادة الأنبياء»[١].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

لم يبين تعالى في هذه الآية الكريمة متعلق الإذن في قوله: ﴿لَا يُؤْذَنُ﴾ ولكنه بين في المرسلات أن متعلق الإذن الاعتذار. أي لا يؤذن لهم في الاعتذار؛ لأنهم ليس لهم عذر يصح قبوله، وذلك في قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[٢].

فإن قيل: ما وجه الجمع بين نفي اعتذارهم المذكور هنا، وبين ما جاء في القرآن من اعتذارهم. كقوله تعالى عنهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٣]، وقوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾[٤]، وقوله: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾[٥]، ونحو ذلك من الآيات.

فالجواب من أوجه:

منها: أنهم يعتذرون حتى إذا قيل لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[٦]، انقطع نطقهم ولم يبق إلا الزفير والشهيق. كما قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾[٧].

ومنها: أن نفي اعتذارهم يراد به اعتذار فيه فائدة. أما الاعتذار الذي لا فائدة فيه فهو كالعدم، يصدق عليه في لغة العرب: أنه ليس بشيء، ولذا صرح تعالى بأن المنافقين بكم في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾[٨] مع قوله عنهم: ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾[٩] أي لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم. وقال عنهم أيضًا: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾[١٠] فهذا الذي ذكره جل و علا من فصاحتهم وحدة ألسنتهم، مع تصريحه بأنهم بكم، يدل على أن الكلام الذي لا فائدة فيه كلا شيء، كما هو واضح..

---

(١) فتح القدير (٣/ ٢٦٣).
(٢) المرسلات: الآيتان (٣٥-٣٦).
(٣) الأنعام: الآية (٢٣).
(٤) النحل: الآية (٢٨).
(٥) غافر: الآية (٧٤).
(٦) المؤمنون: الآية (١٠٨).
(٧) النمل: الآية (٨٥).
(٨) البقرة: الآية (١٨).
(٩) المنافقون: الآية (٤).
(١٠) الأحزاب: الآية (١٩).

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ؛ اعلم أولًا أن استعتب تستعمل في اللغة بمعنى طلب العتبى. أي الرجوع إلى ما يرضي العاتب ويسره. تستعمل أيضًا في اللغة بمعنى أعتب: إذا أعطى العتبى؛ أي: رجع إلى ما يحب العاتب ويرضى، فإذا علمت ذلك فاعلم أن في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وجهين من التفسير متقاربي المعنى.

قال بعض أهل العلم: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا تطلب منهم العتبى، بمعنى لا يكلفون أن يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، فلا يردون إلى الدنيا ليتوبوا.

وقال بعض العلماء: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي يعتبون، بمعنى يزال عنهما العتب، ولا يعطون العتبى وهي الرضا؛ لأن اللَّه لا يرضى عن القوم الكافرين. وهذا المعنى كقوله تعالى في قراءة الجمهور: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾[1] أي: وإن يطلبوا العتبى -وهي الرضا عنهم لشدة جزعهم- فما هم من المعتبين. بصيغة اسم المفعول: أي: المعطين العتبى وهي الرضا عنهم؛ لأن العرب تقول: أعتبه إذا رجع إلى ما يرضيه ويسره»[2].

* * *

---

(١) فصلت: الآية (٢٤).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٣٠٠-٣٠١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٨٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «أخبر اللَّه تعالى في هذه الآية أن هؤلاء الكفرة الظالمين في كفرهم إذا أراهم اللَّه عذاب اللَّه وشارَفُوها وتحققوا كنه شدتها، فإن ذلك الأمر الهائل الذي نزل بهم لا يخفف بوجه ولا يؤخر عنهم، وإنما مقصد الآية الفرق بين ما يحل بهم وبين رزايا الدنيا، فإن الإنسان لا يتوقع أمرًا من خطوب الدنيا إلا وله طمع في أن يتأخر عنه وفي أن يجيئه في أخف ما يتوهم برجائه، وكذلك متى حل به كان طامعًا في أن يخف، وقد يقع ذلك في خطوب الدنيا كثيرًا، فأخبر اللَّه تعالى أن عذاب الآخرة إذا عاينه الكافر لا طماعية فيه بتخفيف ولا بتأخير»(١).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الكفار إذا رأوا العذاب لا يخفف عنهم، ولا ينظرون أي لا يمهلون، وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر. وبين أنهم يرون النار وأنها تراهم، وأنها تكاد تتقطع من شدة الغيظ عليهم. كقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٣٩ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾(٣) وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾(٤)، وقوله: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾(٥)، وقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(٦) إلى غير ذلك من الآيات»(٧).

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤١٤).
(٢) الأنبياء: الآيتان (٣٩-٤٠).
(٣) الكهف: الآية (٥٣).
(٤) الفرقان: الآية (١٢).
(٥) الملك: الآيتان (٧-٨).
(٦) البقرة: الآية (١٦٥).
(٧) أضواء البيان (٣/ ٣٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

⭑ **غريب الآية:**

أَلْقَوْا: تقول: ألقيتُ الشيءَ: إذا طرحته. وألقيتُ إليه مقالة: أي: قُلْتُهَا له.

السَّلَم: الاستسلام والانقياد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ يعني يوم القيامة ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ يعني أصنامهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ يعني أربابًا وكنا نعبدهم ونتخذهم آلهة ﴿فَأَلْقَوْا۟﴾ يعني الأصنام ﴿إِلَيْهِمُ﴾ يعني إلى عابديها ﴿ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ يعني أن الأصنام قالت للكفار: إنكم لكاذبون يعني في تسميتنا آلهة وما دعوناكم إلى عبادتنا. فإن قلت: الأصنام جماد لا تتكلم فكيف يصح منها الكلام؟. قلت: لا يبعد أن اللَّه ﷻ لما بعثها، وأعادها في الآخرة، خلق فيها الحياة والنطق والعقل حتى قالت ذلك. والمقصود من إعادتها وبعثها، أن تكذب الكفار ويراها الكفار وهي في غاية الذلة والحقارة، فيزدادون بذلك غمًا وحسرة ﴿وَأَلْقَوْا۟﴾ يعني المشركين ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ يعني أنهم استسلموا له، وانقادوا لحكمه فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم شيئًا.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ يعني وزال عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ يعني ما كانوا يكذبون في الدنيا في قولهم، إن الأصنام تشفع لهم»[١].

وقال أبو السعود: «﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ الذين كانوا يدعونهم في الدنيا وهم الأوثانُ أو الشياطينُ الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه وقارنوهم في

---

(١) تفسير الخازن (٣/ ١٣٠).

الغيّ والضلال ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ أي نعبدهم أو نطيعهم ولعلهم قالوا ذلك طمعًا في توزيع العذابِ بينهم كما ينبئ عنه قوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَوْا﴾ أي شركاؤهم ﴿إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فإن تكذيبهم إياهم فيما قالوا ليس إلا للمدافعة والتخلص عن غائلة مضمونة، وإنما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويطيعونهم لأن الأوثانَ ما كانوا راضين بعبادتهم لهم فكأن عبادتَهم لهم كما قالت الملائكةُ ﷺ: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾[(١)] يعنون أن الجنَّ هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لا نحن، أو كذبوهم في تسميتهم شركاءَ وآلهةً تنزيهًا لله سبحانه عن الشريك. والشياطينُ وإن كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه القسر والإلجاءِ كما قال إبليسُ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[(٢)] فكأنهم قالوا: ما عبدتمونا حقيقة بل إنما عبدتم أهواءكم. ﴿وَأَلْقَوْا﴾ أي الذين أشركوا ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ الاستسلامَ والانقيادَ لحُكمه العزيز الغالب بعد الاستكبار عنه في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي ضاع وبطل ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن لله سبحانه شركاءَ وأنهم ينصُرون ويشفعون لهم وذلك حين كذبوهم وتبرؤوا منهم»[(٣)].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن المشركين يوم القيامة إذا رأوا معبوداتهم التي كانوا يشركونها بالله في عبادته قالوا لربهم: ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك! وأن معبوداتهم تكذبهم في ذلك فيقولون لهم: كذبتم! ما كنتم إيانا تعبدون!

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة. كقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[(٥)]، وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم

(١) سبأ: الآية (٤١).
(٢) إبراهيم: الآية (٢٢).
(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ١٣٤-١٣٥).
(٤) الأحقاف: الآيتان (٥-٦).
(٥) مريم: الآيتان (٨١-٨٢).

بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[١]، وقوله: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾[٢]، وقوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾[٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

فإن قيل: كيف كذبتهم آلهتهم ونفوا أنهم عبدوهم، مع أن الواقع خلاف ما قالوا، وأنهم كانوا يعبدونهم في دار الدنيا من دون الله!

فالجواب: أن تكذيبهم لهم منصب على زعمهم أنهم آلهة، وأن عبادتهم حق، وأنها تقربهم إلى اللَّه زلفى. ولا شك أن كل ذلك من أعظم الكذب وأشنع الافتراء. ولذلك هم صادقون فيما ألقوا إليهم من القول، ونطقوا فيه بأنهم كاذبون. ومراد الكفار بقولهم لربهم: هؤلاء شركاؤنا، قيل ليحملوا شركاءهم تبعة ذنبهم. وقيل: ليكونوا شركاءهم في العذاب، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[٤]، وقد نص تعالى على أنهم وما يعبدونه من دون اللَّه في النار جميعًا في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[٥] الآية. وأخرج من ذلك الملائكة وعيسى وعزيرًا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[٦] الآية؛ لأنهم ما عبدوهم برضاهم. بل لو أطاعوهم لأخلصوا العبادة لله وحده -جل وعلا-.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

إلقاؤهم إلى اللَّه السلم: هو انقيادهم له، وخضوعهم. حيث لا ينفعهم ذلك كما تقدم في قوله: ﴿فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾[٧]. والآيات الدالة على ذلك كثيرة؛ كقوله: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾[٨] وقوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾[٩].

وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي غاب عنهم واضمحل ما كانوا يفترونه.

---

(١) العنكبوت: الآية (٢٥).
(٢) القصص: الآية (٦٤).
(٣) يونس: الآية (٢٨).
(٤) الأعراف: الآية (٣٨).
(٥) الأنبياء: الآية (٩٨).
(٦) الأنبياء: الآية (١٠١).
(٧) النحل: الآية (٢٨).
(٨) الصافات: الآية (٢٦).
(٩) طه: الآية (١١١).

من أن شركاءهم تشفع لهم وتقربهم إلى اللَّه زلفى. كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] الآيـة، وكـقـولـه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[2]. وضلال ذلك عنهم مذكور في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[3]»[4].

* * *

(١) يونس: الآية (١٨).

(٢) الزمر: الآية (٣).

(٣) يونس: الآية (٣٠).

(٤) أضواء البيان (٣/ ٣٠٢-٣٠٤).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الذين كفروا، أتبعه بوعيد من ضم إلى كفره صد الغير عن سبيل اللَّه. وفي تفسير قوله: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وجهان: قيل: معناه الصد عن المسجد الحرام، والأصح أنه يتناول جملة الإيمان باللَّه والرسول وبالشرائع؛ لأن اللفظ عام فلا معنى للتخصيص. وقوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ فالمعنى أنهم زادوا على كفرهم صد غيرهم عن الإيمان فهم في الحقيقة ازدادوا كفرًا على كفر، فلا جرم يزيدهم اللَّه تعالى عذابًا على عذاب، وأيضًا أتباعهم إنما اقتدوا بهم في الكفر، فوجب أن يحصل لهم مثل عقاب أتباعهم لقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[1] ولقوله ﷺ: «**من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[2]، ومن المفسرين من ذكر تفصيل تلك الزيادة، فقال ابن عباس: المراد بتلك الزيادة خمسة أنهار من نار تسيل من تحت العرش، يعذبون بها ثلاثة بالليل واثنان بالنهار، وقال بعضهم: زدناهم عذابًا بحيات وعقارب كأمثال البخت، فيستغيثون بالهرب منها إلى النار. ومنهم من ذكر لكل عقرب ثلاثمائة فقرة في كل فقرة ثلاثمائة قلة من سم. وقيل: عقارب لها أنياب كالنخل الطوال.

ثم قال تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ أي: هذه الزيادة من العذاب إنما حصلت معللة بذلك الصد، وهذا يدل على أن من دعا غيره إلى الكفر والضلال فقد عظم عذابه، فكذلك إذا دعا إلى الدين واليقين، فقد عظم قدره عند اللَّه تعالى،

(١) العنكبوت: الآية (١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٨-٣٥٩)، ومسلم (٢/ ٧٠٤-٧٠٥/ ١٠١٧)، والنسائي (٥/ ٧٩-٨٠/ ٢٥٥٣)، وابن ماجة (١/ ٧٤/ ٢٠٣) من حديث جرير بن عبد اللَّه ﷺ.

والله أعلم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان الزيادة المذكورة في الآية

* عن ابن مسعود في قوله: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ قال: «زيدوا عقارب لها أنياب كالنخل الطوال»[٢].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٠١).

(٢) ابن جرير (١٤/ ١٦٠)، والطبراني (٩/ ٢٥٨-٢٥٩/ ٩١٠٣-٩١٠٥). قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٨): «رواه الطبراني بأسانيد، ورجالُ بعضها رجال الصحيح»، وأبو يعلى (٥/ ٦٥-٦٦/ ٢٦٥٩)، والحاكم (٢/ ٣٥٦) وقال: «هذا صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

★ غريب الآية:

تبيانًا: أي بيانًا. تقول: بَيَّنْتُ الشّيء تَبْيِينًا وتِبْيَانًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يقول: نسأل نبيهم الذي بعثناه إليهم للدعاء إلى طاعتنا، وقال ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ لأنه -تعالى ذكره- كان يبعث إلى أمم أنبياءها منها: ماذا أجابوكم، وما ردّوا عليكم ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ يقول لنبيه محمد ﷺ: وجئنا بك يا محمد شاهدًا على قومك وأمتك الذين أرسلتك إليهم بما أجابوك، وماذا عملوا فيما أرسلتك به إليهم. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول: نزل عليك يا محمد هذا القرآن بيانا لكلّ ما بالناس إليه الحاجة من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن صدّق به، وعمل بما فيه من حدود اللَّه، وأمره ونهيه، فأحل حلاله، وحرّم حرامه ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ يقول: وبشارة لمن أطاع اللَّه وخضع له بالتوحيد، وأذعن له بالطاعة، يبشره بجزيل ثوابه في الآخرة، وعظيم كرامته»[1].

قال ابن كثير: «وجه اقتران قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ أن المراد -واللَّه أعلم-: إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ

(١) جامع البيان (١٤/ ١٦١).

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[(١)]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(٢)]، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[(٤)] أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة، وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو مُتَّجه حسن»[(٥)].

قال الرازي: «من الناس من قال: القرآن تبيان لكل شيء وذلك لأن العلوم إما دينية أو غير دينية، أما العلوم التي ليست دينية فلا تعلق لها بهذه الآية؛ لأن من المعلوم بالضرورة أن اللَّه تعالى إنما مدح القرآن بكونه مشتملًا على علوم الدين فأما ما لا يكون من علوم الدين فلا التفات إليه.

وأما علوم الدين فإما الأصول، وإما الفروع، أما علم الأصول فهو بتمامه موجود في القرآن وأما علم الفروع فالأصل براءة الذمة إلا ما ورد على سبيل التفصيل في هذا الكتاب، وذلك يدل على أنه لا تكليف من اللَّه تعالى إلا ما ورد في هذا القرآن، وإذا كان كذلك كان القول بالقياس باطلًا، وكان القرآن وافيًا ببيان كل الأحكام، وأما الفقهاء فإنهم قالوا: القرآن إنما كان تبيانًا لكل شيء؛ لأنه يدل على أن الإجماع وخبر الواحد والقياس حجة، فإذا ثبت حكم من الأحكام بأحد هذه الأصول كان ذلك الحكم ثابتًا بالقرآن»[(٦)].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه نزل على رسوله هذا الكتاب العظيم تبيانًا لكل شيء. وبين ذلك في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[(٧)] على القول بأن المراد بالكتاب فيها القرآن. أما على القول بأنه اللوح المحفوظ. فلا بيان بالآية. وعلى كل حال فلا شك أن القرآن فيه بيان كل شيء. والسنة كلها تدخل في آية واحدة منه. وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ

---

(١) الأعراف: الآية (٦).
(٢) الحجر: الآيتان (٩٢-٩٣).
(٣) المائدة: الآية (١٠٩).
(٤) القصص: الآية (٨٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٩٥).
(٦) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٠٢-١٠٣).
(٧) الأنعام: الآية (٣٨).

﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[(١)]»[(٢)].

وقال أيضا: «قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾:

ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم هدى ورحمة وبشرى للمسلمين. ويفهم من دليل خطاب هذه الآية الكريمة أي مفهوم مخالفتها -: أن غير المسلمين ليسوا كذلك. وهذا المفهوم من هذه الآية صرح به -جل وعلا- في مواضع أخر، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[(٣)]، وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[(٤)]، وقوله -جل وعلا-: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾[(٦)] في الموضعين»[(٧)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضائل القرآن

* عن ابن مسعود قال: «**من أراد العلم فليُثوِّر القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين**»[(٨)].

★ غريب الحديث:

فَلْيُثَوِّرِ القرآنَ: ثَوَّرَ يُثَوِّرُ، تَوَّرْتُ الأمرَ: بَحَثْتُهُ. وثوّر القرآنَ: بحث عن معانيه وعن علمه. قال شَمْر: تثوير القرآن: قراءته ومفاتشتُهُ العلماءَ به في تفسيره ومعانيه. وقيل: لِيُنَقِّر عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءته.

---

(١) الحشر: الآية (٧).
(٢) أضواء البيان (٣/ ٣٠٦).
(٣) فصلت: الآية (٤٤).
(٤) الإسراء: الآية (٨٢).
(٥) التوبة: الآيتان (١٢٤-١٢٥).
(٦) المائدة: الآية (٦٤).
(٧) أضواء البيان (٣/ ٣١٥).
(٨) أخرجه: سعيد بن منصور (١/ ٧/ ١)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦/ ٣٠٠١٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٣٢/ ١٩٦٠)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٤٦/ ٨٦٦٦). وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٦٥) وقال: «رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح».

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقول ابن مسعود أعمّ وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم»[١].

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٢).

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالعدل الذي أمر اللَّه به، يشمل العدل في حقه، وفي حق عباده. فالعدل في ذلك، أداء الحقوق كاملة موفورة، بأن يؤدي العبد ما أوجب اللَّه عليه من الحقوق المالية والبدنية، والمركبة منهما، في حقه، وفي حق عباده. ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل والٍ ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء، ونواب الخليفة، ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه اللَّه عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات، أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقًّا، ولا تغشهم، ولا تخدعهم وتظلمهم.

فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحبة، وذلك كنفع الناس، بالمال والبدن، والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع، حتى يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول، وغيره. وخص اللَّه إيتاء ذوي القربى -وإن كان داخلًا في العموم- لتأكد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك. ويدخل في ذلك، جميع الأقارب، قريبهم، وبعيدهم، لكن كل من كان أقرب، كان أحق بالبر.

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهو كل ذنب عظيم، استفحشته الشرائع والفطر، كالشرك باللَّه، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقة، والعجب، والكبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش. ويدخل في المنكر، كل ذنب ومعصية تتعلق بحق اللَّه تعالى. وبالبغي، كل عدوان على الخلق، في الدماء، والأموال، والأعراض. فصارت هذه الآية، جامعة لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبق شيء، إلا دخل

فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات. فكل مسألة مشتملة على عدل، أو إحسان، أو إيتاء ذي القربى، فهي مما أمر اللَّه به. وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر، أو بغي، فهي مما نهى اللَّه عنه. وبها يعلم حسن ما أمر اللَّه به، وقبح ما نهى عنه. وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال، وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل من كلامه، الهدى، والشفاء، والنور، والفرقان بين جميع الأشياء. ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أي: بما بينه لكم في كتابه، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يعظكم به، فتفهمونه وتعقلونه. فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه، عملتم بمقتضاه، فسعدتم سعادة لا شقاوة معها»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه يأمر خلقه بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى. وأنه ينهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي. لأجل أن يتَّعظوا بأوامره ونواهيه، ويمتثلوا أمره، ويجتنبوا نهيه. وحذف مفعول يأمر، وينهى، لقصد التعميم.

ومن الآيات التي أمر فيها بالعدل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾[3].

ومن الآيات التي أمر فيها بالإحسان قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4]، وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[5]، وقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[6]، وقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[7] وقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[8].

ومن الآيات التي أمر فيها بإيتاء ذي القربى قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[9]، وقوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[10] وقوله: ﴿وَءَاتَى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٩٩-٤٠٠).
(٢) المائدة: الآية (٨).
(٣) النساء: الآية (٥٨).
(٤) البقرة: الآية (١٩٥).
(٥) البقرة: الآية (٨٣).
(٦) القصص: الآية (٧٧).
(٧) البقرة: الآية (٨٣).
(٨) التوبة: الآية (٩١).
(٩) الروم: الآية (٣٨).
(١٠) الإسراء: الآية (٢٦).

﴿ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[١] الآية، وقوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾[٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات التي نهى فيها عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[٣] الآية، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[٤] الآية، وقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾[٥] والمنكر وإن لم يصرح باسمه في هذه الآيات، فهو داخل فيها.

ومن الآيات التي جمع فيها بين الأمر بالعدل والتفضل بالإحسان قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[٦] وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٧].

وقوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾[٨]، وقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[٩] الآية، فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[١٠]، وقوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[١١] فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[١٢] إلى غير ذلك من الآيات»[١٣].

وقال ابن عاشور: «وخَصّ اللّه بالذّكر من جنس أنواع العدل والإحسان نوعًا مُهمًّا يكثر أن يغفل الناس عنه ويتهاونوا بحقّه أو بفضله، وهو إيتاء ذي القربى فقد تقرّر في نفوس الناس الاعتناء باجتلاب الأبعدِ واتّقاء شرّه، كما تقرّر في نفوسهم

(١) البقرة: الآية (١٧٧).
(٢) البلد: الآيتان (١٤-١٥).
(٣) الأنعام: الآية (١٥١).
(٤) الأعراف: الآية (٣٣).
(٥) الأنعام: الآية (١٢٠).
(٦) النحل: الآية (١٢٦).
(٧) الشورى: الآية (٤٠).
(٨) المائدة: الآية (٤٥).
(٩) الشورى: الآية (٤١).
(١٠) الشورى: الآية (٤٣).
(١١) النساء: الآية (١٤٨).
(١٢) النساء: الآية (١٤٩).
(١٣) أضواء البيان (٣/ ٣١٦-٣١٧).

الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعوّد التساهل في حقوقه. ولأجل ذلك كثر أن يأخذوا أموال الأيتام من مواليهم، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[1]، وقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[2]، وقال: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾[3] الآية. ولأجل ذلك صرفوا معظم إحسانهم إلى الأبْعدين لاجتلاب المحمدة وحسن الذّكر بين الناس. ولم يزل هذا الخلق متفشّيًا في الناس حتى في الإسلام إلى الآن ولا يكترثون بالأقربين.

وقد كانوا في الجاهلية يقصدون بوصايا أموالهم أصحابهم من وجوه القوم، ولذلك قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[4]. فخصّ اللَّه بالذكر من بين جنس العدل وجنس الإحسان إيتاء المال إلى ذي القربى تنبيهًا للمؤمنين يومئذٍ بأن القريب أحقّ بالإنصاف من غيره، وأحقّ بالإحسان من غيره لأنه محل الغفلة، ولأن مصلحته أجدى من مصلحة أنواع كثيرة.

وهذا راجع إلى تقويم نظام العائلة والقبيلة تهيئةً بنفوس الناس إلى أحكام المواريث التي شرعت فيما بعد»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثم البغي وعقوبة الباغي إما عاجلًا وإما آجلًا

* عن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ما من ذنب أجدر أن يعجل اللَّه تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا، -مع ما يدخر له في الآخرة- مثل البغي وقطيعة الرحم»**[6].

★ **غريب الحديث:**

أجدر: بالجيم؛ أي: أحقّ وأولى.

---

(١) النساء: الآية (٢).
(٢) الإسراء: الآية (٢٦).
(٣) النساء: الآية (١٢٧).
(٤) البقرة: الآية (١٨٠).
(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٦-٢٥٧).
(٦) أحمد (٥/ ٣٦، ٣٨)، وأبو داود (٥/ ٢٠٨/ ٤٩٠٢)، والترمذي (٤/ ٥٧٣/ ٢٥١١) وقال: «حديث حسن صحيح»، ابن ماجه (٢/ ١٤٠٨/ ٤٢١١)، والحاكم (٢/ ٣٥٦) وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان (٢/ ٢٠٠/ ٤٥٥).

يدّخر: بتشديد الدال المهملة وكسر الخاء المعجمة؛ أي: ما يؤجل من العقوبة.

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو الطيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: ما يؤجل من العقوبة. «**له**» أي: لصاحب الذنب. «**مثل البغي**» أي: بغي الباغي، وهو الظلم، أو الخروج على السلطان، أو الكبر. «**وقطيعة الرحم**» أي: ومن قطع صلة ذوي الأرحام»[1].

قال المناوي: «.. لأن البغي من الكبر، وقطيعة الرحم من الاقتطاع من الرحمة، والرحم القرابة ولو غير مَحْرَم، بنحو إيذاء أو صد أو هجر؛ فإنه كبيرة كما يفيده هذا الوعيد الشديد، أما قطيعتها بترك الإحسان فليس بكبيرة»[2].

وقال أيضًا: «وحقيقة الصلة العطف والرحمة «**حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا**» لأن أصل الرحمات شجنة معلقة بالعرش، فأنزل اللَّه تعالى منها رحمة واحدة قسمها بين خلقه يترأفون بها ويتعاطفون بها، فمن قطعها فقد انقطع من رأفة اللَّه، فلذلك تعجلت عقوبته في الدنيا، ومن ثم قيل: أعجل البر صلة الرحم، وأسرع الشر عقابًا الكذب وقطيعة الرحم؛ لأن الأمانة في الأقوال كالأفعال معلقة بالإيمان، وقطيعة الرحم من الانقطاع من الرحمة المعلقة بالعرش»[3].

* عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه عز وجل كريم يحب الكرم، ويحب معالي الأخلاق ويكره سَفْسافَها**»[4].

---

(١) عون المعبود (١٣/ ١٦٧).

(٢) فيض القدير (٥/ ٤٧٨).

(٣) فيض القدير (٥/ ٤٧٩).

(٤) الحاكم (١/ ٤٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسنادين جميعًا ولم يخرجاه، وحجاج بن قمري شيخ من أهل مصر، ثقة مأمون، ولعلهما أعرضا عن إخراجه بأن الثوري أعضله»، وقال الذهبي: «تفرد به أحمد بن يونس عنه -يعني عن فضيل بن عياض- وعلته أن ابن المبارك رواه عن الثوري عن أبي حازم عن طلحة بن عبيداللَّه بن كريز: أن رسول اللَّه ﷺ -فذكر حماد بن زيد وغيره»، والطبراني في الأوسط (٣/ ٤٤٩/ ٢٩٦٤) والكبير (٦/ ١٨١/ ٥٩٢٨)، قال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٨٨): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه إلا أنه قال: يحب معالي الأخلاق، ورجال الكبير ثقات»، والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٤٠/ ٨٠١١)، قال العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٣/ ١٣٨١/ ٢٠٧٨): «رواه البيهقي من حديث سهل بن سعد متصلًا ومن رواية طلحة بن عبيداللَّه بن كريز مرسلًا ورجالهما ثقات». قال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة=

★ **غريب الحديث:**

سفسافها: السفساف: الرديء من الشيء كله والأمر الحقير.

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: « «**إن الله تعالى كريم**»؛ أي: جواد لا ينفد عطاؤه، «**يحب الكرم**» لأنه من صفاته، وهو يحب من تخلق بشيء منها كما سبق، «**ويحب معالي الأخلاق**» من الحلم ونحوه من كل خلق فاضل لما ذكر، «**ويكره**» لفظ رواية أبي نعيم: «**ويبغض**»، «**سفسافها**» بفتح أوله المهمل؛ أي: رديئها، قال ابن عبدالسلام: الصفات الإلهية ضربان: أحدهما يختص به كالأزلية والأبدية والغنى عن الأكوان، والثاني يمكن التخلق به، وهو ضربان: أحدهما لا يجوز التخلق بها كالعظمة والكبرياء، والثاني ورد الشرع بالتخلق به الكرم والحلم والحياء والوفاء، فالتخلق به بقدر الإمكان مرضٍ للرحمن، مرغم للشيطان»[1].

* * *

= (٣/ ٣٦٨): «وللحديث شاهد من رواية عامر بن سعد عن أبيه مرفوعًا نحوه أخرجه ابن عساكر وابن النجار والضياء كما في الجامع الكبير».

(١) فيض القدير (٢/ ٢٥١).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لما أمر اللَّه المؤمنين بملاك المصالح ونهاهم عن ملاك المفاسد بما أومأ إليه قوله: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢]. فكان ذلك مناسبة حسنة لهذا الانتقال الذي هو من أغراض تفنّن القرآن، وأوضح لهم أنهم قد صاروا إلى كمال وخير بذلك الكتاب المبيّن لكل شيء. لا جرم ذكّرهم الوفاء بالعهد الذي عاهدوا اللَّه عليه عندما أسلموا، وهو ما بايعوا عليه النبي ﷺ مما فيه: أن لا يعصوه في معروف. وقد كان النبي ﷺ يأخذ البيعة على كل من أسلم من وقت ابتداء الإسلام في مكّة.

وتكررت البيعة قبيل الهجرة وبعدها على أمور أخرى، مثل النّصرة التي بايع عليها الأنصار ليلة العقبة، ومثل بيعة الحديبية.

والخطاب للمسلمين في الحفاظ على عهدهم بحفظ الشريعة، وإضافة العهد إلى اللَّه لأنهم عاهدوا النبي ﷺ على الإسلام الذي دعاهم اللَّه إليه، فهم قد عاهدوا اللَّه كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[٣]، وقال: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[٤]. والمقصود: تحذير الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام من أن ينقضوا عهد الله»[٥].

وقال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأوفوا بميثاق اللَّه إذا واثقتموه، وعقده إذا عاقدتموه، فأوجبتم به على أنفسكم حقا لمن عاقدتموه به وواثقتموه عليه»[٦].

قال الشنقيطي: «أمر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة عباده أن يوفوا بعهد اللَّه

---

(١) النحل: الآية (٩١).
(٢) النحل: الآية (٩٠).
(٣) الفتح: الآية (١٠).
(٤) الأحزاب: الآية (٢٣).
(٥) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٦٠-٢٦١).
(٦) جامع البيان (١٤/ ١٦٤).

إذا عاهدوا. وظاهر الآية أنه شامل لجميع العهود فيما بين العبد وربه، وفيما بينه وبين الناس. وكرر هذا في مواضع أخر. كقوله في الأنعام: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾[1] الآية، وقوله في الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[2].

وبين في موضع آخر: أن من نقض العهد إنما يضر بذلك نفسه، وأن من أوفى به يؤته اللَّه الأجر العظيم على ذلك. وذلك في قوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[3]. وبين في موضع آخر: أن نقض الميثاق يستوجب اللعن. وذلك في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾[4] الآية»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به

* عن أنس ﷺ قال: «حالف النبي ﷺ بين الأنصار وقريش في داري التي بالمدينة»[6].

★ **فوائد الحديث:**

قال القسطلاني: «أي: عاقد النبي ﷺ بين الأنصار من الأوس والخزرج وقريش من المهاجرين على التناصر والتعاضد في داري التي بالمدينة». اهـ[7].

قال ابن بطال: «آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار أول قدومه المدينة وحالف بينهم، وكانوا يتوارثون بذلك الإخاء والحلف دون ذوي الرحم، قال سعيد بن جبير: وقد عاقد أبو بكر رجلًا فورثه. قال الحسن: كان هذا قبل آية المواريث، وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك. وقال ابن عباس: فلما نزلت: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ يعني: ورثة، نسخت ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ

---

(١) الأنعام: الآية (١٥٢). (٢) الإسراء: الآية (٣٤).
(٣) الفتح: الآية (١٠). (٤) المائدة: الآية (١٣).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٣١٩-٣٢٠).
(٦) أحمد (٣/ ١١١)، والبخاري (١٣/ ٣٧٧/ ٧٣٤٠)، ومسلم (٤/ ١٩٦٠/ ٢٥٢٩)، وأبو داود (٣/ ٣٣٨/ ٢٩٢٦) من طرق عن عاصم الأحول عن أنس به.
(٧) إرشاد الساري (١٥/ ٣٤٢).

﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾(١) يعني: من النصر والرفادة والنصيحة. وقد ذهب الميراث»(٢).

ومناسبة هذا الحديث للآية هي ذكر التعاقد وأنه ينبغي الوفاء بالعقود والعهود والحرص على إنجازها كما كان الأمر بين الأنصار والمهاجرين ﷺ أجمعين، فقد وفوا بما عاهدوا اللَّه تعالى عليه ولم يموتوا إلا وهم على العهود والوعد فجزاهم اللَّه خيرًا عن الإسلام والمسلمين.

* عن عبد اللَّه بن عمر ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن الغادر يرفع له لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان بن فلان**»(٣).

★ فوائد الحديث:

قال ابن أبي جمرة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ظاهر الحديث يدلّ على فضيحة الغادر يوم القيامة ينصب له لواء غدرته وشهرته بها على جميع العالم هناك والكلام عليه من وجوه:

منها: أن يقال: هل الغدر على عمومه في الدق والجل، أو في أشياء مخصوصة؟ وهل له عذاب غير ذلك أم ليس؟ وهل لكل غدرة تكون منه ينصب له بها لواء أو لواء واحد يكفي عن جميع غدراته؟ وهل تعرف الحكمة في ذلك أم لا؟

أما قولنا: هل الغدر على عمومه، وهو في بعض الأشياء دون بعض أما ما عدا الأشياء المحرمات والمكروهات التي قد خرجت بيانها فهو عام في الدق من الأمور والجل، وهذا باب ضيق لم يسامح فيه أحد من العلماء في ذرة حتى إنهم قالوا في الأسير إذا كان في دار الحرب وقال له العلج الذي هو في يده: عاهدني على أن لا تهرب وأنا أسرحك من الحديد، فإن عاهده وسرحه من الحديد من أجل عهده فلا يحل له الهروب بخلاف أن لو حلفه فله إذا حلفه أن يهرب ويكفر عن يمينه، أما ترى إلى حال الغادر في كتاب اللَّه ﷻ حيث قال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا

(١) النساء: الآية (٣٣).

(٢) شرح ابن بطال (٩/ ٢٧٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨)، والبخاري (١٠/ ٦٨٩/ ٦١٧٧)، ومسلم (٣/ ١٣٦٠/ ١٧٣٥[١٠])، وأبو داود (٣/ ١٨٨/ ٢٧٥٦)، والترمذي (٤/ ١٢٢/ ١٥٨١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢٤/ ٨٧٣٧)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٩/ ٢٨٧٢) من طرق عن ابن عمر بلفظ: «**إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان**».

بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[1] فأورثهم غدرهم لمولاهم أنجس الأحوال وهو النفاق.

وأما قولنا: هل له عذاب على ذلك؟ فالعذاب له بحسب ما قدر عليه وإنما تكون له هذه العلامة التي يعرف بها يوم القيامة لأنه قد شاءت الحكمة الربانية أن جعلت لكل صاحب ذنب علامة يعرف بها ذنبه مثل شاهد الزور يبعث مولعًا لسانه بالنار وآكل الربا يتخبط مثل صاحب الجنون في الدنيا والذي يطلب وليس بذي حاجة ليس في وجهه مزعة لحم، والنائحة لها سربالان، أحدهما من الجرب، والثاني من القطران، ومانع الزكاة إن كانت إبلًا يبطح لها بقاع قرقر فجاءت أوفر ما كانت تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر آخرها ردت أولاها حتى يقضي اللّه تعالى بين عباده، ثم يرى سبيله، وإن كانت غنمًا فمثل ذلك إلا أنه قال: تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، وإن كانت ماله ذهبًا أو فضة مثل شجاع أقرع يعضه في شدقيه يقول: أنا مالك أنا كنزك، والمتكبرون يبعثون مثل الذر، وآكل أموال اليتامى ألسنة النار تخرج من منافس جسده وشارب الخمر الكوز معلق في عنقه، والكذاب ينشق شدقاه كما تقدم في الحديث، والمغتابون الناس تقرض شفاههم بالمقاريض، أو كما ورد في ذلك، فهذه كلها علامات على كل ذنب حتى يعرف به صاحبه، وهي أشياء عديدة بحسب الجرائم، وكفى في ذلك قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾[2] أعاذنا اللّه من الذنوب والفضيحة بها لو لم يكن فيها إلا هذا المقدار لكان كافيًا في الردع والازدجار فكيف بالأمور الزائدة على ذلك الذي لا تحمله الجبال.

وأما قولنا: فيمن له غدرات هل تنصب له ألوية بعددها أو لواء واحد يكفي؟ ظاهر الحديث يعطي أن لكل غدرة لواء، يؤخذ ذلك من قوله ﷺ: **«يقال: هذه غدرة فلان بن فلان»**، وجاء في حديث غيره: **«بقدر غدرته»**.

وأما قولنا: هل تعرف الحكمة في كونه جعلت شهرته بنصب اللواء أم لا؟ فنقول -واللّه أعلم-: قد عرفنا من حكمة الشريعة أن العذاب على الشيء يكون بما يضاده،

---

(١) التوبة: الآيات (٧٥-٧٧).

(٢) الرحمن: الآية (٤١).

وأن الشهرة هناك من جملة العقاب أيضًا، فلما كان الغدر هنا أمرًا باطنيًا خفيًا جعلت علامته هنا أشهر الأشياء؛ لأن عادة العرب أن أشهر الأشياء عندهم إنما يكون برفع الألوية، وقد جاء في حديث آخر أنه ينصب عند استه، أو كما ورد، وهذه مبالغة في التوبيخ والخزي جزاءً وفاقًا»[١].

* عن جبير بن مطعم قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة**»[٢].

⋆ فوائد الحديث:

قال السنوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «معناه: لا يتحالف أهل الإسلام كما كان أهل الجاهلية يتحالفون، وذلك أن المتحالفين كانا يتناصران في كل شيء، فيمنع الرجل حليفه وإن كان بالانتصاف من الظالم، وأنه يؤخذ ما عليه من الحق، ولا يمنع أحد من ذلك، وحد الحدود أبطل ما كانت الجاهلية عليه من ذلك، وبقي التحالف والتعاهد على نصرة الحق وأجب ذلك على من قدر عليه. ثم إنه ﷺ خص أصحابه من ذلك بأن عقد بينهم حلفًا على ذلك كما تقدم تأكيدًا للقيام بالحق والمواساة وسمى ذلك أخوة مبالغة في التأكيد، ولذلك حكم فيه بالتوارث حتى تمكن الإسلام واطمأنت القلوب ففسخ ذلك»[٣].

قال النووي: «أما ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء، وأما المؤاخاة في الإسلام والمحالفة على طاعة اللَّه تعالى والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فهذا باقٍ لم ينسخ، وهذا معنى قوله ﷺ في هذه الأحاديث: «**وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة**»[٤].

* عن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللَّه ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: **اغزوا باسم اللَّه، في سبيل اللَّه قاتلوا من كفر باللَّه، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا**

---

(١) بهجة النفوس (٤/ ١٧٤-١٧٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٣)، ومسلم (٤/ ١٩٦١/ ٢٥٣٠)، وأبو داود (٣/ ٣٣٨/ ٢٩٢٥)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٩٠/ ٦٤١٨).

(٣) مكمل إكمال الإكمال (٨/ ٤٥٤).

(٤) شرح مسلم (١٦/ ٦٧).

ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال)، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم اللَّه الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن باللَّه وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة اللَّه وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة اللَّه ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم، أهون من أن تخفروا ذمة اللَّه وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم اللَّه، فلا تنزلهم على حكم اللَّه، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم اللَّه فيهم أم لا»[1].

★ غريب الحديث:

السرية: دون الجيش، وهي القطعة تخرج منه تغير وترجع إليه.

الذمة: العهد.

تخفروا: تنقضوا.

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذمة: العهد، هذا على الاحتياط إذ قد يخفرها من لا يعرف حقها وما في ذلك من جهلة الأعراب وسواد الجيش». اهـ[2].

وقال القرطبي: «الذمة: العهد، و«تخفروا»: تنقضوا، وهو رباعي. يقال: أخفرت الرجل: نقضت عهده، وخفرته: أجرته، ومعناه: أنه خاف من نقض من لا يعرف حق الوفاء بالعهد، كجهلة الأعراب، فكأنه يقول: إن وقع نقض من مُتعدّ

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٥٢، ٣٥٨)، ومسلم (٣/ ١٣٥٧-١٣٥٨/ ١٧٣١)، وأبو داود (٣/ ٨٣/ ٢٦١٢/ ٨٥/ ٢٦١٣) مطولًا ومختصرًا، والترمذي (٤/ ١٣٨-١٣٩/ ١٦١٧)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٣/ ٢٨٥٨).

(٢) إكمال المعلم (٦/ ٣٤).

كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله، والله تعالى أعلم»[١].

* عن سليم بن عامر -رجل من حمير- قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر، فنظروا فإذا عمرو بن عبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء»** فرجع معاوية[٢].

⋆ غريب الحديث:

وفاء لا غدر: بالرفع على أن (لا) للعطف؛ أي: الواجب عليك وفاء لا غدر.

يحلها: بضم الحاء من الحل بمعنى نقض العهد.

أمدها: الأمد، بفتحتين، بمعنى الغاية.

ينبذ: بكسر الباء؛ أي: يرمي عهدهم.

على سواء: أي: ليكون خصمه مساويًا معه في النقض كي لا يكون ذلك منه غدرًا.

⋆ فوائد الحديث:

قال أبو الطيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما كره عمرو بن عبسة ذلك لأنه إذا هادنهم إلى مدة وهو مقيم في وطنه فقد صارت مدة مسيره بعد انقضاء المدة المضروبة كالمشروط مع المدة في أن لا يغزوهم فيها، فإذا سار إليهم في أيام الهدنة كان إيقاعه قبل الوقت الذي يتوقعونه، فعدّ ذلك عمرو غدرًا. وأما إن نقض أهل الهدنة بأن ظهرت منهم خيانة فله أن يسير إليهم على غفلة منهم»[٣].

* * *

---

(١) المفهم (٣/ ٥١٦-٥١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١١١)، وأبو داود (٣/ ١٩٠/ ٢٧٥٩)، والترمذي (٤/ ١٢١/ ١٥٨٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن حبان (الإحسان ١١/ ٢١٥/ ٤٨٧١).

(٣) عون المعبود (٧/ ٤٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تنقضوا: النقض ضد الإبرام، وهو فك أجزاء الشيء.

توكيدها: أي تثبيتها. تقول: أَكَّدْتُ ووَكَّدْتُ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: « ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يقول: ولا تخالفوا الأمر الذي تعاقدتم فيه الأيمان، يعني بعد ما شددتم الأيمان على أنفسكم، فتحنثوا في أيمانكم وتكذبوا فيها وتنقضوها بعد إبرامها، يقال منه: وكَّد فلان يمينه يوكدها توكيدًا: إذا شددها وهي لغة أهل الحجاز، وأما أهل نجد، فإنهم يقولون: أكدتها أؤكدها تأكيدا. وقوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ يقول: وقد جعلتم اللَّه بالوفاء بما تعاقدتم عليه على أنفسكم راعيًا يرعى الموفى منكم بعهد اللَّه الذي عاهد على الوفاء به والناقض.

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل على اختلاف بينهم فيمن عني بهذه الآية وفيما أنزلت؛ فقال بعضهم: عني بها الذين بايعوا رسول اللَّه ﷺ على الإسلام، وفيهم أنزلت. .

وقال آخرون: نزلت في الحِلْف الذي كان أهل الشرك تحالفوا في الجاهلية، فأمرهم اللَّه ﷻ في الإسلام أن يوفّوا به ولا ينقضوه.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللَّه تعالى أمر في هذه الآية عباده بالوفاء بعهوده التي يجعلونها على أنفسهم، ونهاهم عن نقض الأيمان بعد توكيدها على أنفسهم لآخرين بعقود تكون بينهم بحقّ مما لا يكرهه اللَّه. وجائز أن تكون نزلت في الذين بايعوا رسول اللَّه ﷺ بنهيهم عن نقض بيعتهم حذرا من قلة عدد

المسلمين وكثرة عدد المشركين، وأن تكون نزلت في الذين أرادوا الانتقال بحلفهم عن حلفائهم لقلة عددهم في آخرين لكثرة عددهم، وجائز أن تكون في غير ذلك. ولا خبر تَثْبُت به الحجة أنها نزلت في شيء من ذلك دون شيء؛ ولا دلالة في كتاب ولا حجة عقل أيّ ذلك عُنِيَ بها، ولا قول في ذلك أولى بالحق مما قلنا لدلالة ظاهره عليه، وأن الآية كانت قد نزلت لسبب من الأسباب، ويكون الحكم بها عامًّا في كلّ ما كان بمعنى السبب الذي نزلت فيه..

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن اللَّه أيها الناس يعلم ما تفعلون في العهود التي تعاهدون اللَّه من الوفاء بها والأحلاف والأيمان التي تؤكدونها على أنفسكم، أتبرّون فيها أم تنقضونها وغير ذلك من أفعالكم، مُحْصٍ ذلك كله عليكم، وهو مسائلكم عنها وعما عملتم فيها، يقول: فاحذروا اللَّه أن تلقوه وقد خالفتم فيها أمره ونهيه، فتستوجبوا بذلك منه ما لا قِبَل لكم به من أليم عقابه»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيمن حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها

* عن أبي موسى الأشعري قال: «أتيت النبي ﷺ في رهط من الأشعريين أستحمله، فقال: **واللَّه لا أحملكم، وما عندي ما أحملكم عليه** قال: ثم لبثنا ما شاء اللَّه أن نلبث، ثم أتي بثلاث ذود غر الذرى فحملنا عليها، فلما انطلقنا قلنا -أو قال بعضنا- واللَّه لا يبارك لنا، أتينا النبيﷺ نستحمله فحلف أن لا يحملنا ثم حملنا فارجعوا بنا إلى النبي ﷺ فنذكره، فأتيناه فقال: **ما أنا حملتكم بل اللَّه حملكم، وإني واللَّه -إن شاء الله- لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير، أو أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني**»[2].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٦٤-١٦٥).

(٢) أخرجه: البخاري (١١/ ٦٣٤/ ٦٦٢٣)، ومسلم (٣/ ١٢٦٨-١٢٦٩/ ١٦٤٩)، وأبو داود (٣/ ٥٨٣-٥٨٤/ ٣٢٧٦)، والنسائي (٧/ ١٣-١٤/ ٣٧٨٩)، وابن ماجه (١/ ٦٨١/ ٢١٠٧) من حديث أبي موسى الأشعري ورواية أبي داود مختصرة.

- تقدّم شرح هذا الحديث في سورة المائدة.

* عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**»[١].

★ فوائد الحديث:

اليمين الغموس سميت بذلك لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار.

قال الحافظ ابن حجر: «قيل الأصل في ذلك أنهم كانوا إذا أرادوا أن يتعاهدوا أحضروا جفنة فجعلوا فيها طيبًا أو دمًا أو رمادًا ثم يحلفون عندما يدخلون أيديهم فيها ليتم لهم بذلك المراد من تأكيد المراد. فسميت تلك اليمين إذا غدر صاحبها غموسًا لكونه بالغ في نقض العهد، وكأنها على هذا مأخوذة من اليد المغموسة. وقال ابن التين: اليمين الغموس التي ينغمس صاحبها في الإثم. ولذلك قال مالك: لا كفارة فيها. واحتج أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾[٢] وهذه يمين غير منعقدة لأن المنعقد ما يمكن حله، ولا يتأتى في اليمين الغموس البر أصلًا»[٣].

- اختلف في اليمين الغموس هل هي يمين منعقدة أم لا؟

قال النووي: «فمذهبنا أنها يمين منعقدة؛ لأنها مكتسبة بالقلب معقودة بخبر مقرونة باسم الله تعالى وفيها الكفارة»[٤].

وقال ابن عبد البر: «وروي عن جماعة من السلف أن اليمين الغموس لا كفارة لها، وبه قال جمهور فقهاء الأمصار؛ وكان الشافعي والأوزاعي ومعمر وبعض التابعين فيما حكى المروزي يقولون: إن فيها الكفارة فيما بينه وبين الله في حنثه، فإن اقتطع بها مال مسلم، فلا كفارة لذلك إلا أداء ذلك والخروج عنه لصاحبه، ثم يكفر عن يمينه بعد خروجه مما عليه في ذلك.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٠١)، والبخاري (١١/ ٦٨١/ ٦٦٧٥)، والترمذي (٥/ ٢٢٠/ ٣٠٢١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٢٢/ ١١١٠١).

(٢) المائدة: الآية (٨٩).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٤٠٩).

(٤) المجموع للنووي (١٩/ ٢٢٥).

وقال غيرهم من الفقهاء منهم مالك والثوري وأبو حنيفة: لا كفارة في ذلك؛ وعليه أن يؤدي ما اقتطعه من مال أخيه، ثم يتوب إلى اللَّه ويستغفره، وهو فيه بالخيار، إن شاء غفر له؛ وإن شاء عذبه، وأما الكفارة فلا مدخل لها عندهم في اليمين الكاذبة إذا حلف بها صاحبها عمدًا متعمدًا للكذب، وهذا لا يكون إلا في الماضي أبدًا»[1].

* * *

(١) فتح البر (١/ ٢٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أنكاثًا: أنقاضًا. والنَّكْثُ: النّقضُ، وهو كناية عن عدم الوفاء بالعهد.

دخلا: دغلا وخديعة.

أربى: زنة أفعل من الربا وهو الزيادة. وقيل: معناه أغنى وأعلى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: « ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كَٱلَّتِى﴾ تغزل غزلًا قويًّا فإذا استحكم وتم ما أريد منه نقضته فجعلته ﴿أَنكَـٰثًا﴾ فتعبت على الغزل ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة.

وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم، تعقدون الأيمان المؤكدة وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفًا غير قادر على الآخر أتمها لا لتعظيم العقد واليمين بل لعجزه، وإن كان قويًّا يرى مصلحته الدنيوية في نقْضِها نَقَضَها غير مبال بعهد الله ويمينه. كل ذلك دورانا مع أهوية النفوس، وتقديمًا لها على مراد الله منكم، وعلى المروءة الإنسانية، والأخلاق المرضية لأجل أن تكون أمة أكثر عددا وقوة من الأخرى.

وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم الله به حيث قيض من أسباب المحن ما يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي»[١].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٤٨).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿أَنكَـٰثًا﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر: نقضت غزلها أنكاثا؛ أي: أنقاضا. ويحتمل أن يكون بدلًا عن خبر كان؛ أي: لا تكونوا أنكاثا، جمع نِكْث من نَاكِث؛ ولهذا قال بعده: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خديعة ومكرًا، ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: يحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غَدَرتم. فنهى اللَّه عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى»[1].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إنما يختبركم اللَّه بأمره إياكم بالوفاء بعهد اللَّه إذا عاهدتم، ليتبين المطيع منكم المنتهي إلى أمره ونهيه من العاصي المخالف أمره ونهيه ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وليبينن لكم أيها الناس ربكم يوم القيامة إذا وردتم عليه بمجازاة كلّ فريق منكم على عمله في الدنيا، المحسن منكم بإحسانه والمسيء بإساءته، ﴿مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ والذي كانوا فيه يختلفون في الدنيا أن المؤمن باللَّه كان يقرّ بوحدانية اللَّه ونبوّة نبيه، ويصدق بما ابتعث به أنبياءه، وكان يكذّب بذلك كله الكافر فذلك كان اختلافهم في الدنيا الذي وعد اللَّه -تعالى ذكره- عباده أن يبينه لهم عند ورودهم عليه بما وصفنا من البيان»[2].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٩٩).

(٢) جامع البيان (١٤/ ١٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولو شاء ربكم أيها الناس للطف بكم بتوفية من عنده، فصرتم جميعًا جماعة واحدة، وأهل ملة واحدة لا تختلفون ولا تفترقون، ولكنه -تعالى ذكره- خالف بينكم، فجعلكم أهل ملل شتى، بأن وفَّق هؤلاء للإيمان به، والعمل بطاعته، فكانوا مؤمنين، وخذل هؤلاء فحَرَمهم توفيقه فكانوا كافرين، وليسألنكم اللَّه جميعا يوم القيامة عما كنتم تعملون في الدنيا فيما أمركم ونهاكم، ثم ليجازينكم جزاء المطيع منكم بطاعته، والعاصي له بمعصيته»[١].

قال الخازن: « ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني على ملة واحدة ودين واحد، وهو دين الإسلام ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ يعني بخذلانه إياه عدلًا منه ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بتوفيقه إياه فضلًا منه، وذلك مما اقتضته الحكمة الإلهية لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، وهو قوله تعالى ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني في الدنيا فيجازى المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته أو يغفر له»[٢].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[٣] أي: لوفق بينكم. ولما جعل اختلافا ولا تباغُضَ ولا شحناء ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾[٤]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطْمير»[٥].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٦٨).
(٢) تفسير الخازن (٣/ ١٣٢).
(٣) يونس: الآية (٩٩).
(٤) هود: الآيتان (١١٨-١١٩).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما حذر في الآية الأولى عن نقض العهود والأيمان على الإطلاق، حذر في هذه الآية فقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الأيمان، وإلا لزم التكرير الخالي عن الفائدة في موضع واحد، بل المراد نهي أولئك الأقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها، فلهذا المعنى قال المفسرون: المراد من هذه الآية نهي الذين بايعوا رسول اللَّه ﷺ عن نقض عهده؛ لأن هذا الوعيد وهو قوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ لا يليق بنقض عهد قبله، وإنما يليق بنقض عهد رسول اللَّه ﷺ على الإيمان به وشرائعه. وقوله: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ مثل يذكر لكل من وقع في بلاء بعد عافية، ومحنة بعد نعمة، فإن من نقض عهد الإسلام فقد سقط عن الدرجات العالية ووقع في مثل هذه الضلالة، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي العذاب: ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ﴾ أي بصدكم: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي ذلك السوء الذي تذوقونه سوء عظيم وعقاب شديد»[1].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١١٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولا تنقضوا عهودكم أيها الناس، وعقودكم التي عاقدتموها من عاقدتم مؤكِّديها بأيمانكم، تطلبون بنقضكم ذلك عرضًا من الدنيا قليلًا ولكن أوفوا بعهد اللَّه الذي أمركم بالوفاء به، يثبكم اللَّه على الوفاء به، فإن ما عند اللَّه من الثواب لكم على الوفاء بذلك، هو خير لكم إن كنتم تعلمون، فضل ما بين العِوَضين اللذين أحدهما الثمن القليل، الذي تشترون بنقض عهد اللَّه في الدنيا، والآخر الثواب الجزيل في الآخرة على الوفاء به»[1].

قال الرازي: «يعني أنكم وإن وجدتم على نقض عهد الإسلام خيرًا من خيرات الدنيا، فلا تلتفتوا إليه؛ لأن الذي أعده اللَّه تعالى على البقاء على الإسلام خير وأفضل وأكمل مما يجدونه في الدنيا على نقض عهد الإسلام إن كنتم تعلمون التفاوت بين خيرات الدنيا وبين خيرات الآخرة، ثم ذكر الدليل القاطع على أن ما عند اللَّه خير مما يجدونه من طيبات الدنيا فقال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾»[2].

قال القرطبي: «نهى عن الرشا وأخذ الأموال على نقض العهد، أي لا تنقضوا عهودكم لعرض قليل من الدنيا.

وإنما كان قليلًا وإن كثر لأنه مما يزول، فهو على التحقيق قليل»[3].

قوله: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **قال القنوجي**: «أي: ما عنده من النصر في الدنيا والغنائم والرزق الواسع، وما عنده في الآخرة من نعيم

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٦٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١١٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٧٣).

الجنة الذي لا يزول ولا ينقطع ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ثم علل النهي بأن يشتروا بعهد اللَّه ثمنًا قليلا بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وتميزون بين الأشياء»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من الوعيد في اليمين الفاجرة

* عن عبداللَّه ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي اللَّه وهو عليه غضبان». فأنزل اللَّه تصديق ذلك:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾(٢) إلى آخر الآية. فدخل الأشعث بن قيس فقال: ما حدثكم أبو عبد الرحمن؟ فقالوا: كذا وكذا، قال: فيّ أنزلت، كانت لي بئر في أرض ابن عم لي فأتيت رسول اللَّه ﷺ فقال: **«بَيِّنَتُك أو يمينه»**، قلت: إذًا يحلف عليها يا رسول اللَّه. فقال رسول اللَّه ﷺ: **«من حلف على يمين صَبْر وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي اللَّه يوم القيامة وهو عليه غضبان»**(٣).

★ غريب الحديث:

يمين صبر: يمين الصبر هي التي تلزم ويجيز عليها حالفها. يقال: أصبره اليمين أحلفه بها في مقاطع الحق.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: وبهذه الآيات والحديث احتج جمهور العلماء في أن اليمين الغموس لا كفارة فيها؛ لأنه ﷺ ذكر في هذه اليمين المقصود بها الحنث والعصيان العقوبة والإثم ولم يذكر هاهنا كفارة، ولو كان هاهنا كفارة لذكرها كما ذكر في اليمين المعقودة فقال: **«فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير»**(٤) ويقوي هذا

---

(١) فتح البيان (٧/ ٣١٠-٣١١).

(٢) آل عمران: الآية (٧٧).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٩)و(٥/ ٢١١)، والبخاري (١١/ ٦٨٣-٦٨٤/ ٦٦٧٦)، ومسلم (١/ ١٢٢، ١٢٣/ ١٣٨)، وأبو داود (٣/ ٥٦٥/ ٣٢٤٣)، والترمذي (٣/ ٥٦٩/ ١٢٦٩)، وابن ماجه (٢/ ٧٧٨/ ٢٣٢٣)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٨٤-٤٨٥/ ٥٩٩١-٥٩٩٢).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦١) ومسلم (٣/ ١٢٧٢/ ١٦٥٠[١٢]) والترمذي (٤/ ٩٠-٩١/ ١٥٣٠) والنسائي في الكبرى (٣/ ١٢٦-١٢٧/ ٤٧٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

المعنى قوله ﷺ في المتلاعنين بعد تكرار أيمانهما: «**الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟**»(١) ولم يوجب كفارة، ولو وجبت لذكرها كما قال: «**هل منكما تائب؟**».

قال ابن المنذر: «والأخبار دالة على أن اليمين التي يحلف بها الرجل يقتطع بها مالًا حرامًا هي أعظم أن يكفرها ما يكفر اليمين، ولا نعلم سنة تدل على قول من أوجب فيها الكفارة، بل هي دالة على قول من لم يوجبها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾(٢) قال ابن عباس: هو الرجل يحلف ألا يصل قرابته، فجعل الله له مخرجًا في التكفير، وأمره ألا يعتل بالله، ويكفر عن يمينه ويبر»(٣).

وقال الخطابي: «وفيه حجة لمن لم ير في الغموس من كفارة»(٤).

وقال الحافظ: «**فيه التشديد على من حلف باطلًا ليأخذ حق مسلم وهو عند الجميع محمول على من مات من غير توبة صحيحة وعند أهل السنة محمول على من شاء الله أن يعذبه كما تقدم تقريره مرارًا**»(٥).

وقال الطيبي: «فيه أن الكذب في الشهادة نوع من أنواع الفجور و«**يقتطع بها**» حال من الراجع إلى المبتدأ في «**فاجر**» فهي حال مؤكدة تصويرًا لشناعتها، وهو المعني باليمين الغموس، وذلك لأن من ارتكب هذه الجريمة قد بلغ في الاعتداء الغاية القصوى، حيث انتهك حرمة بعد حرمة إحداها: اقتطاع مال لم يكن له ذلك. والثانية: الاستحقاق بحرمة وجب عليه رعايتها، وهي حرمة الإسلام وحق الأخوة. والثالثة: الإقدام على اليمين الفاجرة»(٦).

* * *

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥٧٤/ ٤٧٤٧) وأبو داود (٢/ ٦٨٦/ ٢٢٥٤) والترمذي (٥/ ٣٠٩-٣١٠/ ٣١٧٩) وابن ماجه (١/ ٦٦٨/ ٢٠٦٧).

(٢) البقرة: الآية (٢٢٤).

(٣) شرح ابن بطال (٦/ ١٣٣-١٣٤).

(٤) أعلام الحديث (٤/ ٢٢٨٧).

(٥) فتح الباري (١١/ ٦٨٩).

(٦) الكاشف لحقائق السنن (٨/ ٢٦٠٩).

قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

★ غريب الآية:

يَنْفَد: يفنى. من النفاد، وهو الفناء. تقول: نفد الشيء يَنْفَدُ إذا فني.

باق: أي موجود على الدوام.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «جملة ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ تذييل وتعليل لمضمون جملة ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ بأن ما عند اللَّه لهم خير متجدّد لا نفاد له، وأن ما يعطيهم المشركون محدود نافد لأن خزائن الناس صائرة إلى النفاد بالإعطاء وخزائن اللَّه باقية.

والنفاد: الانقراض. والبقاء: عدم الفناء.

أي ما عند اللَّه لا يفنى فالأجدر الاعتماد على عطاء اللَّه الموعود على الإسلام دون الاعتماد على عطاء الناس الذين ينفَد رزقهم ولو كَثُر»[1].

قال ابن جرير: «بين -تعالى ذكره- فرْق ما بين العِوَضين وفضل ما بين الثوابين، فقال: ما عندكم أيها الناس مما تتملكونه في الدنيا، وإن كَثُر فنافدٌ فان، وما عند اللَّه لمن أوفى بعهده وأطاعه من الخيرات باق غير فانٍ، فلما عنده فاعملوا وعلى الباقي الذي لا يفنى فاحرصوا. وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وليثيبنّ اللَّه الذين صبروا على طاعتهم إياه في السّراء والضرّاء، ثوابهم يوم القيامة على صبرهم عليها، ومسارعتهم في رضاه، بأحسن ما كانوا يعملُون من الأعمال دون أسوئها، وليغفرنّ اللَّه لهم سيئها بفضله»[2].

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٧١).

(٢) جامع البيان (١٤/ ١٦٩-١٧٠).

قال الرازي: «وفيه بحثان:

البحث الأول: الحس شاهد بأن خيرات الدنيا منقطعة، والعقل دل على أن خيرات الآخرة باقية، والباقي خير من المنقطع، والدليل عليه أن هذا المنقطع إما أن يقال: إنه كان خيرًا عاليًا شريفًا أو كان خيرًا دنيًّا خسيسًا، فإن قلنا: إنه كان خيرًا عاليًا شريفًا فالعلم بأنه سينقطع يجعله منغصًا حال حصوله، وأما حال حصول ذلك الانقطاع فإنها تعظم الحسرة والحزن، وكون تلك النعمة العالية الشريفة كذلك ينغص فيها ويقلل مرتبتها وتفتر الرغبة فيها، وأما إن قلنا: إن تلك النعمة المنقطعة كانت من الخيرات الخسيسة فهمنا من الظاهر أن ذلك الخير الدائم وجب أن يكون أفضل من ذلك الخير المنقطع، فثبت بهذا أن قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ برهان قاطع على أن خيرات الآخرة أفضل من خيرات الدنيا.

البحث الثاني: أن قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ يدل على أن نعيم أهل الجنة باق لا ينقطع. وقال جهم بن صفوان: إنه منقطع والآية حجة عليه.

واعلم أن المؤمن إذا آمن بالله فقد التزم شرائع الإسلام والإيمان، وحينئذ يجب عليه أمران: أحدهما: أن يصبر على ذلك الالتزام وأن لا يرجع عنه، وأن لا ينقضه بعد ثبوته. والثاني: أن يأتي بكل ما هو من شرائع الإسلام ولوازمه.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى رغب المؤمنين في القسم الأول وهو الصبر على ما التزموه، فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾ أي على ما التزموه من شرائع الإسلام ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي يجزيهم على أحسن أعمالهم، وذلك لأن المؤمن قد يأتي بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات ولا شك أنه على فعل المندوبات والواجبات يثاب لا على فعل المباحات، فلهذا قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ثم إنه تعالى رغب المؤمنين في القسم الثاني وهو الإتيان بكل ما كان من شرائع الإسلام فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1]»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾.

---

(١) النحل: الآية (٩٧).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١١٤).

بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن ما عنده من نعيم الجنة باق لا يفنى.
وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[2]، وقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أقسم -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه سيجزي الذين صبروا أجرهم -أي جزاء عملهم- بأحسن ما كانوا يعلمون.

وبين في موضع آخر: أنه جزاء بلا حساب؛ كما في قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[4].

تنبيه: استنبط بعض العلماء من هذه الآية الكريمة: أن فعل المباح حسن؛ لأن قوله في هذه الآية: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ صيغة تفضيل تدل على المشاركة، والواجب أحسن من المندوب، والمندوب أحسن من المباح. فيجازون بالأحسن الذي هو الواجب والمندوب، دون مشاركهما في الحسن وهو المباح»[5].

* * *

(١) هود: الآية (١٠٨).
(٢) ص: الآية (٥٤).
(٣) الكهف: الآيتان (٢-٣).
(٤) الزمر: الآية (١٠).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٣٢٠).

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: « ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: عملًا صالحًا أيَّ عملٍ كان، وهذا شروعٌ في تحريض كافةِ المؤمنين على كل عملٍ صالح غِبَّ ترغيبِ طائفةٍ منهم في الثبات على ما هم عليه من عمل صالحٍ مخصوصٍ دفعًا لتوهم اختصاصِ الأجر الموفورِ بهم وبعملهم المذكور وقوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ مبالغةٌ في بيان شمولِه للكل ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قيّده به إذ لا اعتدادَ بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب أو تخفيفِ العذاب»[1].

قال السعدي: «فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها؛ بل لا تسمى أعمالا صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مقتض لها فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ وذلك بطمأنينة قلبه وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه اللَّه رزقًا حلالًا طيبًا من حيث لا يحتسب ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من أصناف اللذات مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيؤتيه اللَّه في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة»[2].

قال ابن كثير: «هذا وعد من اللَّه تعالى لمن عمل صالحًا -وهو العمل المتابع لكتاب اللَّه تعالى وسنة نبيه من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن باللَّه ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند اللَّه -بأن يحييه اللَّه حياة طيبة في الدنيا

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ١٣٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٤٤٩).

وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب.

وعن علي بن أبي طالب ﵁ أنه فسرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس، وعِكْرِمة، ووهب بن منبه.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أنها السعادة.

وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة.

وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضا: هي العمل بالطاعة والانشراح بها. والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن كل عامل سواء كان ذكرًا أو أنثى عمل عملًا صالحًا فإنه -جل وعلا- يُقْسم ليحيينه حياة طيبة، وليجزينه أجره بأحسن ما كان يعمل.

اعلم **أولًا**: أن القرآن العظيم دل على أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور:

الأول: موافقته لما جاء به النَّبي ﷺ؛ لأن اللَّه يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٢].

الثاني: أن يكون خالصًا لله تعالى؛ لأن اللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٣]، ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾[٤].

الثالث: أن يكون مبنيًا على أساس العقيدة الصحيحة؛ لأن اللَّه يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فقيَّد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح.

وقد أوضح -جل وعلا- هذا المفهوم في آيات كثيرة، كقوله في عمل غير

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٠١).
(٢) الحشر: الآية (٧).
(٣) البينة: الآية (٥).
(٤) الزمر: الآيتان (١٤-١٥).

المؤمن: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[(١)]، وقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾[(٣)] الآية، وقوله: ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾[(٤)]، إلى غير ذلك من الآيات.

واختلف العلماء في المراد بالحياة الطيبة في هذه الآية الكريمة.

فقال قوم: لا تطيب الحياة إلا في الجنة، فهذه الحياة الطيبة في الجنة؛ لأن الحياة الدنيا لا تخلو من المصائب والأكدار، والأمراض والآلام والأحزان، ونحو ذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[(٥)]. والمراد بالحيوان: الحياة.

وقال بعض العلماء: الحياة الطيبة في هذه الآية الكريمة في الدنيا، وذلك بأن يوفق الله عبده إلى ما يرضيه، ويرزقه العافية والرزق الحلال؛ كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[(٦)].

قال مقيده -عفا الله عنه-: وفي الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بالحياة الطيبة في الآية: حياته في الدنيا حياة طيبة. وتلك القرينة هي أننا لو قدرنا أن المراد بالحياة الطيبة: حياته في الجنة في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ صار قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تكرارًا معه؛ لأن تلك الحياة الطيبة هي أجر عملهم. بخلاف ما لو قدرنا أنها في الحياة الدنيا. فإنه يصير المعنى: فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة، ولنجزينه في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، وهو واضح»[(٧)].

قلت: ما ذكره الإمام الشنقيطي في شرط قبول العمل هو ما قرره شيوخ الإسلام في كتبهم من المتابعة والإخلاص، وقد نبه على شرط مهم وهو حسن المعتقد، ولا شك أن هذا التنبيه له أهميته، فسوء المعتقد يفسد الأعمال ويعرضها للبطلان والردّ، كما قال الرسول ﷺ: «من أحدث فيها أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله

---

(١) الفرقان: الآية (٢٣). (٢) هود: الآية (١٦).
(٣) النور: الآية (٣٩).
(٤) إبراهيم: الآية (١٨). (٥) العنكبوت: الآية (٦٤).
(٦) البقرة: الآية (٢٠١).
(٧) أضواء البيان (٣/ ٣٢١-٣٢٢).

والملائكة والناس أجمعين»[١]، وقوله ﷺ: «وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة»[٢]، فالحدث في الدين مهما قلّ فإنه يعرّض صاحبه لغضب اللَّه وردّ عمله سواء كان ذلك في الصفات أو في القدر كما قال ابن عمر رضي الله عنهما لما بلغته قولة معبد في القدر: «أخبرهم أني بريء منهم، وهم مني براء»[٣]. وكذلك من أحدث في الإيمان، كما قال ﷺ في الخوارج: «يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[٤]، وكذلك الذين طعنوا في أصحاب النبي ﷺ؛ فإن النبي ﷺ تبرأ ممن تكلم في أصحابه، وقد أنزل اللَّه فيهم قرآنًا يتلى، وفيه رضاه عنهم، وهم الذين نصروا رسول اللَّه ﷺ ودينه، وبفضل اللَّه ثم بفضلهم وصل إلينا الإسلام، ولهذا قال أبو جعفر الطحاوي: «فحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان» وهكذا الإحداث في العبادات العملية كالأذكار والصلوات والحج والعمرة وغيرها، جاءت نصوص في التحذير من الابتداع فيها، فتصفية المعتقد وتصحيحه أساس في قبول العمل، وأساس في قيام الإسلام، فمن تهاون فيه وقع على أم رأسه. واللَّه المستعان.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الحياة الطيبة تكون في الدنيا وفي الآخرة

* عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: «هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع،

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١١٩)، والبخاري (٦/ ٣٣٦/ ٣١٧٢)، ومسلم (٢/ ٩٩٤-٩٩٨/ ١٣٧٠)، وأبو داود (٢/ ٥٢٩-٥٣١/ ٢٠٣٤)، والترمذي (٤/ ٣٨١-٣٨٢/ ٢١٢٧)، والنسائي (٨/ ٣٨٧-٣٨٨/ ٤٧٤٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٣-١٥/ ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٣/ ٢٦٧٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ١٦-١٧/ ٤٣-٤٤)، وصححه ابن حبان (١/ ١٧٨-١٧٩/ ٥)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٦) وصححه، ووافقه الذهبي، كلهم من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٦-٣٨/ ٨)، وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥)، والترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠)، والنسائي (٨/ ٤٧٢-٤٧٥/ ٥٠٠٥)، وابن ماجه (١/ ٢٤-٢٥/ ٦٣)، وهو حديث جبريل الطويل.

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٦٨و٧٣)، والبخاري (٦/ ٤٦٣-٤٦٤/ ٣٣٤٤)، ومسلم (٢/ ٧٤١-٧٤٢/ ١٠٦٤)، وأبو داود (٥/ ١٢١-١٢٣/ ٤٧٦٤)، والنسائي (٥/ ٩٢-٩٣/ ٢٥٧٧) كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وإني أتكشّف، فادع اللَّه لي. قال: **إن شئت صبرتِ ولك الجنة، وإن شئت دعوتُ اللَّه أن يعافيك**. فقالت: أصبرُ. فقالت: إني أتكشّف فادع اللَّه لي أن لا أتكشف. فدعا لها». حدثنا محمد أخبرنا مخلد عن ابن جريج أخبرني عطاء أنه رأى أم مزفر، تلك المرأة الطويلة السوداء، على ستر الكعبة[1].

★ غريب الحديث:

أصرع: الصرع هو انحباس الريح، وهي علة تمنع الأعضاء الرئيسة عن انفعالها منعًا غير تام، فلا يبقى الشخص معه منتصبًا بل يسقط ويقذف بالزبد لغلظ الرطوبة. وقد يكون الصرع من الجن، ولا يقع إلا من النفوس الخبيثة منهم، إما لاستحسان بعض الصور الإنسية، وإما لإيقاع الأذية به. والأول هو الذي يثبته جميع الأطباء ويذكرون علاجه، والثاني يجحده كثير منهم، وبعضهم يثبته ولا يعرف له علاجًا.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «في الحديث فضل من يصرع، وأن الصبر على بلايا الدنيا يورث الجنة، وأن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه الطاقة ولم يضعف عن التزام الشدة. وفيه دليل على جواز ترك التداوي، وفيه أن علاج الأمراض كلها بالدعاء والالتجاء إلى اللَّه أنجع وأنفع من العلاج بالعقاقير، وأن تأثير ذلك وانفعال البدن عنه أعظم من تأثير الأدوية البدنية، ولكن إنما ينجع بأمرين: أحدهما من جهة العليل وهو صدق القصد، والآخر من جهة المداوي وهو قوة توجهه وقوة قلبه بالتقوى والتوكل، واللَّه أعلم»[2].

قلت: علاقة الآية بالحديث تبدو لبادئ الرأي بعيدة، إلا أنه على تفسير ابن عباس وغيره؛ تكون الحياة الطيبة هي القناعة فيكون صبر هذه المرأة وقناعتها بما هي عليه مما أوجب لها السعادة في الدنيا والآخرة، والدخول في عموم الآية.

* عن عبد اللَّه بن عمرو أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه اللَّه بما آتاه»**[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٤٦)، والبخاري (١٠/ ١٤١/ ٥٦٥٢)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤/ ٢٥٧٦)، و النسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٣/ ٧٤٩٠).

(٢) فتح الباري (١٠/ ١٤٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٨)، ومسلم (٢/ ٧٣٠/ ١٠٥٤)، والترمذي (٤/ ٤٩٧/ ٢٣٤٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

★ **غريب الحديث:**

كفافًا: الكفاف هو الذي لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه فضيلة هذه الأوصاف، وقد يُحتج به لمذهب من يقول: الكفاف أفضل من الفقر ومن الغنى»[١].

قال المباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ: « «**قد أفلح**» أي: فاز وظفر بالمقصود، «**من أسلم**» أي: انقاد لربه، «**ورزق**» أي: من الحلال، «**كفافًا**» أي: ما يكفّ من الحاجات، ويدفع الضرورات، «**وقنعه الله**» أي: جعله قانعًا بما آتاه»[٢].

* عن فضالة بن عبيد، أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا وقنع**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ: « «**وكان عيشه كفافًا**»؛ أي: لا ينقص عن حاجته ولا يزيد على كفايته فيبطر ولا يطغى. «**وقنع...**» أي: رضي بالقسم ولم تطمح نفسه لزيادة عليه»[٤].

* عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه لا يظلم مؤمنًا حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها**»[٥].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع العلماء على أن الكافر الذي مات على كفره

---

(١) شرح مسلم (٧/ ١٣٠). (٢) تحفة الأحوذي (٧/ ١٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٩)، والترمذي (٤/ ٤٩٧/ ٢٣٤٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٠٥/ ٧٨٦)، الحاكم (١/ ٣٥) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي، وتعقبهما الشيخ الألباني في الصحيحة (٤/ ١١) وقال: «الصواب أنه صحيح فقط كما قال في الرواية الأولى، فإن عمرو بن مالك لم يخرج له مسلم شيئًا»، وابن حبان (الإحسان ٢/ ٤٨٠/ ٧٠٥).

(٤) تحفة الأحوذي (٧/ ١٦).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٢/ ٢٨٠٨).

لا ثواب له في الآخرة، ولا يجازى فيها بشيء من عمله في الدنيا متقربًا إلى اللَّه تعالى، وصرح في هذا الحديث بأن يطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات أي: بما فعله متقربًا به إلى اللَّه تعالى مما لا يفتقر صحته إلى النية كصلة الرحم والصدقة والعتق والضيافة وتسهيل الخيرات ونحوها، وأما المؤمن فيدخر له حسناته وثواب أعماله إلى الآخرة؛ ويجزى بها مع ذلك أيضًا في الدنيا، ولا مانع من جزائه بها في الدنيا والآخرة، وقد ورد الشرع به فيجب اعتقاده قوله: «**إن اللَّه تعالى لا يظلم مؤمنًا حسنة**» معناه: لا يترك مجازاته بشيء من حسناته، والظلم يطلق بمعنى النقص، وحقيقة الظلم مستحيلة من اللَّه تعالى كما سبق بيانه، ومعنى «**أفضى إلى الآخرة**» صار إليها، وأما إذا فعل الكافر مثل هذه الحسنات ثم أسلم فإنه يثاب عليها في الآخرة على المذهب الصحيح»[1].

تنبيه:

ساق ابن كثير هذه الأحاديث الثلاثة الأخيرة لبيان أن الحياة الطيبة لا تكون بشيء معين، بل هي جامعة لجميع أنواع وجوه الراحة، وأن ذلك في الدنيا.

قال الشنقيطي: «هذه الأحاديث ظاهرة في ترجيح القول: بأن الحياة الطيبة في الدنيا؛ لأن قوله ﷺ: «**أفلح**» يدل على ذلك؛ لأن من نال الفلاح نال حياة طيبة. وكذلك قوله ﷺ: «**يعطى بها في الدنيا**» يدل على ذلك أيضًا. وابن كثير إنما ساق الأحاديث المذكورة لِيُنَبِّهَ على أنها ترجح القول المذكور. والعلم عند اللَّه تعالى»[2].

* * *

(١) شرح مسلم (١٧/ ١٢٥-١٢٦).
(٢) أضواء البيان (٣/ ٣٢٣).

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾

★ غريب الآية:

استعذ: الاستعاذة: سؤال المعاذ وهو: الالتجاء إلى اللَّه ﷻ وطلب الحماية منه. قال الشاعر:

أَلْحِقْ عذابَك بالقوم الذين طغوا   وعائذا بك أن يغلوا فيطغوني

سلطان: من التسلط وهو القهر. وسمي السلطان بذلك لكونه يقهر رعيته على ما يريد. والحجة سلطان؛ لأنه يستضاء بها في الأمور.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وإذا كنت يا محمد قارئًا القرآن، فاستعذ باللَّه من الشيطان الرجيم. وكان بعض أهل العربية يزعم أنه من المؤخر الذي معناه التقديم. وكأن معنى الكلام عنده: وإذا استعذت باللَّه من الشيطان الرجيم، فاقرأ القرآن، ولا وجه لما قال من ذلك؛ لأن ذلك لو كان كذلك لكان متى استعاذ مستعيذ من الشيطان الرجيم لزمه أن يقرأ القرآن، ولكن معناه ما وصفناه، وليس قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ بالأمر اللازم، وإنما هو إعلام وندب. وذلك أنه لا خلاف بين الجميع، أن من قرأ القرآن ولم يستعذ باللَّه من الشيطان الرجيم. قبل قراءته أو بعدها أنه لم يضيع فرضًا واجبًا. وكان ابن زيد يقول في ذلك نحو الذي قلنا. .

وأما قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فإنه يعني بذلك: أن الشيطان ليست له حجة على الذين آمنوا باللَّه ورسوله، وعملوا بما أمر اللَّه به وانتهوا عما نهاهم اللَّه عنه ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: وعلى ربهم يتوكلون

فيما نابهم من مهمات أمورهم ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يقول: إنما حجته على الذين يعبدونه، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ يقول: والذين هم بالله مشركون..

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي من أجله لم يسلط فيه الشيطان على المؤمن.

فقال بعضهم بما حُدّثت عن واقد بن سليمان، عن سفيان، في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال: ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر.

وقال آخرون: هو الاستعاذة، فإنه إذا استعاذ بالله منع منه، ولم يسلط عليه، واستشهد لصحة قوله ذلك بقول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] وقد ذكرنا الرواية بذلك في سورة الحِجْر.

وقال آخرون في ذلك، بما حدثني به المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ يقال: إن عدوّ الله إبليس قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2] فهؤلاء الذين لم يجعل للشيطان عليهم سبيل، وإنما سلطانه على قوم اتخذوه وليا، وأشركوه في أعمالهم..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا فاستعاذوا بالله منه، بما ندب الله -تعالى ذكره- من الاستعاذة ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ على ما عرض لهم من خطراته ووساوسه.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات بالآية؛ لأن الله -تعالى ذكره- أتبع هذا القول ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3] فكان بينا بذلك أنه إنما ندب عباده إلى الاستعاذة منه في هذه الأحوال ليُعيذهم من سلطانه.

---

(١) الأعراف: الآية (٢٠٠).

(٢) ص: الآيتان (٨٢-٨٣).

(٣) الأعراف: الآية (٢٠٠).

وأما قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم فيه بما قلنا إن معناه: والذين هم بالله مشركون..

وقال آخرون: معنى ذلك: والذين هم به مشركون، أشركوا الشيطان في أعمالهم..

والقول الأوّل، أعني قول مجاهد، أولى القولين في ذلك بالصواب، وذلك أن الذين يتولون الشيطان إنما يشركونه بالله في عبادتهم وذبائحهم ومطاعمهم ومشاربهم، لا أنهم يشركون بالشيطان. ولو كان معنى الكلام ما قاله الربيع، لكان التنزيل: الذين هم مشركوه، ولم يكن في الكلام به، فكان يكون لو كان التنزيل كذلك، والذين هم مشركوه في أعمالهم، إلا أن يوجه موجه معنى الكلام، إلى أن القوم كانوا يدينون بألوهة الشيطان، ويشركون الله به في عبادتهم إياه، فيصحّ حينئذ معنى الكلام، ويخرج عما جاء التنزيل به في سائر القرآن، وذلك أن الله تعالى وصف المشركين في سائر سور القرآن أنهم أشركوا بالله، ما لم ينزل به عليهم سلطانا، وقال في كلّ موضع تقدّم إليهم بالزجر عن ذلك، لا تشركوا بالله شيئًا، ولم نجد في شيء من التنزيل: لا تشركوا الله بشيء، ولا في شيء من القرآن، خبرا من الله عنهم أنهم أشركوا الله بشيء فيجوز لنا توجيه معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ إلى والذين هم بالشيطان مشركو الله. فبين إذًا إذ كان ذلك كذلك، أن الهاء في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ عائدة على الربّ في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾»[1].

قال الشنقيطي: «أظهر القولين في هذه الآية الكريمة: أن الكلام على حذف الإرادة. أي فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله.. الآية. وليس المراد أنه إذا قرأ القرآن وفرغ من قراءته استعاذ بالله من الشيطان كما يفهم من ظاهر الآية، وذهب إليه بعض أهل العلم. والدليل على ما ذكرنا تكرر حذف الإرادة في القرآن وفي كلام العرب لدلالة المقام عليها. كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ﴾[2] الآية، أي أردتم القيام إليها كما هو ظاهر. وقوله: ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[3]

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٧٣-١٧٦).

(٢) المائدة: الآية (٦).

(٣) المجادلة: الآية (٩).

الآية. أي إذا أردتم أن تتناجوا فلا تتناجوا بالإثم؛ لأن النهي إنما هو عن أمر مستقبل يراد فعله، ولا يصح النهي عن فعل مضى وانقضى كما هو واضح.

وظاهر هذه الآية الكريمة: أن الاستعاذة من الشيطان الرجيم واجبة عند القراءة؛ لأن صيغة افعل للوجوب كما تقرر في الأصول.

وقال كثير من أهل العلم: إن الأمر في الآية للندب والاستحباب، وحكى عليه الإجماع أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة، وظاهر الآية أيضًا: الأمر بالاستعاذة عند القراءة في الصلاة لعموم الآية. والعلم عند اللَّه تعالى.

ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الشيطان ليس له سلطان على المؤمنين المتوكلين على اللَّه، وأن سلطانه إنما هو على أتباعه الذين يتولَّنه، والذين هو به مشركون.

وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾[3]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾[4] الآية، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾[5].

واختلف العلماء في معنى السلطان في هذه الآيات.

فقال أكثر أهل العلم: هو الحجة، أي ليس للشيطان عليهم حجة فيما يدعوهم إليه من عبادة الأوثان.

وقال بعضهم: ليس له سلطان عليهم. أي تسلط وقدرة على أن يوقعهم في ذنب لا توبة منه. وقد قدمنا هذا. والمراد ب، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ الذين يطيعونه فيوالونه بالطاعة.

وأظهر الأقوال في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أن الضمير عائد إلى الشيطان لا إلى اللَّه. ومعنى كونهم مشركين به هو طاعتهم له في الكفر والمعاصي.

---

(١) الحجر: الآية (٤٢).
(٢) ص: الآيتان (٨٢-٨٣).
(٣) الإسراء: الآية (٦٥).
(٤) سبأ: الآية (٢١).
(٥) إبراهيم: الآية (٢٢).

كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1]، وقوله عن إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات. وأما سلطانه على الذين يتولونه فهو ما جعلوه له على أنفسهم من الطاعة والاتباع والموالاة، بغير موجب يستوجب ذلك.

قال ابن القيم: «فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطانًا فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيًا عنه مقررًا له: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾[4] قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم، وتلاعبه بهم وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة، فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها، غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني: أن اللَّه لم يجعل له عليهم سلطانًا ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلط عليهم بقوته فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم. والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صيغ الاستعاذة

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا قام من الليل كبّر ثم

(١) يس: الآية (٦٠).
(٢) مريم: الآية (٤٤).
(٣) إبراهيم: الآية (٢٢).
(٤) سبأ: الآيتان (٢٠-٢١).
(٥) عدة الصابرين (ص: ٥١).

يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك» ثم يقول: «لا إله إلا الله» ثلاثًا ثم يقول: «اللَّه أكبر كبيرًا» ثلاثًا «أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ من همزه ونفخه ونفثه» ثم يقرأ[1].

★ غريب الحديث:

همزه: الهمز: الموتة. قال أبو عبيد: والموتة: الجنون، سماها همزًا؛ لأنه جعل من النخس، والهمز، وكل شيء دفعته فقد همزته.

نفخه: النفخ: كناية عن الكبر، فكأن الشيطان ينفخ بالوسوسة فيعظمه في عينيه، ويحقر الناس عنده.

نفثه: النفث: عبارة عن الشعر؛ لأنه ينفثه الإنسان من فيه كالرقية.

★ فوائد الحديث:

وقد تقدم ما يتعلق بالاستعاذة في سورة الفاتحة.

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٥٠)، وأبو داود (١/ ٤٩٠/ ٧٧٥)، والترمذي (٢/ ٩-١٠/ ٢٤٢) والنسائي (٢/ ٤٦٩/ ٨٩٨-٨٩٩)، وابن ماجه (١/ ٢٦٤/ ٨٠٤) وصححه الشيخ الألباني.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

★ غريب الآية:

بدلنا: غيرنا. والتبديل وضع الشيء مكان آخر. يقال: أبدله واستبدل به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لما كان من أكبر الأغراض في هذه السورة بيان أن القرآن منزل من عند اللَّه، وبيان فضله وهديه فابتدأ فيها بآية ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾[1]، ثم قفِّيت بما اختلقه المشركون من الطّعن فيه بعد تنقلات جاء فيها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2]، وأتبع ذلك بتنقلات بديعة فأُعيد الكلام على القرآن وفضائله من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[3] ثم قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[4]. وجاء في عقب ذلك بشاهد يجمع ما جاء به القرآن، وذلك آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[5]، فلما استقرّ ما يقتضي تقرّر فضل القرآن في النفوس نبّه على نفاسته ويمنه بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[6]، لا جرم تهيأ المقام لإبطال اختلاق آخر من اختلاقهم على القرآن اختلاقًا مموّهًا بالشبهات، كاختلاقهم السابق الذي أشير إليه بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[7]. ذلك الاختلاق هو تعمّدهم التّمويه فيما يأتي من آيات القرآن مخالفًا لآيات أخرى لاختلاف المقتضي والمقام. والمغايرة باللين والشدّة، أو

---

(١) النحل: الآية (٢).
(٢) النحل: الآية (٢٤).
(٣) النحل: الآية (٦٤).
(٤) النحل: الآية (٨٩).
(٥) النحل: الآية (٩٠).
(٦) النحل: الآية (٩٨).
(٧) النحل: الآية (٢٤).

بالتعميم والتخصيص، ونحو ذلك مما يتبع اختلافه اختلاف المقامات واختلاف الأغراض واختلاف الأحوال التي يتعلّق بها، فيتّخذون من ظاهر ذلك دون وضعه مواضعه وحمله محاملهُ مغامز يتشدّقون بها في نواديهم، يجعلون ذلك اضطرابًا من القول، ويزعمونه شاهدًا باقتداء قائله في إحدى المقالتين أو كلتيهما.

وبعض ذلك ناشئ عن قصور مداركهم عن إدراك مرامي القرآن وسموّ معانيه، وبعضه ناشئ عن تعمّد للتجاهل تعلّقًا بظواهر الكلام يلبّسون بذلك على ضعفاء الإدراك من أتباعهم، ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي ومنهم من يعلمون ولكنهم يكابرون»[1].

قال الخازن: «قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ وذلك أن المشركين من أهل مكة قالوا: إن محمدًا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدًا، ما هو إلا مفترٍ يتقوله من تلقاء نفسه، فأنزل اللَّه هذه الآية. والمعنى: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكمًا آخر، واللَّه أعلم بما ينزل اعتراض دخل في الكلام، والمعنى واللَّه أعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه، وبما يغير ويبدل من أحكامه، أي هو أعلم بجميع ذلك مما هو من مصالح عباده، وهذا نوع توبيخ وتقريع للكفار على قولهم للنبي ﷺ، وهو قوله تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي تختلقه من عندك، والمعنى: إذا كان اللَّه تعالى أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمدًا إلى الافتراء والكذب لأجل التبديل والنسخ؟ وإنما فائدة ذلك ترجع إلى مصالح العباد، كما يقال: إن الطبيب يأمر المريض بشرب دواء، ثم بعد ذلك ينهاه عنه، ويأمره بغيره لما يرى فيه من المصلحة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني لا يعلمون فائدة الناسخ وتبديل المنسوخ»[2].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه إذا بدل آية مكان آية، بأن نسخ آية أو أنساها، وأتى بخير منها أو مثلها - أن الكفار يجعلون ذلك سببًا للطعن في الرسول ﷺ بادعاء أنه كاذب على اللَّه، مفتر عليه زعمًا منهم أن نسخ الآية بالآية يلزمه البداء، وهو الرأي المجدد، وأن ذلك مستحيل على اللَّه. فيفهم

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨٠-٢٨١).

(٢) تفسير الخازن (٣/ ١٣٤).

عندهم من ذلك أن النَّبي ﷺ مفتر على اللَّه، زاعمين أنه لو كان من اللَّه لأقره وأثبته، ولم يطرأ له فيه رأي متجدد حتى ينسخه.

والدليل على أن قوله: ﴿بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ معناه: نسخنا آية، قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾[1]، وقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[2] أي أن تنساه.

والدليل على أنه نسخ آية أو أنساها، لا بد أن يأتي ببدل خير منها أو مثلها - قوله تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[3]، وقوله هنا: ﴿بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾.

وما زعمه المشركون واليهود: من أن النسخ مستحيل على اللَّه لأنه يلزمه البداء، وهو الرأي المتجدد - ظاهر السقوط، واضح البطلان لكل عاقل؛ لأن النسخ لا يلزمه البداء البتة، بل اللَّه -جل وعلا- يشرِّع الحكم وهو عالم بأن مصلحته ستنقضي في الوقت المعين، وأنه عند ذلك الوقت ينسخ ذلك الحكم ويبدله بالحكم الجديد الذي فيه المصلحة. فإذا جاء ذلك الوقت المعين أنجز -جل وعلا- ما كان في علمه السابق من نسخ ذلك الحكم، الذي زالت مصلحته بذلك الحكم الجديد الذي فيه المصلحة. كما أن حدوث المرض بعد الصحة وعكسه، وحدوث الغنى بعد الفقر وعكسه، ونحو ذلك لا يلزم فيه البداء؛ لأن اللَّه عالم بأن حكمته الإلهية تقتضي ذلك التغيير في وقته المعين له، على وفق ما سبق في العلم الأزلي كما هو واضح.

وقد أشار -جل وعلا- إلى علمه بزوال المصلحة من المنسوخ، وتمحضها في الناسخ بقوله هنا: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[4]، وقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾[5] فقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ بعد قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يدل على أنه أعلم بما ينزل. فهو عالم بمصلحة الإنساء، ومصلحة تبديل الجديد من الأول المنسي»[6].

---

(١) البقرة: الآية (١٠٦).
(٢) الأعلى: الآيتان (٦-٧).
(٣) البقرة: الآية (١٠٦).
(٤) البقرة: الآية (١٠٦).
(٥) الأعلى: الآيتان (٦-٧).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٣٢٧-٣٢٨).

قال ابن تيمية: «التبديل الذي صرحوا بأنه منفر ونفروا به عنه لم يكن مما يجب نفيه عنه، فكيف بالرجوع إلى الحق الذي لم يعلم أنهم نفروا منه، وهو أقل تنفيرا؛ لأن النسخ فيه رجوع عن الحق إلى حق، وهذا رجوع إلى حق من غير حق، ومعلوم أن الإنسان يحمد على ترك الباطل إلى الحق ما لا يحمد على ترك ما لم يزل يقول إنه حق، وإذا كان جائزا فهذا أولى، وإذا كان في ذلك مصلحة ففي هذا أيضا مصالح عظيمة، ولولا أن فيها وفي العلم بها مصالح لعباده لم يقصها في غير موضع من كتابه، وهو سبحانه وله الحمد لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنبا إلا ذكر معه توبته لينزهه عن النقص والعيب، ويبين أنه ارتفعت منزلته وعظمت درجته وعظمت حسناته وقربه إليه بما أنعم اللَّه عليه من التوبة والاستغفار والأعمال الصالحة التي فعلها بعد ذلك، وليكون ذلك أسوة لمن يتبع الأنبياء ويقتدي بهم إلى يوم القيامة»[1].

* * *

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٤١٠-٤١١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للقائلين لك إنما أنت مفتر فيما تتلو عليهم من آي كتابنا، أنزله روح القُدُس: يقول: قل جاء به جَبرئيل من عند ربي بالحقّ..

وقوله: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقول -تعالى ذكره-: قل نزل هذا القرآن ناسخه ومنسوخه، روح القدس عليّ من ربي، تثبيتًا للمؤمنين، وتقوية لإيمانهم، ليزدادوا بتصديقهم لناسخه ومنسوخه إيمانا لإيمانهم، وهدى لهم من الضلالة، وبُشرى للمسلمين الذين استسلموا لأمر اللّه، وانقادوا لأمره ونهيه، وما أنزله في آي كتابه، فأقرّوا بكل ذلك، وصدقوا به قولا وعملا»[١].

قال الشنقيطي: «أمر اللّه -جل وعلا- نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أن يقول إن هذا القرآن الذي زعموا أنه افتراء بسبب تبديل اللّه آية مكان آية - أنه نزل عليه روح القدس من ربه -جل وعلا-. فليس مفتريًا له. وروح القدس: جبريل، ومعناه الروح المقدس. أي الطاهر من كل ما لا يليق.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٢] الآية، وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[٤]، وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[٥]، إلى غير ذلك من الآيات»[٦].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٧٦-١٧٧).
(٢) البقرة: الآية (٩٧).
(٣) الشعراء: الآيات (١٩٢-١٩٥).
(٤) طه: الآية (١١٤).
(٥) القيامة: الآيات (١٦-١٨).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٣٣٦-٣٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لسان: اللسان: جارحة الكلام معروف. واللسان: اللغة.

يلحدون إليه: أي يميلون إليه. والإلحاد: الميل عن الحق والاستقامة.

أعجمي: الأعجمي: من لا يتكلم العربية. والعَجَمُ: غيرُ العرب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: أن محمدًا إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعا يبيع عند الصفا، فربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يَرُد جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فلهذا قال الله تعالى رادًا عليهم في افترائهم ذلك: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ يعني: القرآن أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فَصَاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكة من العقل»[1].

قال الخازن: «وذلك أن كفار مكة قالوا: إنما يتعلم هذه القصص وهذه الأخبار من إنسان آخر وهو آدمي مثله، وليس هو من عند الله كما يزعم، فأجابهم الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ واختلفوا في ذلك البشر من هو فقال ابن

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٠٣).

عباس: كان رسول اللَّه ﷺ يعلم قينًا بمكة اسمه بلعام، وكان نصرانيًا أعجمي اللسان، فكان المشركون يرون رسول اللَّه ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فكانوا يقولون إنما يعلمه بلعام. وقال عكرمة: كان رسول اللَّه ﷺ يقرئ غلامًا لبني المغيرة يقال له يعيش، فكان يقرأ الكتب. فقالت قريش: إنما يعلمه يعيش، وقال محمد بن إسحاق: كان رسول اللَّه ﷺ فيما بلغني كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى غلام رومي نصراني عبد لبعض بني الحضرمي يقال له: جبر، وكان يقرأ الكتب. وقال عبيد اللَّه ابن مسلمة: كان لنا عبدان من أهل عين التمر يقال لأحدهما: يسار ويكنى أبا فكيهة، ويقال للآخر: جبر وكانا يصنعان السيوف بمكة، وكانا يقرآن التوراة والإنجيل بمكة، فربما مر بهما النبي ﷺ وهما يقرآن، فيقف ويستمع. قال الضحاك: وكان رسول اللَّه ﷺ إذا آذاه الكفار يقعد إليهما فيتروح بكلامهما، فقال المشركون إنما يتعلم محمد منهما. وقال الفراء: قال المشركون: إنما يتعلم محمد من عائش المملوك كان لحويطب بن عبد العزى كان نصرانيًا، وقد أسلم وحسن إسلامه وكان أعجميًا، وقيل: هو عداس غلام عتبة بن ربيعة، والحاصل أن الكفار اتهموا رسول اللَّه ﷺ، وقالوا إنما يتعلم هذه الكلمات من غيره، ثم إنه يضيفها لنفسه ويزعم أنه وحي من اللَّه ﷻ وهو كاذب في ذلك، فأجاب اللَّه عنه، وأنزل هذه الآية تكذيبًا لهم فيما رموا به رسول اللَّه ﷺ من الكذب»[١].

قال الشنقيطي: «أقسم -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه يعلم أن الكفار يقولون: إن هذا القرآن الذي جاء به النَّبي ﷺ ليس وحيًا من اللَّه، وإنما تعلمه من بشر من الناس.

وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾[٢]، وقوله: ﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾[٣] أي يرويه محمد ﷺ عن غيره، وقوله: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾[٤] الآية.

---

(١) تفسير الخازن (٣/ ١٣٥).

(٢) الفرقان: الآية (٥).

(٣) المدثر: الآية (٢٤).

(٤) الأنعام: الآية (١٠٥).

وقد بين -جل وعلا- كذبهم وتعنتهم في قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾ بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[١]. أي: كيف يكون تعلمه من ذلك البشر، مع أن ذلك البشر أعجمي اللسان. وهذا القرآن عربي مبين فصيح، لا شائبة فيه من العجمة. فهذا غير معقول.

وبين شدة تعنتهم أيضًا بأنه لو جعل القرآن أعجميًا لكذبوه أيضا وقالوا: كيف يكون هذا القرآن أعجميًّا مع أن الرسول الذي أنزل عليه عربي. وذلك في قوله: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّۗ﴾[٢] أي أقرآن أعجمي، ورسول عربي. فكيف ينكرون أن القرآن أعجمي والرسول عربي، ولا ينكرون أن المعلم المزعوم أعجمي، مع أن القرآن المزعوم تعليمه له عربي.

كما بين تعنتهم أيضًا، بأنه لو نزل هذا القرآن العربي المبين، على أعجمي فقرأه عليهم عربيًّا لكذبوه أيضًا، مع ذلك الخارق للعادة. لشدة عنادهم وتعنتهم، وذلك في قوله: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾[٣].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ أي يميلون عن الحق. والمعنى لسان البشر الذي يلحدون، أي يميلون قولهم عن الصدق والاستقامة إليه - أعجمي غير بين، وهذا القرآن لسان عربي مبين، أي ذو بيان وفصاحة»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾: «قالوا: إنما يعلم محمدًا عبدة بن الحضرمي -وهو صاحب الكتب-، فقال الله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله»[٥].

---

(١) النحل: الآية (١٠٣).
(٢) فصلت: الآية (٤٤).
(٣) الشعراء: الآيتان (١٩٨-١٩٩).
(٤) أضواء البيان (٣/ ٣٣٧-٣٣٨).
(٥) أخرجه: البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٥٩/ ١٣٧)، والحاكم (٢/ ٣٥٧) واللفظ له، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي في التلخيص: «صحيح». ويشهد له ما رواه ابن جرير (١٤/ ١٧٨)، والبيهقي في الشعب (١/ ١٥٩/ ١٣٨) عن حصين بن عبدالرحمن عن عبدالله بن مسلم الحضرمي أنه كان لهم عبدان من=

★ **غريب الحديث:**

يلحدون: الإلحاد: الميل. يقال: لَحَدَ وأَلْحَدَ؛ أي: مال عن القصد.

أعجمي: العجمة: الإخفاء، وهي ضد البيان. ورجل أعجم، وامرأة عجماء: أي: لا يُفْصِحُ. والعجماء: البهيمة؛ لأنها لا تفصح عن نفسها. والعرب تسمي كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بكلامهم أعجميًا.

★ **فوائد الحديث:**

الحديث بيان للبشر الذي زعم الكفار أنه يعلم النبي ﷺ وإيضاح لبطلان ذلك البهت بأن لسان الرجل الذي ينسبون إليه التعليم أعجمي غير بيِّن، وهذا القرآن الكريم لسان عربي مبين ذو بيان وفصاحة. فمن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا التنزيل، وما حواه من العلوم، فضلًا أن ينطق به، فضلًا أن يكون معلمًا له[1].

* * *

= أهل غير اليمن، وكانا طفلين، وكان يقال لأحدهما يسار والآخر جبر، فكانا يقرآن التوراة وكان رسول الله ﷺ ربما جلس إليهما، فقال كفار قريش: إنما يجلس إليهما يتعلم منهما. فأنزل الله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾. والراوي عن حصين بن عبدالرحمن عند ابن جرير هو هشيم بن بشير وهو مدلس ولم يصرح بالتحديث لكن قد تابعه خالد بن عبدالله الطحان ومحمد بن فضيل عند ابن جرير أيضًا.

(١) أفاده القاسمي في «محاسن التأويل» (١٠/ ٣٨٦٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى: إن الذين لا يؤمنون بحجج اللَّه وأدلته، فيصدّقون بما دلَّت عليه ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ يقول: لا يوفقهم اللَّه لإصابة الحقّ، ولا يهديهم لسبيل الرشد في الدنيا، ولهم في الآخرة وعند اللَّه إذا وردوا عليه يوم القيامة عذاب مؤلم موجع. ثم أخبر -تعالى ذكره- المشركين الذين قالوا للنبيّ ﷺ: إنما أنت مفتر، أنهم هم أهل الفرية والكذب، لا نبيّ اللَّه ﷺ، والمؤمنون به، وبرأ من ذلك نبيه ﷺ وأصحابه، فقال: إنما يتخرّص الكذب، ويتقوّل الباطل، الذين لا يصدّقون بحجج اللَّه وإعلامه؛ لأنهم لا يرجون على الصدق ثوابا، ولا يخافون على الكذب عقابا، فهم أهل الإفك وافتراء الكذب، لا من كان راجيا من اللَّه على الصدق الثواب الجزيل، وخائفا على الكذب العقاب الأليم. وقوله: ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ يقول: والذين لا يؤمنون بآيات اللَّه هم أهل الكذب لا المؤمنون»[1].

قال أبو السعود: « ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا يصدّقون أنها من عند اللَّه بل يقولون فيها ما يقولون، يسمّونها تارة افتراءً وأخرى أساطيرَ معلَّمةً من البشر ﴿لَا يَهْدِيهِمُ﴾ إلى الحق أو إلى سبيل النجاةِ هدايةً موصلة إلى المطلوب لما علم أنهم لا يستحقون ذلك لسوء حالهم ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذا تهديدٌ لهم ووعيدٌ على ما هم عليه من الكفر بآياتِ اللَّه تعالى ونسبة رسولِ اللَّه ﷺ إلى الافتراء والتعلم من البشر بعد إماطةِ شبُهتِهم وردّ طعنهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ ردٌّ لقولهم: إنما

(١) جامع البيان (١٤/ ١٨٠).

أنت مفترٍ، وقلبٌ للأمر عليهم ببيان أنهم هم المفترون بعد رده بتحقيق أنه منزلٌ من عند اللَّه بواسطة روحِ القدس، وإنما وُسّط بينهما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ الآية، لما لا يخفى من شدة اتصالِه بالرد الأول، والمعنى واللَّه تعالى أعلم أن المفتريَ هو الذي يكذّب بآيات اللَّه ويقول إنه افتراءٌ ومعلَّمٌ من البشر أي تكذيبُها على الوجه المذكور هو الافتراءُ على الحقيقة لأن حقيقتَه الكذبُ. . والتصريحُ بالكذب للمبالغة في بيان قُبحِه، وصيغةُ المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ما هو عبارةٌ عنه أعني قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، وقيل: المعنى إنما يفتري الكذبَ؛ ويليق ذلك بمن لا يؤمن بآيات اللَّه لأنه لا يترقب عقابًا عليه ليرتدعَ عنه، وأما مِن يؤمن بها ويخاف ما نطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراءٌ البتةَ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من عدم الإيمانِ بآيات اللَّه ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ على الحقيقة أو الكاملون في الكذب إذ لا كذِبَ أعظمُ من تكذيب آياتِه تعالى والطعنِ فيها بأمثال هاتيك الأباطيلِ، والسرُّ في ذلك أن الكذِبَ الساذَجَ الذي هو عبارةٌ عن الإخبار بعدم وقوعِ ما هو واقعٌ في نفس الأمرِ بخلق اللَّه تعالى أو بوقوعِ ما لم يقعْ كذلك مدافعةٌ لله تعالى في فعله فقط، والتكذيبُ مدافعةٌ له سبحانه في فعله وقولِه المنبىءِ عنه معًا، أو الذين عادتُهم الكذبُ لا يزَعُهم عنه وازعٌ من دين أو مروءةٍ، وقيل: الكاذبون في قولهم: إنما أنت مفتر»[1].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ١٤٢).

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل العربية في العامل في (مَنْ) مِن قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ ومن قوله: ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾، فقال بعض نحويي البصرة: صار قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ﴾ خبرًا لقوله: ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾، وقوله: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ فأخبر لهم بخبر واحد، وكان ذلك يدلّ على المعنى. وقال بعض نحويي الكوفة: إنما هذان جزءان اجتمعا، أحدهما منعقد بالآخر، فجوابهما واحد كقول القائل: من يأتنا فمن يحسن نكرمه، بمعنى: من يحسن ممن يأتنا نكرمه. قال: وكذلك كلّ جزاءين اجتمعا الثاني منعقد بالأوّل، فالجواب لهما واحد. وقال آخر من أهل البصرة: بل قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ مرفوع بالردّ على الذين في قوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ومعنى الكلام عنده: إنما يفتري الكذب من كفر باللَّه من بعد إيمانه، إلا من أكره من هؤلاء وقلبه مطمئنّ بالإيمان، وهذا قول لا وجه له. وذلك أن معنى الكلام لو كان كما قال قائل هذا القول، لكان اللَّه -تعالى ذكره- قد أخرج ممن افترى الكذب في هذه الآية الذين وُلدوا على الكفر وأقاموا عليه، ولم يؤمنوا قطّ، وخصّ به الذين قد كانوا آمنوا في حال، ثم راجعوا الكفر بعد الإيمان، والتنزيل يدلّ على أنه لم يخصص بذلك هؤلاء دون سائر المشركين الذين كانوا على الشرك مقيمين، وذلك أنه تعالى أخبر خبر قوم منهم أضافوا إلى رسول اللَّه ﷺ افتراء الكذب، فقال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وكذّب جميع المشركين بافترائهم على اللَّه وأخبر أنهم أحق بهذه الصفة من رسول

الله ﷺ، فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ ، ولو كان الذين عنوا بهذه الآية هم الذين كفروا بالله من بعد إيمانهم، وجب أن يكون القائلون لرسول الله ﷺ، إنما أنت مفتر حين بدّل الله آية مكان آية، كانوا هم الذين كفروا بالله بعد الإيمان خاصة دون غيرهم من سائر المشركين؛ لأن هذه في سياق الخبر عنهم، وذلك قول إن قاله قائل، فبين فساده مع خروجه عن تأويل جميع أهل العلم بالتأويل.

والصواب من القول في ذلك عندي أن الرافع لِمَن الأولى والثانية، قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والعرب تفعل ذلك في حروف الجزاء إذا استأنفت أحدهما على آخر.

وذكر أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر وقوم كانوا أسلموا ففتنهم المشركون عن دينهم، فثبت على الإسلام بعضهم، وافتتن بعض..

فتأويل الكلام إذن: من كفر بالله من بعد إيمانه، إلا من أكره على الكفر، فنطق بكلمة الكفر بلسانه وقلبه مطمئنّ بالإيمان، موقن بحقيقته، صحيح عليه عزمه، غير مفسوح الصدر بالكفر»[1].

قال ابن بطال: «قال المهلب: ذكر أهل التفسير بأن هذه الآية نزلت في ناس من أهل مكة آمنوا فكتب إليهم بعض أصحابهم بالمدينة: لستم منا حتى تهاجروا إلينا. وكان فيهم عمار بن ياسر، فخرجوا يريدون المدينة، فأدركتهم قريش في الطريق ففتنوهم على الكفر فكفروا مكرهين فنزلت: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾.

أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر، هذا قول مالك والكوفيين والشافعي، غير محمد بن الحسن فإنه قال: إذا أظهر الشرك كان مرتدا في الظاهر، وهو فيما بينه وبين الله على الإسلام وتبين منه امرأته، ولا يصلى عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلمًا. وهذا قول تغني

(١) جامع البيان (١٤/ ١٨٠-١٨٢).

حكايته عن الرد عليه لمخالفته للآيات المذكورة في أول هذا الباب.

وقالت طائفة: إنما جازت الرخصة في القول، وأما في الفعل فلا رخصة فيه مثل أن يكرهوه على السجود لغير اللَّه، أو الصلاة لغير القبلة، أو قتل مسلم أو ضربه، أو أكل ماله، أو الزنا، أو شرب الخمر، وأكل الخنزير: روي هذا عن الحسن البصري، وهو قول الأوزاعي وسحنون، قال الأوزاعي: إذا أكره الأسير على شرب الخمر لا يفعل وإن قتله.

وقال إسماعيل بن إسحاق: حدثنا نصر بن علي: حدثنا عبد الأعلى، عن عوف، عن الحسن أنه كان لا يجعل في النفس التي حرم اللَّه التقية. وقال محمد بن الحسن: إذا قيل للأسير اسجد لذلك الصنم وإلا قتلناك فقال: إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد وتكون نيته لله تعالى، وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه.

وقالت طائفة: الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أسر الإيمان. روي ذلك عن عمر بن عبد العزيز ومكحول، وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق، وروى ابن القاسم عن مالك أنه إن أكره على شرب الخمر أو ترك الصلاة والإفطار في رمضان فلا إثم عليه إلا أنه لا يجوز عند مالك وعامة العلماء أن يقتل غيره ولا ينتهك حرمته ولا يظلمه ولا يفعل الزنا وإن كره على ذلك.

قال إسماعيل بن إسحاق: وقول من جعل التقية في القول ما يشبه ما نزل في القرآن من ذلك؛ لأن الذين أكرهوا عليه إنما هو كلام تكلموا به ولم يظلموا فيه أحدًا من الناس، وإنما هو أمر فيما بينهم وبين ربهم، فلما أكرهوا عليه ولم يكونوا له معتقدين جعل كأنه لم يكن؛ لأن الكلام ليس يؤثر بأحد أثرًا في نفس ولا مال، وأفعال الأبدان ليست كذلك؛ لأنها تؤثر في الأبدان والأموال ولا يجوز لأحد أن ينجي نفسه من القتل بأن يقتل غيره ظالمًا وإن أكره على ذلك. وقال الأبهري: لا يجوز لأحد أن يكره على هتك حرمة آدمي؛ لأن حرمته ليست بأوكد من حرمة الآخر»[1].

---

(١) شرح ابن بطال (٨/ ٢٩٠-٢٩٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
فيمن اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»(١).

* عن سعيد بن زيد قال: «**لقد رأيتني وإنّ عمر موثقي على الإسلام، ولو انقضّ أُحُد مما فعلتم بعثمان كان محقوقًا أن ينقضّ**»(٢).

* عن خباب بن الأرتّ قال: «شكونا إلى رسول اللَّه ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالميشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه. واللَّه لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللَّه والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»(٣).

★ **فوائد الأحاديث:**

قال العيني بعد ذكره لحديث أنس: «مطابقته للترجمة تؤخذ من آخر الحديث من حيث إنه سوى بين كراهية الكفر وكراهية دخول النار. والقتلُ والضرب والهوان أسهل عند المؤمن من دخول النار، فيكون أسهل من الكفر إن اختار الشدة»(٤).

ووجه مناسبة حديث سعيد بن زيد فظاهر كما قال ابن حجر؛ لأن سعيدًا وزوجته أخت عمر- اختارا الهوان على الكفر(٥).

---

(١) أحمد (٣/ ١٠٣) والبخاري (١/ ٨٢/ ١٦) ومسلم (١/ ٦٦/ ٤٣) والترمذي (٥/ ١٦/ ٢٦٢٤) والنسائي (٨/ ٤٧٢/ ٥٠٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (١٢/ ٣٩٠/ ٦٩٤٢).
(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٠٩)، والبخاري (١٢/ ٣٩٠-٣٩١/ ٦٩٤٣)، وأبو داود (٣/ ١٠٨/ ٢٦٤٩)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥٠/ ٥٨٩٣).
(٤) عمدة القاري (١٦/ ٢٢٥).
(٥) فتح الباري (١٢/ ٣١٦).

وقال العيني: «مطابقته للترجمة من حيث إن عثمان بن عفان رضي اللَّه تعالى عنه اختار القتل على الإتيان بما يرضي القتلة، فاختياره على الكفر بطريق الأولى»[١].

وقال بعد ذكره حديث خباب بن الأرث: «مطابقته للترجمة من حيث دلالة طلب خباب دعاء من النبي ﷺ على الكفار لكونه تحت قهرهم وأذاهم كالمكرهين بما لا يريدون»[٢].

قال ابن بطال: «وقول خباب للنبي ﷺ: **«ألا تدعو اللَّه أن يكفينا»** يعنى عدوان الكفار عليهم بمكة قبل هجرتهم وضربهم لهم وإيثاقهم بالحديد.

وفيه من الفقه: أن النبي ﷺ لم يترك الدعاء في ذلك على أن اللَّه أمرهم بالدعاء أمرًا عامًا بقوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٣] وبقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾[٤] إلا لأنه ﷺ علم من اللَّه أنه قد سبق من قدره وعلمه أنه يجرى عليهم ما جرى من البلوى والمحن ليؤجروا عليها على ما جرت عادته في سائر أتباع الأنبياء من الصبر على الشدة في ذات اللَّه، ثم يعقبهم بالنصر والتأييد، والظفر وجزيل الأجر، وأما غير الأنبياء فواجب عليهم الدعاء عند كل نازلة تنزل بهم؛ لأنهم لا يعلمون الغيب فيها، والدعاء من أفضل العبادة ولا يخلو الداعي من إحدى الثلاث التي وعد النبي ﷺ بها.

وفيه: علامات النبوة وذلك خروج ما قال ﷺ من تمام الدين وانتشار الأمر وإنجاز اللَّه ما وعد نبيه ﷺ من ذلك»[٥].

وقال: «أجمع العلماء أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجرًا عند اللَّه ممن اختار الرخصة.

واختلفوا فيمن أكره على غير الكفر من فعل ما لا يحل له فقال أصحاب مالك: الأخذ بالشدة في ذلك، واختيار القتل والضرب أفضل عند اللَّه من الأخذ بالرخصة. ذكره ابن حبيب وسحنون.

---

(١) عمدة القاري (١٦/ ٢٢٥).
(٢) عمدة القاري (١٦/ ٢٥٦).
(٣) غافر: الآية (٦٠).
(٤) الأنعام: الآية (٤٣).
(٥) شرح صحيح البخاري (٨/ ٢٩٦-٢٩٧).

وذكر ابن سحنون عن أهل العراق، أنه إذا تهدد بقتل أو بقطع أو ضرب يخاف منه التلف حتى يشرب الخمر أو يأكل الخنزير فذلك له، فإن لم يفعل حتى قتل أن يكون آثمًا، وهو كالمضطر إلى أكل الميتة وشرب الخمر غير باغ ولا عاد، فإن خاف على نفسه الموت فلم يأكل ولم يشرب أثم.

وقال مسروق: من اضطر إلى شيء مما حرم اللَّه عليه فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار. قالوا: ولا يشبه هذا الكفر وقتل المسلم؛ لأن في هذا رخصة وتركه أفضل، ولم يجعل في الضرورة حلالا.

قال سحنون: إذا لم يشرب الخمر ولا يأكل الخنزير حتى قتل كان أعظم لأجره كالكفر؛ لأن اللَّه تعالى أباح له الكفر ضرورة الإكراه، وأباح له الميتة والدم بضرورة الحاجة إليهما، وأجمعا أن له ترك الرخصة في قول الكفر، فكذلك يلزم مخالفنا أن يقول في ترك الرخصة في الميتة ولحم الخنزير، ولا يكون معينًا على نفسه.

وقد تناقض الكوفيون في هذا فقالوا كقولنا في المكره توعد بقطع عضو أو قتل على أن يأخذ مالا لفلان فيدفعه إلى فلان أنه في سعة من ذلك؛ لأنه كالمضطر ويضمن الآمر، ولا ضمان على المأمور، فإن أبى أن يأخذ حتى قتله كان عندنا في سعة. فيقال لهم: هذا مال مسلم قد أحللتموه بالإكراه؛ فلم لا يسعه ترك أكل الميتة حتى يقتل كما وسعه أخذ مال المسلم في الإكراه حتى يقتل.

قال المؤلف: وحديث خباب حجة لأصحاب مالك؛ لوصفه ﷺ عن الأمم السالفة من كان يمشط لحمه بأمشاط الحديد، ويشق بالمناشر بالشدة في دينه والصبر على المكروه في ذات اللَّه، ولم يكفروا في الظاهر ويبطنوا الإيمان، ليدفعوا العذاب عن أنفسهم؛ فمدحهم، وكذلك حديث أنس سوى فيه النبي ﷺ بين كراهية المؤمن الكفر وكراهيته لدخول النار، وإذا كان هذا حقيقة الإيمان، فلا مخالفة أن الضرب والهوان والقتل عند المؤمن أسهل من دخول النار، فينبغي أن يكون ذلك أسهل من الكفر إن اختار الأخذ بالشدة على نفسه.

قال المهلب: وقد اعترض هذا قوم بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[1] ولا حجة لهم في الآية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا

(١) النساء: الآية (٢٩).

وَظُلْمًا﴾[١] والعدوان والظلم محرمان، وليس من أهلك نفسه في طاعة اللّه بعاد ولا ظالم، ولو كان كما قالوا لما جاز لأحد أن يقتحم المهالك في الجهاد، وقد افترض على كل مسلم مقارعة رجلين من الكفار ومبارزتهما، وهذا من أبين المهلكات والغرر. ومن فر من اثنين فقد أكبر المعصية وتعرض لغضب الله»[٢].

قال ابن حجر: «وليس في الحديث تصريح بأنه ﷺ لم يدع لهم. بل يحتمل أنه دعا، وإنما قال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ...**» تسلية لهم، وإشارة إلى الصبر حتى تنقضي المدة المقدورة وإلى ذلك الإشارة بقوله في آخر الحديث: «**ولكنكم تستعجلون**»»[٣].

قال ابن كثير: «والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله؛ كما ذكر الحافظ في ترجمة (عبد اللّه بن حذافة السهمي) أحد الصحابة أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت، فقال: إذًا أقتلك، فقال: أنت وذاك، قال: فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريبًا من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدر من نحاس، فأحميت وجاء بأسير من المسلمين، فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى، فطمع فيه ودعاه، فقال: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في اللّه، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في اللّه.

وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أيامًا، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حل لي، ولكن لم أكن لأشمتك بي، فقال له الملك: فقبّلْ رأسي، وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين، قال: نعم، فقبّل رأسه، فأطلقه،

---

(١) النساء: الآية (٣٠).

(٢) شرح صحيح البخاري (٨/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٣) فتح الباري (١٢/ ٣١٦-٣١٧).

وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب ﷺ: حق على كل مسلم أن يقبّل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ، فقام فقبل رأسه ﷺ»[١].

* عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة: **اللهم أنج عياش ابن أبي ربيعة وسلمة بن هشام والوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، وابعث عليهم سنين كسني يوسف**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «تعلق الحديث بالإكراه لأنهم كانوا مكرهين على الإقامة مع المشركين؛ لأن المستضعف لا يكون إلا مكرهًا.. ويستفاد منه أن الإكراه على الكفر لو كان كفرًا لما دعا لهم وسمّاهم مؤمنين»[٣].

وقال: «شروط الإكراه أربعة:

الأول: أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يهدد به والمأمور عاجزًا عن الدفع ولو بالفرار.

الثاني: أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

الثالث: أن يكون ما هدده به فوريًا، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غدًا، لا يُعدّ مكرهًا ويستثنى ما إذا ذكر زمنًا قريبًا جدًّا أو جرت العادة بأنه لا يخلف.

الرابع: أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره كمن أكره على الزنا فأولج وأمكنه أن ينزع ويقول: أنزلت، فيتمادى حتى ينزل، وكمن قيل له: طلق ثلاثًا فطلق واحدة، وكذا عكسه، ولا فرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور، ويستثنى من الفعل ما هو محرم على التأبيد كقتل النفس بغير حق»[٤].

قلت: هذه الآية وأمثالها، وهذه النصوص الحديثية وأمثالها، وهذه أقوال أهل العلم على اختلاف مذاهبهم، كلها تدل على أن هذا الدين حق، وأن ما جاء به النبي ﷺ حق، ومن أشربه في قلبه، وطبع عليه فقد طبع على الحق، ويصبح الدين هو

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٠٦-٦٠٧).

(٢) البخاري (١٢/ ٣٨٥/ ٦٩٤٠)، ومسلم (١/ ٤٦٦-٤٦٧/ ٦٧٥).

(٣) فتح الباري (١٢/ ٣٩٠).

(٤) فتح الباري (١٢/ ٣٨٥-٣٨٦).

الحق الذي يرفع المسلم لواءه في كل لحظة من لحظات حياته، وما عارضه من أطماع وأهواء، ومصالح ونزوات، فيضرب بها عرض الحائط، ويثبت على الحق، ويفرح بذلك، واللَّه تعالى قد يبتلي المسلم، فيُنْزِل به بعض بلائه ليعرف صدقه من كذبه، وثباته من خفته و روغانه، فإن ثبت وصبر؛ فقد فاز ولو تعرض لما تعرض إليه.

والأرجح: إن كان ما يخصه في ذاته ولا أثر لفعله على غيره؛ فإن فعله وهو مغلوب على أمره كالنطق بالكفر، وكفعل ما يحرم إن كان يخصه كما سبق؛ فلا شيء عليه. وأما إن صبر وثبت على التعذيب والهوان، وربما تعرض للقتل فإن ذلك خير له، كما بوب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فنرجو اللَّه أن يعافينا وأن لا يبتلينا أو يختبرنا، فربما يقع منا ما يقع لضعفنا وقلة حيلتنا.

* * *

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غَضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابا عظيما في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد اللَّه قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئًا ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئًا، فهم غافلون عما يراد بهم.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا بد ولا عجب أن من هذه صفته، ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة»(١).

قال الرازي: «اعلم أن الموجب لهذا الخسران هو أن اللَّه تعالى وصفهم في الآيات المتقدمة بصفات ستة.

الصفة الأولى: أنهم استوجبوا غضب اللَّه.

والصفة الثانية: أنهم استحقوا العذاب الأليم.

والصفة الثالثة: أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.

والصفة الرابعة: أنه تعالى حرمهم من الهداية.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٠٥).

والصفة الخامسة: أنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.

والصفة السادسة: أنه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة فلا جرم لا يسعون في دفعها، فثبت أنه حصل في حقهم هذه الصفات الستة التي كل واحد منها من أعظم الأحوال المانعة عن الفوز بالخيرات والسعادات، ومعلوم أنه تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعاته سعادات الآخرة، فإذا حصلت هذه الموانع العظيمة عظم خسرانه، فلهذا السبب قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي هم الخاسرون لا غيرهم، والمقصود التنبيه على عظم خسرانهم، والله أعلم»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في بيان حكم المرتد والمرتدة واستتابتهما

* عن عكرمة قال: أُتي علي ﷺ بزنادقة فأحرقهم، فبلغ ذلك ابنَ عباس فقال: لو كنتُ أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ: «لا تعذّبوا بعذاب الله» ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ: «من بدّل دينه فاقتلوه»[2].

* عن أبي موسى قال: «أقبلت إلى رسول الله ﷺ ومعي رجلان من الأشعريين أحدهما عن يميني والآخر عن يساري ورسول الله ﷺ يستاك، فكلاهما سأل، فقال: يا أبا موسى -أو: يا عبدالله بن قيس- قال قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، فكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته قلصت، فقال: لن -أو لا- نستعمل على عملنا من أراده، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى-أو يا عبدالله بن قيس- إلى اليمن، ثم اتبعه معاذ بن جبل،

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٢٧-١٢٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٧)، والبخاري (١٢/ ٣٣١/ ٦٩٢٢)، وأبو داود (٤/ ٥٢٠/ ٤٣٥١)، والترمذي (٤/ ٤٨/ ١٤٥٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٧/ ١٢٠/ ٤٠٧١)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٨/ ٢٥٣٥) مختصرًا. من طرق عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ.

وله طريق أخرى عن أنس أن عليًا أتي بناس من الزط يعبدون وثنًا فأحرقهم قال ابن عباس: إنما قال رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه». أخرجها: أحمد (١/ ٣٢٢)، والنسائي (٧/ ١٢١/ ٤٠٧٦)، والبيهقي (٨/ ٢٠٢).

فلما قدم عليه ألقى له وسادة قال: انزل، فإذا رجل عنده موثق، قال: ما هذا؟ قال: كان يهوديًا فأسلم ثم تهود، قال: اجلس، قال: لا أجلس حتى يقتل، قضاء اللَّه ورسوله (ثلاث مرات)؛ فأمر به فقتل، ثم تذاكرا قيام الليل، فقال أحدهما: أما أنا فأقوم وأنام، وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي»[1].

★ **غريب الحديثين:**

زنادقة: قال الحافظ: «بزاي ونون وقاف: جمع زنديق، بكسر أوله وسكون ثانيه، قال أبو حاتم السجستاني وغيره: الزنديق فارسي معرب أصله: (زنده كرداي) يقول بدوام الدهر؛ لأن (زنده): الحياة، و(كرد): العمل، ويطلق على من يكون دقيق النظر في الأمور. وقال ثعلب: ليس في كلام العرب (زنديق)، وإنما قالوا: (زندقي) لمن يكون شديد التحيل، وإذا أرادوا ما تريد العامة قالوا: (ملحد ودهري) بفتح الدال؛ أي: يقول بدوام الدهر، وإذا قالوها بالضم أرادوا كبر السن. وقال الجوهري: الزنديق من الثنوية، كذا قال وفسره بعض الشراح بأنه الذي يدعي أن مع اللَّه إلهًا آخر، وتعقب بأنه يلزم منه أن يطلق على كل مشرك، والتحقيق ما ذكره من صنف في الملل أن أصل الزنادقة أتباع دَيْصان ثم مانّي ثم مزدك، الأولُ بفتح الدال وسكون المثناة التحتانية بعدها صاد مهملة، والثاني بتشديد النون وقد تخفف والياء خفيفة، والثالث بزاي ساكنة ودال مهملة مفتوحة ثم كاف، وحاصل مقالتهم أن النور والظلمة قديمان، وأنهما امتزجا فحدث العالم كله منهما، فمن كان من أهل الشر فهو من الظلمة، ومن كان من أهل الخير فهو من النور. وأنه يجب السعي في تخليص النور من الظلمة فيلزم إزهاق كل نفس. وإلى ذلك أشار المتنبي حيث قال في قصيدته المشهورة:

وكم لظلام الليل عندك من يد ... تخبر أن المانوية تكذب

وكان بهرام جد كسرى تحيل على ماني حتى حضر عنده وأظهر له أنه قبل مقالته، ثم قتله وقتل أصحابه، وبقيت منهم بقايا اتبعوا مزدك المذكور، وقام الإسلام.

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٩)، والبخاري (١٢/ ٣٣١-٣٣٢/ ٦٩٢٣) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٤٥٦/ ١٧٣٣[١٥])، وأبو داود (٤/ ٥٢٣-٥٢٥/ ٤٣٥٤). وأخرجه أيضًا: النسائي (١/ ١٦/ ٤) دون ذكر قصة القتل. من طرق عن حميد بن هلال عن أبي بردة به.

و(الزنديق) يطلق على من يعتقد ذلك، وأظهر جماعة منهم الإسلام خشية القتل، ومن ثم أطلق الاسم على كل من أسرّ الكفر وأظهر الإسلام حتى قال مالك: الزندقة هو الذي يظهر الإسلام ويخفي الكفر، فإن أرادوا اشتراكهم في الحكم فهو كذلك، وإلا فأصلهم ما ذكرت، وقد قال النووي في «لغات الروضة»: الزنديق الذي لا ينتحل دينًا، وقال محمد بن معن في «التنقيب على المهذب»: الزنادقة من الثنوية يقولون ببقاء الدهر وبالتناسخ، قال: ومن الزنادقة الباطنية وهم قوم زعموا أن اللَّه خلق شيئًا ثم خلق منه شيئًا آخر، فدبر العالم بأسره، ويسمونها العقل والنفس، وتارة العقل الأول والعقل الثاني، وهو من قول الثنوية في النور والظلمة إلا أنهم غيروا الاسمين، قال: ولهم مقالات سخيفة في النبوات وتحريف الآيات وفرائض العبادات، وقد قيل: إن سبب تفسير الفقهاء (الزنديق) بما يفسر به المنافق قول الشافعي في «المختصر»: وأي كافر ارتد إليه مما يظهر أو يسر من الزندقة وغيرها ثم تاب سقط عنه القتل، وهذا لا يلزم منه اتحاد الزنديق والمنافق، بل كل زنديق منافق من غير عكس، وكان من أطلق عليه في الكتاب والسنة المنافق يظهر الإسلام ويبطن عبادة الوثن أو اليهودية، وأما الثنوية فلا يحفظ أن أحدًا منهم أظهر الإسلام في العهد النبوي، واللَّه أعلم»[1].

★ فوائد الحديثين:

قال أبو عمر ابن عبد البر: «وفقه هذا الحديث أن من ارتد عن دينه حل دمه وضربت عنقه والأمة مجتمعة على ذلك»[2].

والرجل في ذلك كالمرأة، **قال الحافظ**: «واستدل به على قتل المرتدة كالمرتد، وخصه الحنفية بالذكر وتمسكوا بحديث النهي عن قتل النساء وحمل الجمهور النهي على الكافرة الأصلية إذا لم تباشر القتال ولا القتل... واحتجوا بأن (من) الشرطية لا تعم المؤنث، وتعقب بأن ابن عباس راوي الخبر قد قال: «**تقتل المرتدة**» وقتل أبو بكر في خلافته امرأة ارتدت والصحابة متوافرون فلم ينكر ذلك عليه أحد، وقد أخرج ذلك كله ابن المنذر... واحتجوا من حيث النظر بأن الأصلية تسترق فتكون

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٢) فتح البر (١/ ٢٣٦).

غنيمة للمجاهدين، والمرتدة لا تسترق عندهم فلا غنم فيها فلا يترك قتلها . . .
ويؤيده اشتراك الرجال والنساء في الحدود كلها الزنا والسرقة وشرب الخمر والقذف، ومن صور الزنا رجم المحصن حتى يموت فاستثني ذلك من النهي عن قتل النساء، فكذلك يستثنى قتل المرتدة»[١].

وقال الحافظ ابن رجب: «ولا فرق في هذا بين الرجل والمرأة عند أكثر العلماء، ومنهم من قال: لا تقتل المرأة إذا ارتدت كما لا تقتل نساء أهل دار الحرب في الحرب، وإنما تقتل رجالهم، وهذا قول أبي حنيفة وأصحابه، وجعلوا الكفر الطارئ كالأصلي، والجمهور فرقوا بينهما وجعلوا الطارئ أغلظ؛ لما سبقه من الإسلام، ولهذا يقتل بالردة عنه من لا يقتل من أهل الحرب كالشيخ الفاني والزَّمِن والأعمى. ولا يقتلون في الحرب»[٢].

وبمثل ذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣].

هل يستتاب المرتد وهل تقبل توبته؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والذي عليه عامة أهل العلم من الصحابة والتابعين أنه تقبل توبة المرتد في الجملة، وروي عن الحسن البصري أنه يقتل وإن أسلم، جعله كالزاني والسارق، وذكر عن أهل الظاهر نحو ذلك أن توبته تنفعه عند اللَّه، ولكن لا تدرأ القتل عنه وروي عن حمدان: من ولد في الإسلام قتل ومن كان مشركًا فأسلم استتيب، وكذلك روي عن عطاء، وهو قول إسحاق بن راهويه، والمشهور عن عطاء وأحمد الاستتابة مطلقًا، وهو الصواب. ووجه عدم قبول توبته قوله ﷺ: **«من بدل دينه فاقتلوه»** رواه البخاري، ولم يستثن إذا تاب، وقال ﷺ: **«لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**[٤] متفق عليه.

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٣٣٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣١٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٧٤).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (١٢/ ٢٤٧/ ٦٨٧٨)، ومسلم (٣/ ١٣٠٢-١٣٠٣/ ١٦٧٦)، والنسائي (٧/ ١٠٤-١٠٥/ ٤٠٢٧)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٧/ ٢٥٣٤).

فإذا كان القاتل والزاني لا يسقط عنهما القتل بالتوبة، فكذلك التارك لدينه المفارق للجماعة، ولأنه لا يقتل لمجرد الكفر والمحاربة؛ لأنه لو كان كذلك لما قتل المترهب والشيخ الكبير والأعمى والمقعد والمرأة ونحوهم، فلما قتل هؤلاء علم أن الردة حد من الحدود والحدود لا تسقط بالتوبة.

والصواب ما عليه الجماعة؛ لأن اللَّه ﷻ قال: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] فأخبر اللَّه أنه غفور رحيم لمن تاب بعد الردة وذلك يقتضي مغفرته له في الدنيا والآخرة ومن هذه حاله لم يعاقب بالقتل، ويبين ذلك ما رواه الإمام أحمد قال: حدثنا علي بن عاصم عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلًا من الأنصار ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين فأنزل الله: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾ إلى آخر الآية، فبعث بها قومه إليه فرجع تائبًا فقبل النبي ﷺ ذلك منه، وخلّى عنه[3]، فهذا رجل قد ارتد ولم يقتله النبي ﷺ بعد عودته إلى الإسلام، ولأن اللَّه سبحانه قال في أخباره عن المنافقين: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾[4] فدل على أن الكافر بعد إيمانه قد يعفى عنه وقد يعذب وإنما يعفى عنه إذا تاب فعلم أن توبته مقبولة. وفي الاستدلال بهذا أي: حديث «من بدل دينه فاقتلوه»- نظر؛ لأن اللَّه تعالى قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[5]. وذلك دليل على قبول توبة من كفر

---

(١) آل عمران: الآية (٨٦).

(٢) آل عمران: الآية (٨٩).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٤٧)، والنسائي في المجتبى (٧/ ١٢٣/ ٤٠٧٩)، والحاكم (٢/ ١٤٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٤) التوبة: الآيتان (٦٥و٦٦).

(٥) التوبة: الآيتان (٧٣و٧٤).

بعد إسلامه، وأنهم لا يعذبون في الدنيا ولا في الآخرة عذابًا أليمًا بمفهوم الشرط، ومن جهة التعليل، ولسياق الكلام، والقتل عذاب أليم، فعلم أن من تاب منهم لم يعذب بالقتل؛ لأن اللَّه تعالى قال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1] فتبين أن الذين هاجروا إلى دار الإسلام بعد أن فُتنوا عن دينهم بالكفر بعد الإسلام وجاهدوا وصبروا فإن اللَّه يغفر لهم ويرحمهم، ومن غفر له ذنبه مطلقًا لم يعاقبه عليه في الدنيا والآخرة، وأيضًا فإن عبداللَّه بن سعد بن أبي سرح كان قد ارتد على عهد النبي ﷺ وحقن دمه، وكذلك الحارث بن سويد أخو الجلاس ابن سويد، وكذلك جماعة من أهل مكة أسلموا، ثم ارتدوا، ثم عادوا إلى الإسلام، فحقنت دماؤهم. وقصص هؤلاء مشهورة عند أهل العلم بالحديث والسيرة.

وأيضًا فالإجماع من الصحابة ﵃ ظاهر على ذلك؛ فإن النبي ﷺ لما توفي ارتد أكثر العرب إلا أهل مكة والمدينة والطائف، واتبع قوم منهم من تنبأ فيهم مثل مسيلمة والعنسي وطليحة الأسدي، فقاتلهم الصديق وسائر الصحابة ﵃ حتى رجع أكثرهم إلى الإسلام فأقروهم على ذلك ولم يقتلوا واحدًا ممن رجع إلى الإسلام، ومن رؤوس من كان قد ارتد ورجع طليحة الأسدي، والأشعث بن قيس، وخلق كثير لا يحصون، والعلم بذلك ظاهر لا خفاء به على أحد. وهذه الرواية عن الحسن فيها نظر، فإن مثل هذا لا يخفى عليه، ولعله أراد نوعًا من الردة كظهور الزندقة ونحوها، أو قال ذلك في المرتد الذي ولد مسلمًا ونحو ذلك مما قد شاع فيه الخلاف، وأما قوله ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**» فنقول بموجبه فإنما يكون مبدلًا إذا دام على ذلك واستمر عليه، فأما إذا رجع إلى الدين الحق فليس بمبدل، وكذلك إذا

---

(١) النحل: الآيات (١٠٦-١١٠).

رجع إلى المسلمين فليس بمفارق للجماعة، بل هو متمسك لدينه ملازم للجماعة، وهذا بخلاف القتل والزنا فإنه فعل صدر عنه لا يمكن دوامه عليه بحديث إذا تركه يقال: إنه ليس بزانٍ ولا سارق ولا قاتل فمتى وجد منه ترتب عليه حده عليه وإن عزم على أن لا يعود إليه لأن العزم على ترك العود لا يقطع مفسده ما مضى من الفعل.

وأما قوله ﷺ: «**لا يقبل اللَّه توبة عبد أشرك بعد إسلامه**»[1] فقد رواه ابن ماجه من هذا الوجه ولفظه: «**لا يقبل اللَّه من مشرك أشرك بعد إسلامه عملًا حتى يفارق المشركين إلى المسلمين**»[2] وهذا دليل على قبول إسلامه إذا رجع إلى المسلمين، وبيانه أن معنى الحديث أن توبته لا تقبل مادام مقيمًا بين ظهراني المشركين، مكثرًا لسوادهم، كحال الذين قتلوا ببدر، ومعناه أن من أظهر الإسلام ثم فتن عن دينه حتى ارتد؛ فإنه لا تقبل توبته وعمله حتى يهاجر إلى المسلمين، وفي مثل هؤلاء نزل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[3] الآية، وأيضًا فإن ترك الدين وتبديله وفراق الجماعة يدوم ويستمر؛ لأنه تابع للاعتقاد، والاعتقاد دائم، فمتى قطعه وتركه عاد كما كان، ولم يبقَ لما مضى حكم أصلًا ولا فيه فساد، ولا يجوز أن يطلق عليه القول بأنه مبدل للدين، ولا أنه تارك لدينه كما يطلق على الزاني والقاتل بأن هذا زانٍ وقاتل؛ فإن الكافر بعد إسلامه لا يجوز أن يسمى كافرًا عند الإطلاق، ولأن تبديل الدين وتركه في كونه موجبًا للقتل بمنزلة الكفر الأصلي، والحِراب في كونهما كذلك، فإذا كان زوال الكفر بالإسلام أو زوال المحاربة بالعهد يقطع حكم الكفر، فكذلك إذا زال تبديل الدين وتركه بالعود إلى الدين وأخذه انقطع حكم ذلك التبديل والترك.

إذا تقرر ذلك فالذي عليه جماهير أهل العلم أن المرتد يستتاب. ومذهب مالك وأحمد أنه يستتاب ويؤجل بعد الاستتابة ثلاثة أيام. وهل ذلك واجب أو مستحب؟ على روايتين عنهما، أشهرهما عنهما أن الاستتابة واجبة وهو قول إسحاق بن

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣)، والطبراني (١٩/ ٤٢٥/ ١٠٣٥)، وصححه ابن حبان (١/ ٣٧٦/ ١٦٠) عن معاوية بن حيدة ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤)، والنسائي (٥/ ٨٧/ ٢٥٦٧)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٨/ ٢٥٣٦)، والحاكم (٤/ ٦٠٠) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. عن معاوية بن حيدة ﷺ.

(٣) النساء: الآية (٩٧).

راهويه، وكذلك مذهب الشافعي هل الاستتابة واجبة أو مستحبة؟ على قولين، لكن عنده في أحد القولين يستتاب فإن تاب في الحال وإلا قتل، وهو قول ابن المنذر والمزني. وفي القول الآخر يستتاب ثلاثًا كمذهب مالك وأحمد، وقال الزهري وابن القاسم في رواية يستتاب ثلاث مرات، ومذهب أبي حنيفة أنه يستتاب أيضًا فإن لم يتب وإلا قتل المشهور عندهم أن الاستتابة مستحبة، وذكر الطحاوي عنهم لا يقتل المرتد حتى يستتاب، وعندهم يعرض عليه الإسلام؛ فإن أسلم وإلا قتل مكانه، إلا أن يطلب أن يؤجل فيؤجل ثلاثة أيام.

وذهب عبيد بن عمير وطاووس إلى أنه يقتل ولا يستتاب؛ لأنه ﷺ أمر بقتل المبدل دينه والتارك لدينه المفارق للجماعة ولم يأمر باستتابته كما أمر اللَّه سبحانه بقتال المشركين من غير استتابة، مع أنهم لو تابوا لكففنا عنهم، ويؤيد ذلك أن المرتد أغلظ كفرًا من الكافر الأصلي، فإذا جاز قتل الأسير الحربي من غير استتابة فقتل المرتد أولى.

وسرُّ ذلك أنّا لا نجيز قتل الكافر حتى نستتيبه بأن يكون قد بلغته دعوة محمد ﷺ إلى الإسلام، فإن قتل من لم يبلغه الدعوة غير جائز، والمرتد قد بلغته الدعوة، فجاز قتله، كالكافر الأصلي الذي بلغته وهذا هو علة من رأى الاستتابة مستحبة، فإن الكفار يستحب أن ندعوهم إلى الإسلام عند كل حرب، وإن كانت الدعوة قد بلغتهم، فكذلك المرتد، ولا يجب ذلك فيهما.

نعم لو فرض أن المرتد من يخفى عليه جواز الرجوع إلى الإسلام، فإن الاستتابة لا بد منها. ويدل على ذلك أن النبي ﷺ عاقب العرنيين الذين كانوا في اللقاح، ثم ارتدوا عن الإسلام، بما أوجب موتهم ولم يستتبهم[1]. ولأنه فعل شيئًا من الأسباب المبيحة للدم، فقتل قبل استتابته كالكافر الأصلي، وكالزاني وكقاطع الطريق، ونحوهم. فإن كل هؤلاء من قبلت توبته ومن لم تقبل يقتل قبل الاستتابة، ولأن المرتد لو امتنع بأن يلحق بدار الحرب، أو بأن يكون المرتدون ذوي شوكة يمتنعون بها عن حكم الإسلام، فإنه يقتل قبل الاستتابة بلا تردد فكذلك إن كان في أيدينا.

---

(١) حديث العرنيين أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٧)، والبخاري (٨/ ٢٧٣/ ٤٦١٠)، ومسلم (٣/ ١٢٩٦/ ١٦٧١)، وأبو داود (٤/ ٥٣١-٥٣٢/ ٤٣٦٤-٤٣٦٥)، والنسائي (٤/ ١٠٨-١١٣/ ٤٠٣٦-٤٠٤٥)، والترمذي (١/ ١٠٦/ ٧٢) وقال: «حسن صحيح».

وحجة من رأى الاستتابة إما واجبة وإما مستحبة قوله ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[1] أمر اللَّه رسوله بأن يخبر جميع الذين كفروا أنهم إن ينتهوا غفر لهم ما سلف، وهذا معنى الاستتابة، والمرتد من الذين كفروا، والأمر للوجوب، فعلم أن استتابة المرتد واجبة، ولا يقال: قد بلغهم... الدعوة إلى الإسلام لأن هذا الكفر أخص من ذلك الكفر؛ فإنه يوجب قتل كل من فعله ولا يجوز استبقاؤه وهو لم يستتب من هذا الكفر، وأيضًا فإن النبي ﷺ قد بعث بالتوبة إلى الحارث بن سويد ومن كان قد ارتد معه إلى مكة، كما قد قدمناه بعد أن كانت قد نزلت فيهم آية التوبة، فتكون استتابة مشروعة، ثم إن هذا الفعل منه خرج امتثالًا للأمر بالدعوة إلى الإسلام، والإبلاغ لدينه فيكون واجبًا».

ثم ذكر آثارًا عن الصحابة ثم قال: «فهذه أقوال الصحابة في قضايا متعددة لم ينكرها منكر فصارت إجماعًا.

والفرق بين هذا -أي: المرتد- وبين الكافر الأصلي من وجوه:

أحدها: أن توبة هذا أقرب لأن المطلوب منه إعادة الإسلام، والمطلوب من ذاك ابتداؤه، والإعادة أسهل من الابتداء، فإذا سقط عنا استتابة الكافر لصعوبتها، لم يلزم سقوط استتابة المرتد.

الثاني: أن هذا يجب قتله عينًا، وإن لم يكن من أهل القتال، وذاك لا يجوز أن يقتل إلا أن يكون من أهل القتال، ويجوز استبقاؤه بالأمان، والهدنة، والذمة، والإرقاق، والمن، والفداء، فإذا كان حده أغلظ فلم يقدم عليه إلا بعد الإعذار إليه بالاستتابة بخلاف من يكون جزاؤه دون هذا.

الثالث: أن الأصلي قد بلغته الدعوة، وهي استتابة عامة من كل كفر، وأما هذا فنستتيبه من التبديل وترك الدين الذي كان عليه، ونحن لم نصرح له بالاستتابة من هذا ولا بالدعوة إلى الرجوع.

وأما ابن خطل وابن أبي سرح ومقيس بن صبابة كانت لهم جرائم زائدة على الردة وكذلك العرنيون فإن أكثر هؤلاء قتلوا مع الردة وأخذوا الأموال فصاروا قطاع

---

(١) الأنفال: الآية (٣٨).

طريق ومحاربين لله ورسوله، وفيهم من كان يؤذي بلسانه أذى صار به من جنس المحاربين، فلذلك لم يستتابوا، على أن الممتنع لا يستتاب، وإنما يستتاب المقدور عليه، ولعل بعض هؤلاء قد استتيب قبل ذلك»[١].

حكم الزنديق:

قال الحافظ: «واستدل به -أي حديث علي ﵁- على قتل الزنديق من غير استتابة، وتعقب بأن في بعض طرقه كما تقدم أن عليًا استتابهم، وقد نص الشافعي كما تقدم على القبول مطلقًا، وقال: يستتاب الزنديق كما يستتاب المرتد، وعن أحمد وأبي حنيفة روايتان: إحداهما: لا يستتاب، والأخرى: إن تكرر منه لم تقبل توبته، وهو قول الليث وإسحاق، وحكي عن أبي إسحاق المروزي من أئمة الشافعية ولا يثبت عنه، بل قيل: إنه تحريف من إسحاق بن راهويه، والأول هو المشهور عند المالكية، وحكي عن مالك إن جاء تائبًا يقبل منه وإلا فلا، وبه قال أبو يوسف، واختاره الأستاذان أبو إسحاق الإسفراييني وأبو منصور البغدادي. وعن بقية الشافعية أوجه كالمذاهب المذكورة، وخامس يفصل بين الداعية فلا يقبل منه وتقبل توبة غير الداعية، وأفتى ابن الصلاح بأن الزنديق إذا تاب تقبل توبته ويعزر، فإن عاد بادرناه بضرب عنقه، ولم يمهل، واستدل من منع بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ﴾[٢] فقال: الزنديق لا يطلع على صلاحه؛ لأن الفساد إنما أتى مما أسره، فإذا اطلع عليه وأظهر الإقلاع عنه لم يزد على ما كان عليه، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾[٣] الآية، وأجيب بأن المراد من مات منهم على ذلك كما فسره ابن عباس فيما أخرجه ابن أبي حاتم وغيره، واستدل لمالك بأن توبة الزنديق لا تعرف، قال وإنما لم يقتل النبي ﷺ المنافقين للتألف ولأنه لو قتلهم لقتلهم بعلمه فلا يؤمن أن يقول قائل: إنما قتلهم لمعنى آخر، ومن حجة من استتابهم قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾[٤] فدل على أن إظهار الإيمان يحصن من القتل، وكلهم أجمعوا على أن أحكام الدنيا على

(١) الصارم المسلول (٣/ ٥٧٩-٦١٠) باختصار وتصرف.
(٢) النساء: الآية (١٤٦). (٣) النساء: الآية (١٣٧).
(٤) المجادلة: الآية (١٦)، المنافقون: الآية (٢).

الظاهر، والله يتولى السرائر»[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قبول توبة الزنديق، وحقن دمه بإسلامه وقبول توبة المرتد وإن ولد على الإسلام.. مسألتان فيهما نزاع بين الأمة مشهور، وقد ذكر الشافعي الحجة على قبول توبتهما، ومن لم يقبل توبتهما يقول: إنه لا سبيل إلى العلم بها؛ فإن الزنديق قد علم أنه لم يزل مظهرًا للإسلام، فلم يتجدد له بإسلامه الثاني حال مخالفة لما كان عليه، بخلاف الكافر الأصلي؛ فإنه إذا أسلم فقد تجدد له بالإسلام حال لم يكن عليها، والزنديق إنما رجع إلى إظهار الإسلام، وأيضًا فالكافر كان معلنًا لكفره غير مستتر به ولا مخفٍ له، فإذا أسلم تيقّنّا أنه أتى بالإسلام رغبة فيه لا خوفًا من القتل، والزنديق بالعكس فإنه كان مخفيًا لكفره مستترًا به، فلم نؤاخذه بما في قلبه إذا لم يظهر عليه فإذا ظهر على لسانه وآخذناه به فإذا رجع عنه لم يرجع عن أمر كان مظهرًا له غير خائف من إظهاره وإنما رجع خوفًا من القتل، وأيضًا فإن الله تعالى سن في عباده أنهم إذا رأوا بأسه لم ينفعهم الإسلام، وهذا إنما أسلم عند معاينة البأس، ولهذا لو جاء من تلقاء نفسه وأقر بأنه قال كذا وكذا وهو تائب منه قبلنا توبته ولم نقتله.

وأيضًا فإن الله تعالى سن في المحاربين أنهم إن تابوا من قبل القدرة عليهم قبلت توبتهم، ولا تنفعهم التوبة بعد القدرة عليهم، ومحاربة الزنديق للإسلام بلسانه أعظم من محاربة قاطع الطريق بيده وسنانه، فإن فتنة هذا في الأموال والأبدان وفتنة الزنديق في القلوب والإيمان، فهو أولى ألا تقبل توبته بعد القدرة عليه، وهذا بخلاف الكافر الأصلي؛ فإن أمره كان معلومًا، وكان مظهرًا لكفره غير كاتم له، والمسلمون قد أخذوا حذرهم منه، وجاهروه بالعداوة والمحاربة.

وأيضًا فإن الزنديق هذا دأبه دائمًا، فلو قبلت توبته لكان تسليطًا له على بقاء نفسه بالزندقة والإلحاد وكلما قُدر عليه أظهر الإسلام وعاد إلى ما كان عليه، ولاسيما وقد علم أنه أمن بإظهار الإسلام من القتل، فلا يزعه خوفه من المجاهرة بالزندقة والطعن في الدين ومسبة الله ورسوله فلا ينكف عدوانه عن الإسلام إلا بقتله.

وأيضًا فإن من سب الله ورسوله فقد حارب الله ورسوله وسعى في الأرض

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٣٣٧-٣٣٨).

فسادًا، فجزاؤه القتل حدًّا، والحدود لا تسقط بالتوبة بعد القدرة اتفاقًا، ولا ريب أن محاربة هذا الزنديق لله ورسوله وإفساده في الأرض أعظم محاربة وإفسادًا، فكيف تأتي الشريعة بقتل من صال على عشرة دراهم لذمي أو على بدنه ولا تقبل توبته، ولا تأتي بقتل من دأبه الصول على كتاب اللَّه وسنة رسوله والطعن في دينه وتقبل توبته بعد القدرة عليه؟ وأيضًا فالحدود بحسب الجرائم والمفاسد، وجريمة هذا أغلظ الجرائم، ومفسدة بقائه بين أظهر المسلمين من أعظم المفاسد.

السر في قبول توبة الكافر دون الزنديق:

وههنا قاعدة يجب التنبيه عليها لعموم الحاجة إليها، وهي أن الشارع إنما قبل توبة الكافر الأصلي من كفره بالإسلام لأنه ظاهر لم يعارضه ما هو أقوى منه، فيجب العمل به؛ لأنه مقتضٍ لحقن الدم والمعارض منتفٍ، فأما الزنديق فإنه قد أظهر ما يبيح دمه، فإظهاره بعد القدرة عليه للتوبة والإسلام لا يدل على زوال ذلك الكفر المبيح لدمه دلالة قطعية ولا ظنية، أما انتفاء القطع فظاهر، وأما انتفاء الظن فلأن الظاهر إنما يكون دليلًا صحيحًا إذا لم يثبت أن الباطن بخلافه، فإذا قام دليل على الباطن لم يلتفت إلى ظاهر قد علم أن الباطن بخلافه، ولهذا اتفق الناس على أنه لا يجوز للحاكم أن يحكم بخلاف علمه، وإن شهد عنده بذلك العدول، وإنما يحكم بشهادتهم إذا لم يعلم خلافها، وكذلك لو أقر إقرارًا علم أنه كاذب فيه مثل أن يقول لمن هو أسن منه: (هذا ابني) لم يثبت نسبه ولا ميراثه اتفاقًا، وكذلك الأدلة الشرعية مثل خبر الواحد العدل، والأمر والنهي والعموم والقياس إنما يجب اتباعها إذا لم يقم دليل أقوى منها يخالف ظاهرها.

وإذا عرف هذا فهذا الزنديق قد قام الدليل على فساد عقيدته، وتكذيبه واستهانته بالدين، وقدحه فيه؛ فإظهاره الإقرار والتوبة بعد القدرة عليه ليس فيه أكثر مما كان يظهره قبل هذا، وهذا القدر قد بطلت دلالته بما أظهره من الزندقة؛ فلا يجوز الاعتماد عليه لتضمنه إلغاء الدليل القوي وإعمال الدليل الضعيف الذي قد أظهر بطلان دلالته، ولا يخفى على المنصف قوة هذا النظر وصحة هذا المأخذ، وهذا مذهب أهل المدينة ومالك وأصحابه والليث بن سعد، وهو المنصور من الروايتين عن أبي حنيفة، وهو إحدى الروايات عن أحمد نصرها كثير من أصحابه، بل هي أنص الروايات عنه، وعن أبي حنيفة وأحمد أنه يستتاب، وهو قول الشافعي، وعن

أبي يوسف روايتان، إحداهما: أنه يستتاب، وهي الرواية الأولى عنه، ثم قال آخر: أقتله من غير استتابة، لكن إن تاب قبل أن يقدر عليه قبلت توبته، وهذا هو الرواية الثالثة عن أحمد.

وياللّه العجب! كيف يقاوم دليل إظهاره للإسلام بلسانه بعد القدرة عليه أدلة زندقته وتكررها منه مرة بعد مرة وإظهاره كل وقت للاستهانة بالإسلام والقدح في الدين والطعن فيه في كل مجمع، مع استهانته بحرمات اللّه واستخفافه بالفرائض وغير ذلك من الأدلة؟! ولا ينبغي لعالم قط أن يتوقف في قتل مثل هذا، ولا تترك الأدلة القطعية لظاهر قد تبين عدم دلالته وبطلانها، ولا تسقط الحدود عن أرباب الجرائم بغير موجب.

نعم لو أنه قبل رفعه إلى السلطان ظهر منه من الأقوال والأعمال ما يدل على حسن الإسلام وعلى التوبة النصوحة، وتكرر ذلك منه، لم يُقتل كما قاله أبو يوسف وأحمد في إحدى الروايات، وهذا التفصيل أحسن الأقوال في المسألة.

ومما يدل على أن توبة الزنديق بعد القدرة لا تعصم دمه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾[1] قال السلف في هذه الآية: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بالقتل إن أظهرتم ما في قلوبكم، وهو كما قالوا؛ لأن العذاب على ما يبطنونه من الكفر بأيدي المؤمنين لا يكون إلا بالقتل؛ فلو قبلت توبتهم بعدما ظهرت زندقتهم لم يمكن المؤمنين أن يتربصوا بالزنادقة أن يصيبهم اللّه بأيديهم؛ لأنهم كلما أرادوا أن يعذبوهم على ذلك أظهروا الإسلام فلم يصابوا بأيديهم قط، والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا، وعند هذا فأصحاب هذا القول يقولون: نحن أسعد بالتنزيل والسنة من مخالفينا في هذه المسألة، المشنعين علينا بخلافها، وباللّه التوفيق»[2].

قال الحافظ: «وتمسك به أي حديث علي ﷺ- بعض الشافعية في قتل من انتقل من دين كفر إلى دين كفر سواء كان ممن يقر أهله عليه بالجزية أو لا وأجاب بعض الحنفية بأن العموم في الحديث في المبدل لا في التبديل، فأما التبديل فهو

---

(١) التوبة: الآية (٥٢).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٢٩-١٣٣).

مطلق لا عموم فيه، وعلى تقدير التسليم فهو متروك الظاهر اتفاقًا في الكافر ولو أسلم فإنه يدخل في عموم الخبر وليس مرادًا، واحتجوا أيضًا بأن الكفر ملة واحدة فلو تنصر اليهودي لم يخرج عن دين الكفر، وكذا لو تهود الوثني، فوضح أن المراد من بدل دين الإسلام بدين غيره؛ لأن الدين في الحقيقة هو الإسلام، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[١] وما عداه فهو بزعم المدعي»[٢].

وأما إذا ارتد إنسان ثم رجع فهل يحبط عمله بالردة أم لا؟

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «المسألة مبنية على أصل، وهو أن الردة هل تحبط العمل بمجردها، أو لا يحبطه إلا الموت عليها؟ فيه للعلماء قولان مشهوران، وهما روايتان عن الإمام أحمد رضي الله عنه. فإن قلنا: تحبط العمل بنفسها، فمتى أسلم استأنف العمل وبطل ما كان قد عمل قبل الإسلام، وإن قلنا: لا يحبط العمل إلا إذا مات مرتدًا فمتى عاد إلى الإسلام عاد إليه ثواب عمله، وهكذا العبد إذا فعل حسنة، ثم فعل سيئة تحبطها ثم تاب من تلك السيئة، هل يعود إليه ثواب تلك الحسنة المتقدمة! يخرج على هذا الأصل.

ولم يزل في نفسي شيء من هذه المسألة، ولم أزل حريصًا على الصواب فيها، وما رأيت أحدًا شفى فيها، والذي يظهر لي -واللَّه تعالى أعلم وبه المستعان ولا قوة إلا به- أن الحسنات والسيئات تتدافع وتتقابل، ويكون الحكم فيها للغالب، وهو يقهر المغلوب، ويكون الحكم له، حتى كأن المغلوب لم يكن، فإذا غلبت على العبد الحسنات دفعت حسناته الكثيرة سيئاته، ومتى تاب من السيئة ترتب على توبته منها حسنات كثيرة قد تربي وتزيد على الحسنة التي حبطت بالسيئة، فإذا عزمت التوبة، وصحت، ونشأت من صميم القلب، أحرقت ما مرت عليه من السيئات، حتى كأنها لم تكن، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. وقد سأل حكيم بن حزام رضي الله عنه النبي ﷺ عن عتاقة وصلة وبر فعله في الشرك: هل يُثاب عليه؟ فقال النبي ﷺ: «**أسلمتَ على ما أسلفت من خير**»[٣] فهذا يقتضي أن الإسلام أعاد عليه ثواب تلك

---

(١) آل عمران: الآية (١٩).
(٢) فتح الباري (١٢/ ٣٣٧).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٠٢)، والبخاري (٣/ ٣٨٤-٣٨٥/ ١٤٣٦)، ومسلم (١/ ١١٣/ ١٢٣) من حديث حكيم ابن حزام رضي الله عنه.

الحسنات التي كانت باطلة بالشرك، فلما تاب من الشرك عاد إليه ثواب حسناته المتقدمة. فهكذا إذا تاب العبد توبة نصوحًا، صادقة خالصة، أحرقت ما كان قبلها من السيئات، وأعادت عليه ثواب حسناته. يوضح هذا أن السيئات والذنوب هي أمراض قلبية، كما أن الحمى والأوجاع أمراض بدنية، والمريض إذا عوفي من مرضه عافية تامة، عادت إليه قوته وأفضل منها حتى كأنه لم يضعف قط.

فالقوة المتقدمة بمنزلة الحسنات، والمرض بمنزلة الذنوب، والصحة والعافية بمنزلة التوبة سواء بسواء وكما أن من المرضى من لا تعود إليه صحته أبدًا لضعف عافيته، ومنهم من تعود صحته كما كانت لتقادم الأسباب وتدافعها، ويعود البدن إلى كماله الأول، ومنهم من يعود أصح مما كان وأقوى وأنشط لقوة أسباب العافية وقهرها وغلبتها لأسباب الضعف والمرض، حتى ربما كان مرض هذا سببًا لعافيته، كما قال الشاعر:

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

فهكذا العبد بعد التوبة على هذه المنازل الثلاث. والله الموفق، لا إله غيره ولا رب سواه»[1].

قال الشيخ إسماعيل الأنصاري معلقًا على هذا الكلام: «اختار العلامة الأثري ابن باز في تعليق له على هذا المحل أن العمل لا يحبط بالردة بمجردها، وإنما يبقى معلقًا، ونص عبارته في ذلك: الصواب أن العمل لا يحبط بالردة بمجردها، وإنما يبقى معلقًا، فإن مات عليها حبطت حسناته، وإن لم يمت عليها بقي له عمله الصالح لقول الله سبحانه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾[3] وحديث حكيم: «أسلمت على ما أسلفت من خير»». انتهى كلام الشيخ، وهو الذي تقتضيه النصوص.

واختلف العلماء في هؤلاء الذين صنع بهم علي -رضي الله عنه- ذلك، والصواب ما

---

(١) الوابل الصيب (ص: ٣٢-٣٤). (٢) البقرة: الآية (٢١٧).
(٣) آل عمران: الآية (٩١).

ذكره شيخ الإسلام، قال: «وحدثت أيضًا بدعة التشيع كالغلاة المدعين لإلهية علي، والمدعين النص على علي -رضي الله عنه- السابّين لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فعاقب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الطائفتين قاتل المارقين وأمر بإحراق أولئك الذين ادعوا فيه الإلهية؛ فإنه خرج ذات يوم فسجدوا له فقال لهم: ما هذا؟ قالوا: أنت هو. قال: من أنا؟ قالوا: أنت اللَّه الذي لا إله إلا هو. فقال: ويحكم! هذا كفر، ارجعوا عنه وإلا ضربت أعناقكم. فصنعوا به في اليوم الثاني والثالث كذلك فأخرهم ثلاثة أيام؛ لأن المرتد يستتاب ثلاثة أيام، فلما لم يرجعوا أمر بأخاديد من نار فخدت عند باب «كندة» وقذفهم في تلك النار. وروي عنه أنه قال:

لما رأيتُ الأمرَ أمرًا منكرا أجّجت ناري ودعوتُ قُنبُرا»[1].

واختلف العلماء أيضًا في هذا التحريق، فقال الحافظ: «واختلف السلف في التحريق: فكره ذلك عمر وابن عباس وغيرهما مطلقًا سواء كان ذلك بسبب كفر أو في حال مقاتلة أو كان قصاصًا، وأجازه علي وخالد بن الوليد وغيرهما. . وقال المهلب: ليس هذا النهي على التحريم بل على سبيل التواضع، ويدل على جواز التحريق فعل الصحابة، وقد سمل النبي ﷺ أعين العرنيين بالحديد المحمى، وقد حرق أبو بكر البغاة بالنار بحضرة الصحابة، وحرق خالد بن الوليد بالنار ناسًا من أهل الردة، وأكثر علماء المدينة يجيزون تحريق الحصون والمراكب على أهلها، قاله الثوري والأوزاعي. وقال ابن المنير وغيره: لا حجة فيما ذكر للجواز؛ لأن قصة العرنيين كانت قصاصًا أو منسوخة كما تقدم. وتجويز الصحابي معارض بمنع صحابي آخر، وقصة الحصون والمراكب مقيدة بالضرورة إلى ذلك إذا تعين طريقًا للظفر بالعدو، ومنهم من قيده بأن لا يكون معهم نساء ولا صبيان كما تقدم. وأما حديث الباب فظاهر النهي فيه التحريم»[2].

واختلف العلماء في المرتد إذا ترك مالًا: هل يرثه ورثته من المسلمين؟

قال ابن هبيرة: «واختلفوا في مال المرتد أين يصرف؟ وهل يورث؟ بعد اتفاقهم -كما وصفنا من قبل- على أنه لا يرث، فقال مالك والشافعي وأحمد في أظهر الروايات عنه: إذا قتل المرتد أو مات على ردته جعل ماله في بيت مال المسلمين

---

(١) منهاج السنة (١/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٢) فتح الباري (٦/ ١٨٥-١٨٦).

ولا يرثه ورثته، وسواء في ذلك ما اكتسبه في حال إباحة دمه أو حقنه. وعن أحمد رواية أخرى ثانية أنه يكون ماله لورثته من المسلمين، وعنه رواية أخرى أن ميراثه يكون لورثته من أهل دينه الذي اختارهم إذا لم يكونوا مرتدين. وقال أبو حنيفة: ما اكتسبه المرتد في حال إسلامه يكون لورثته من المسلمين، وما اكتسبه في حال ردته يكون فيئًا»[1].

هذا وقد رجح الإمامان ابن تيمية وابن القيم القول الثاني، وهو أنه يرثه ورثته من المسلمين. **قال ابن تيمية**: «والمرتد إن قتل في ردته أو مات عليها، فماله لوارثه المسلم. وهو رواية عن الإمام أحمد، وهو المعروف عن الصحابة، ولأن ردته كمرض موته»[2].

وقال ابن القيم: «وكذلك التحيل بالردة على حرمان الوارث كفر، والإفتاء بها كفر، ولا تتم إلا على قول من يرى أن مال المرتد لبيت المال، وأما على القول الراجح أنه لورثته من المسلمين فلا تتم الحيلة»[3].

وقال أيضًا: «وكثير من العلماء يورث المسلم مال المرتد إذا مات على ردته، وهذا القول هو الصحيح، وهو اختيار شيخنا، وهذا معاذ بن جبل ومعاوية بن أبي سفيان ومسروق بن الأجدع وخلق من الصحابة والتابعين وإسحاق بن راهويه وغيره من الأئمة يورثون المسلمين من أقاربهم الكفار إذا ماتوا»[4].

لكن الراجح والصواب ما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد في إحدى الروايات عنه من عدم توريث المسلم مال المرتد.

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: «ولا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، المرتد وغير المرتد سواء، إلا أن المرتد مذ يرتد فكل ما ظفر به من ماله فلبيت مال المسلمين رجع إلى الإسلام أو مات مرتدًا أو قتل مرتدًا أو لحق بدار الحرب وكل من لم يظفر به من ماله حتى قتل أو مات مرتدًا فلورثته من الكفار فإن رجع إلى الإسلام فهو له أو لورثته من المسلمين إن مات مسلمًا»[5].

---

(١) الإفصاح (٢/ ٩٣-٩٤).
(٢) الاختيارات (ص: ١٩٦).
(٣) إعلام الموقعين (٣/ ٢٤٢).
(٤) أحكام أهل الذمة (٢/ ٢١٣٤).
(٥) المحلى (٩/ ٣٠٤).

وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما ميراث المرتد فقد اختلف العلماء فيه. والصحيح عندنا فيه أن ميراثه في بيت المال لا يرثه أحد من ورثته لقول رسول اللَّه ﷺ: «**لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر**»[(١)].

وقال أيضًا: «وقال مالك والشافعي: المرتد لا يرث ولا يورث، فإن قتل على ردته فماله في بيت مال المسلمين يجري مجرى الفيء، وهو قول زيد ابن ثابت وربيعة، والحجة لمن ذهب هذا المذهب ظاهر القرآن في قطع ولاية الكفار من المؤمنين، وعموم قول رسول اللَّه ﷺ: «**لا يرث المسلم الكافر**» فلم يخص كافرًا مستقر الدين أو مرتدًا، وليس يصير ميراثه في بيت المال من جهة الميراث، ولكن سلك به كل مال يرجع إلى المسلمين لا مستحق له، وهو فيء لأنه كافر لا عهد له»[(٢)].

وقال أيضًا: «والحجة فيما تنازع فيه المسلمون كتاب اللَّه فإن لم يوجد فيه بيان ذلك فسنة رسول اللَّه ﷺ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يرث المسلم الكافر**» من نقل الأئمة الحفاظ الثقات، فكل من خالف ذلك محجوج به، والذي عليه سائر الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار مثل مالك والليث والثوري والأوزاعي والشافعي وسائر من تكلم في الفقه من أهل الحديث أن المسلم لا يرث الكافر كما أن الكافر لا يرث المسلم اتباعًا لهذا الحديث وأخذًا به، وباللَّه التوفيق»[(٣)].

وقال النووي: «وذهبت طائفة إلى توريث المسلم من الكافر، وهو مذهب معاذ بن جبل ومعاوية وسعيد بن المسيب ومسروق وغيرهم، وروي أيضًا عن أبي الدرداء والشعبي والزهري والنخعي على خلاف بينهم في ذلك، والصحيح عن هؤلاء كقول الجمهور. . . ولعل هذه الطائفة لم يبلغها هذا الحديث؛ أي: قوله ﷺ: «**لا يرث المسلم الكافر**»»[(٤)].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٠)، والبخاري (١٢/ ٥٨/ ٦٧٦٤)، ومسلم (٣/ ١٢٣٣/ ١٦١٤)، وأبو داود (٣/ ٣٢٦-٣٢٧/ ٢٩٠٩)، والترمذي (٤/ ٣٦٩/ ٢١٠٧)، وابن ماجه (٢/ ٩١١/ ٢٧٢٩) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) فتح البر (١٢/ ٥٤١-٥٤٢).

(٣) فتح البر (١٢/ ٥٣٩).

(٤) شرح مسلم (١١/ ٥٢).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا من ديارهم ومساكنهم وعشائرهم من المشركين، وانتقلوا عنهم إلى ديار أهل الإسلام ومساكنهم وأهل ولايتهم، من بعد ما فتنهم المشركون الذين كانوا بين أظهرهم قبل هجرتهم عن دينهم، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف وبألسنتهم بالبراءة منهم، ومما يعبدون من دون اللَّه، وصبروا على جهادهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول: إن ربك من بعد فعلتهم هذه لهم لغفور، يقول: لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم، وهم لغيرها مضمرون، وللإيمان معتقدون، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إلى اللَّه وتوبتهم.

وذكر عن بعض أهل التأويل أن هذه الآية نزلت في قوم من أصحاب رسول اللَّه ﷺ كانوا تخلَّفوا بمكة بعد هجرة النبيّ ﷺ، فاشتدّ المشركون عليهم حتى فتنوهم عن دينهم، فأيسوا من التوبة، فأنزل اللَّه فيهم هذه الآية: فهاجروا ولحقوا برسول اللَّه ﷺ»[1].

قال القاسمي: «شمل قوله: ﴿هَاجَرُوا﴾ من هاجر إلى الحبشة من مكة فرارا بدينه من الفتنة، ومن هاجر بعد إلى المدينة كذلك، كما شمل قوله: ﴿جَاهَدُوا﴾ في بث الحق ونشر كلمة الإيمان والدفاع عنه، أو قاتلوا في سبيل اللَّه، ولأجل هذا الاحتمال في الفعلين قيل: الآية مدنية»[2].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٨٣).

(٢) محاسن التأويل (١٠/ ١٦٦-١٦٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن ابن عباس قال: «كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا، فاستغفروا لهم. فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾[1] الآية، قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية، وأنه لا عذر لهم. قال: فخرجوا، فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم: ... ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ ...[2] إلى آخر الآية، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فحزنوا وأيسوا من كلّ خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فكتبوا إليهم بذلك: إن اللّه قد جعل لكم مخرجًا. فخرجوا، فأدركهم المشركون، فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقُتل من قتل»[3].

★ **فوائد الأثر:**

قال ابن كثير: «هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مُهانين في قومهم قد واتوهم على الفتنة. ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان اللّه وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا. فأخبر اللّه تعالى أنه من بعدها أي: تلك الفعلة؛ وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم»[4].

قال ابن عطية: «جاءت هذه الرواية هكذا أن بعد نزول الآية خرجوا فجيء الجهاد الذي ذكر في الآية جهادهم مع رسول اللّه ﷺ. وروت طائفة أنهم خرجوا

---

(١) النساء: الآية (٩٧).

(٢) العنكبوت: الآية (١٠).

(٣) أخرجه: ابن جرير (١٤/ ١٨٤)، والبزار في «كشف الأستار» (٣/ ٤٦/ ٢٢٠٤)، ذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٩-١٠) وقال: «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن شريك وهو ثقة». وقال ابن حجر في «مختصر الزوائد» (٢/ ٨٠): «إسناده صحيح».

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٠٧).

وأتبعوا، وجاهدوا متبعيهم، فقتل من قتل، ونجا من نجا فنزلت الآية حينئذ، فعنى بالجهاد المذكور جهادهم لمتبعيهم»[١].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٢٥).

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ تخاصم عن نفسها، وتحتجّ عنها بما أسلفت في الدنيا من خير أو شرّ أو إيمان أو كفر، ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا من طاعة ومعصية ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: يقول: وهم لا يفعل بهم إلا ما يستحقونه ويستوجبونه بما قدّموه من خير أو شرّ، فلا يجزى المحسن إلا بالإحسان ولا المسيء إلا بالذي أسلف من الإساءة، لا يعاقب محسن ولا يبخس جزاء إحسانه، ولا يثاب مسيء إلا ثواب عمله»[1].

قال ابن كثير: «﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾ أي: تحاج ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير وشر، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا ينقص من ثواب الخير ولا يزاد على ثواب الشر ولا يظلمون نقيرًا»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٤/ ١٨٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أنعم: جمع نعمة.

أذاقها الله: أي اختبرها وابتلاها بعقاب الجوع والخوف. قال الشاعر:

وإن اللَّه ذاق حُلُوم قيس فلما رأى خفتها قلاها

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُتخطَّف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾[1] وهكذا قال هاهنا: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي: هنيئًا سهلا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي: جحدت آلاء اللَّه عليها وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾[2]. ولهذا بدَّلهم اللَّه بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ أي: ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يُجبى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول اللَّه ﷺ وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف،

(١) القصص: الآية (٥٧).

(٢) إبراهيم: الآيتان (٢٨-٢٩).

فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العِلْهِز -وهو: وبر البعير، يجعل بدمه إذا نحروه.

وقوله: ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾ وذلك بأنهم بُدِّلوا بأمنهم خوفًا من رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجُيوشه، وجعلوا كل ما لهم في سَفَال ودمار، حتى فتحها اللَّه عليهم وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذي بعثه اللَّه فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾[2] الآية وقوله: إلى قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[3].

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بَدَّل اللَّه المؤمنين من بعد خوفهم أمنا، ورزقهم بعد العَيْلَة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم.

وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة، قاله العوفي، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاه مالك عن الزهري، رحمهم الله»[4].

قال ابن جرير: « ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولقد جاء أهل هذه القرية التي وصف اللَّه صفتها في هذه الآية التي قبل هذه الآية ﴿رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ يقول: رسول اللَّه ﷺ منهم، يقول: من أنفسهم يعرفونه، ويعرفون نسبه وصدق لهجته، يدعوهم إلى الحقّ، وإلى طريق مستقيم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ولم يقبلوا ما جاءهم به من عند اللَّه ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وذلك لباس الجوع والخوف مكان الأمن والطمأنينة والرزق الواسع الذي كان قبل ذلك

(١) آل عمران: الآية (١٦٤). (٢) الطلاق: الآيتان (١٠-١١).

(٣) البقرة: الآيتان (١٥١-١٥٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٠٧-٦٠٨).

يرزقونه، وقتل بالسيف ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ يقول: وهم مشركون، وذلك أنه قتل عظماؤهم يوم بدر بالسيف على الشرك»[١].

قال الشنقيطي: «هذه الصفات المذكورة التي اتصفت بها هذا القرية؛ تتفق مع صفات أهل مكة المذكورة في القرآن. فقولُه عن هذه القرية ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ قال نظيره عن أهل مكة، كقولِه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾[٢] الآية، وقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[٣] الآية، وقولِه: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[٤]، وقولِه: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾[٥]، وقولِه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[٦] الآية. وقولُه: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال نظيره عن أهل مكة أيضًا كقوله: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٧]، وقوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[٨] فإن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن، ورحلة الصيف كانت إلى الشام، وكانت تأتيهم من كلتا الرحلتين أموال وأرزاق. ولذا أتبع الرحلتين بامتنانه عليهم: بأن أطعمهم من جوع. وقوله في دعوة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَٰتِ﴾[٩] ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ﴾[١٠] الآية.

وقوله: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ ذكر نظيره عن أهل مكة في آيات كثيرة. كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[١١].

وقوله: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وقع نظيره قطعًا لأهل مكة. لما لجوا في الكفر والعناد، ودعا عليهم رسول الله ﷺ، وقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف»[١٢] فأصابتهم سنة

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٨٧).
(٢) القصص: الآية (٥٧).
(٣) العنكبوت: الآية (٦٧).
(٤) قريش: الآية (٤).
(٥) آل عمران: الآية (٩٧).
(٦) البقرة: الآية (١٢٥).
(٧) القصص: الآية (٥٧).
(٨) قريش: الآيات (١-٤).
(٩) البقرة: الآية (١٢٦).
(١٠) إبراهيم: الآية (٣٧).
(١١) إبراهيم: الآية (٢٨).
(١٢) تقدم تخريجه.

أذهبت كل شيء، حتى أكلوا الجيف والعلهز (وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه)، وأصابهم الخوف الشديد بعد الأمن. وذلك الخوف من جيوش رسول اللَّه ﷺ، وغزواته وبعوثه وسراياه. وهذا الجوع والخوف أشار لهما القرآن على بعض التفسيرات. فقد فسر ابن مسعود آية الدخان بما يدل على ذلك..

وفي تفسير ابن مسعود رضي الله عنه لهذه الآية الكريمة ما يدل دلالة واضحة أن ما أذيقت هذه القرية المذكورة في سورة النحل من لباس الجوع أذيقه أهل مكة، حتى أكلوا العظام، وصار الرجل منهم يتخيل له مثل الدخان من شدة الجوع. وهذا التفسير من ابن مسعود رضي الله عنه له حكم الرفع. لما تقرر في علم الحديث: من أن تفسير الصحابي المتعلق بسبب النزول له حكم الرفع. كما أشار له صاحب طلعة الأنوار بقوله:

تَفْسِيرُ صَاحِبٍ لَهُ تَعَلُّقُ ... بِالسَّبَبِ الرَّفْعُ لَهُ مُحَقَّقُ

وكما هو معروف عند أهل أعلم.

وقد ثبت في صحيح مسلم أن الدخان من أشراط الساعة. ولا مانع من حمل الآية الكريمة على الدخانين: الدخان الذي مضى، والدخان المستقبل جمعًا بين الأدلة. وقد قدمنا أن التفسيرات المتعددة في الآية إن كان يمكن حمل الآية على جميعها فهو أولى..

وأما الخوف المذكور في آية النحل؛ فقد ذكر -جل وعلا- مثله عن أهل مكة أيضًا على بعض تفسيرات الآية الكريمة التي هي: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾[1] فقد جاء عن جماعة من السلف تفسير القارعة التي تصيبهم بسرية من سرايا رسول اللَّه ﷺ..

فهذا التفسير المذكور في آية الرعد هذه، والتفسير المذكور قبله في آية الدخان؛ يدل على أن أهل مكة أبدلوا بعد سعة الرزق الجوعَ، وبعد الأمن والطمأنينة بالخوف. كما قال في القرية المذكورة: ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾. وقوله في القرية المذكورة: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ الآية؛

(١) الرعد: الآية (٣١).

لا يخفى أنه قال مثل ذلك عن قريش في آيات كثيرة. كقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[1] الآية، وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[2] الآية.

والآيات المصرحة بكفرهم وعنادهم كثيرة جدًّا كقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾[3] الآية، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[4] الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا.

فمجموع ما ذكرنا يؤيد قول من قال: إن المراد بهذه القرية المضروبة مثلًا في آية النحل، هذه: هي مكة، وروي عن حفصة وغيرها: أنها المدينة، قالت ذلك لما بلغها قتل عثمان ﷺ، وقال بعض العلماء: هي قرية غير معينة، ضربها اللَّه مثلًا للتخويف من مقابلة نعمة الأمن والاطمئنان والرزق، بالكفر والطغيان. وقال من قال بهذا القول: إنه يدل عليه تنكير القرية في الآية الكريمة في قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ الآية.

قال مقيده عفا اللَّه عنه: وعلى كل حال، فيجب على كل عاقل أن يعتبر بهذا المثل، وألا يقابل نعم اللَّه بالكفر والطغيان. لئلا يحل به ما حل بهذه القرية المذكورة. ولكن الأمثال لا يعقلها عن اللَّه إلا من أعطاه اللَّه علمًا؛ لقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[5]»[6].

* * *

(١) التوبة: الآية (١٢٨).
(٢) آل عمران: الآية (١٦٤).
(٣) ص: الآيتان (٥-٦).
(٤) الفرقان: الآيتان (٤١-٤٢).
(٥) العنكبوت: الآية (٤٣).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٣٣٩-٣٤٤).

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «تفريع على الموعظة وضربِ المثل، وخوطب به فريق من المسلمين كما دلّ عليه قوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ إلى آخره.

ولعلّ هذا موجّه إلى أهل هجرة الحبشة إذ أصبحوا آمنين عند ملك عادل، في بلد يَجدون فيه رزقًا حلالًا، وهو ما يُضافون به وما يكتسبونه بكدّهم. أيْ إذا علمتم حال القرية الممثّل بها أو المعرّض بها فاشكروا اللّه الذي نجّاكم من مثل ما أصاب القرية، فاشكروا اللّه ولا تكفروه كما كفر بنعمته أهل تلك القرية. فقوله: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ مقابل قوله في المثل: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ إن كنتم لا تعبدون غيره كما هو مقتضى الإيمان.

وتعليق ذلك بالشرط للبعث على الامتثال لإظهار صدق إيمانهم.

وإظهار اسم الجلالة في قوله: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ مع أن مقتضى الظاهر الإضمار لزيادة التذكير، ولتكون جملة هذا الأمر مستقلّة بدلالتها بحيث تصحّ أن تجري مجرى المثل»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فكلوا أيها الناس مما رزقكم اللّه من بهائم الأنعام التي أحلها لكم حلالا طيبا مُذَكَّاة غير محرّمة عليكم ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ يقول: واشكروا اللّه على نعمه التي أنعم بها عليكم في تحليله ما أحلّ لكم من ذلك، وعلى غير ذلك من نعمه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يقول: إن كنتم تعبدون اللّه، فتطيعونه فيما يأمركم وينهاكم. وكان بعضهم يقول: إنما عنى بقوله:

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/٣٠٨-٣٠٩).

﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ طعامًا كان بعث به رسول اللَّه ﷺ إلى المشركين من قومه في سِنِي الجدب والقحط رقة عليهم، فقال اللَّه تعالى للمشركين: فكلوا مما رزقكم اللَّه من هذا الذي بعث به إليكم حلالا طيبا، وذلك تأويل بعيد مما يدلّ عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن اللَّه تعالى قد أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾ . . . . الآية والتي بعدها، فبين بذلك أن قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ إعلام من اللَّه عباده أن ما كان المشركون يحرّمونه من البحائر والسوائب والوصائل، وغير ذلك مما قد بيَّنا قبل فيما مضى لا معنى له، إذ كان ذلك من خطوات الشيطان، فإن كلّ ذلك حلال لم يحرم اللَّه منه شيئا»[1].

* * *

(١) جامع البيان (١٤/ ١٨٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مكذّبًا المشركين الذين كانوا يحرّمون ما ذكرنا من البحائر وغير ذلك: ما حرّم اللّه عليكم أيها الناس إلا الميتة والدم ولحم الخنزير، وما ذبح للأنصاب، فسمي عليه غير اللّه؛ لأن ذلك من ذبائح من لا يحلّ أكل ذبيحته، فمن اضطرّ إلى ذلك أو إلى شيء منه لمجاعة حلّت فأكله ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول: ذو ستر عليه أن يؤاخذه بأكله ذلك في حال الضرورة، رحيم به أن يعاقبه عليه»[١].

قال الرازي: «حصر تعالى المحرمات في هذه الأشياء الأربعة في هذه السورة؛ لأن لفظة: ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر وحصرها أيضًا في هذه الأربعة في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾[٢] وهاتان السورتان مكيتان، وحصرها أيضًا في هذه الأربعة في سورة البقرة؛ لأن هذه الآية بهذه اللفظة وردت في سورة البقرة، وحصرها أيضًا في سورة المائدة، فإنه تعالى قال في أول هذه السورة: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[٣] فأباح الكل إلا ما يتلى عليهم.

وأجمعوا على أن المراد بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ هو قوله تعالى في تلك السورة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[٤] فذكر تلك الأربعة المذكورة في تلك السور الثلاثة، ثم قال: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٨٨).
(٢) الأنعام: الآية (١٤٥).
(٣) المائدة: الآية (١).
(٤) المائدة: الآية (٣).

﴿أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[1] وهذه الأشياء داخلة في الميتة، ثم قال: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ وهو أحد الأقسام الداخلة تحت قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ فثبت أن هذه السور الأربعة دالة على حصر المحرمات في هذه الأربع سورتان مكيتان، وسورتان مدنيتان، فإن سورة البقرة مدنية. وسورة المائدة من آخر ما أنزل اللَّه تعالى بالمدينة، فمن أنكر حصر التحريم في هذه الأربع إلا ما خصه الإجماع والدلائل القاطعة كان في محل أن يخشى عليه؛ لأن هذه السورة دلت على أن حصر المحرمات في هذه الأربع كان شرعًا ثابتًا في أول أمر مكة وآخرها، وأول المدينة وآخرها وأنه تعالى أعاد هذا البيان في هذه السور الأربع قطعًا للأعذار وإزالة للشبهة، واللَّه أعلم»[2].

* * *

(١) المائدة: الآية (٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٣٣-١٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذبَ فيما رزق اللَّه عباده من المطاعم: هذا حلال، وهذا حرام، كي تفتروا على اللَّه بقيلكم ذلك الكذبَ، فإن اللَّه لم يحرم من ذلك ما تُحرِّمون، ولا أحلّ كثيرًا مما تُحِلون، ثم تقدّم إليهم بالوعيد على كذبهم عليه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ يقول: إن الذين يتخرّصون على اللَّه الكذب ويختلقونه، لا يخلَّدون في الدنيا، ولا يبقون فيها، إنما يتمتعون فيها قليلا. وقال: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ فرفع؛ لأن المعنى الذي هم فيه من هذه الدنيا متاع قليل، أو لهم متاع قليل في الدنيا. وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول: ثم إلينا مرجعهم ومعادهم، ولهم على كذبهم وافترائهم على اللَّه بما كانوا يفترون عذاب عند مصيرهم إليه أليم»[١].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما حصر المحرمات في تلك الأربع بالغ في تأكيد ذلك الحصر، وزيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه الأربع، وفي النقصان عنها أخرى، فإنهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكانوا يقولون: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، فقد زادوا في المحرمات وزادوا أيضًا في المحللات، وذلك لأنهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير اللَّه تعالى، فاللَّه تعالى بين أن المحرمات هي هذه الأربعة، وبين أن الأشياء التي يقولون إن هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على اللَّه، ثم ذكر الوعيد الشديد على هذا الكذب، وأقول: إنه تعالى لما بين هذا الحصر في هذه

(١) جامع البيان (١٤/ ١٨٩).

السور الأربع، ثم ذكر في هذه الآية أن الزيادة عليها والنقصان عنها كذب وافتراء على اللَّه تعالى وموجب للوعيد الشديد، علمنا أنه لا مزيد على هذا الحصر، واللَّه أعلم»[١].

قال ابن عاشور: «فيه تعريض بتحذير المسلمين لأنهم كانوا قريبي عهد بجاهلية، فربّما بقيت في نفوس بعضهم كراهية أكل ما كانوا يتعفّفون عن أكله في الجاهلية.

وعلّق النهي بقولهم: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ ولم يعلّق بالأمر بأكل ما عدا ما حُرم؛ لأن المقصود النهي عن جعل الحلال حرامًا، والحرام حلالًا، لا أكل جميع الحلال وترك جميع الحرام حتى في حال الاضطرار؛ لأن إمساك المرء عن أكل شيء لكراهيّةٍ أو عَيْف هو عمل قاصر على ذاته. وأما قول: ﴿وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ فهو يفضي إلى التحجير على غيره ممن يشتهي أن يتناوله»[٢].

قال ابن كثير: «ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئًا مما حرم اللَّه، أو حرم شيئًا مما أباح اللَّه، بمجرد رأيه وتشهّيه»[٣].

قال الشنقيطي: «نهى اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة الكفار عن تحريم ما أحل اللَّه من رزقه، مما شرع لهم عمرو بن لحي لعنه اللَّه من تحريم ما أحل اللَّه.

وقد أوضح -جل وعلا- هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾[٤]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[٥]، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[٦]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَاۖ﴾[٧] الآية وقوله: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾[٨] الآية. وقوله:

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٣٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٣١٠-٣١١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٠٩).
(٤) الأنعام: الآية (١٥٠).
(٥) يونس: الآية (٥٩).
(٦) الأنعام: الآية (١٤٠).
(٧) الأنعام: الآية (١٣٩).
(٨) الأنعام: الآية (١٣٨).

﴿حِجْرٌ﴾ أي: حرام، إلى غير ذلك من الآيات..

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ -أي: يختلقونه عليه، كدعواهم أنه حرم هذا وهو لم يحرمه. ودعواهم له الشركاء والأولاد- لا يفلحون؛ لأنهم في الدنيا لا ينالون إلا متاعًا قليلًا لا أهمية له، وفي الآخرة يعذبون العذاب العظيم، الشديد المؤلم.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله في يونس: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[2]، وقوله: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات»[4].

* * *

(١) يونس: الآيتان (٦٩-٧٠).

(٢) لقمان: الآية (٢٤).

(٣) البقرة: الآية (١٢٦).

(٤) أضواء البيان (٣/ ٣٤٦-٣٤٨).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وحرّمنا من قبلك يا محمد على اليهود، ما أنبأناك به من قبل في سورة الأنعام: ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ﴾[1]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بتحريمنا ذلك عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فجزيناهم ذلك ببغيهم على ربهم، وظُلمِهم أنفسهم بمعصية اللَّه، فأورثهم ذلك عقوبة الله»[2].

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير اللَّه به، وأنه أرخص فيه عند الضرورة -وفي ذلك توسعة لهذه الأمة، التي يريد اللَّه بها اليسر ولا يريد بها العسر -ذكر ﷺ ما كان حَرَّمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحرج والتضييق، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ﴾ يعني: في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[3]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أي: فيما ضيقنا عليهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: فاستحقوا ذلك، كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[4]»[5].

---

(١) الأنعام: الآية (١٤٦).
(٢) جامع البيان (١٤/ ١٨٩-١٩٠).
(٣) الأنعام: الآية (١٤٦).
(٤) النساء: الآية (١٦٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦١٠).

قال القاسمي: «قالوا: وفي الآية تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم، فإن هذه الأمة لم يحرم عليها إلا ما فيه مضرة لها، وغيرهم قد يحرم عليهم ما لا ضرر فيه، عقوبة لهم بالمنع كاليهود»[١].

* * *

(١) محاسن التأويل (١٠/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «إن ربك للذين عصوا اللَّه فجهلوا بركوبهم ما ركبوا من معصية اللَّه وسفهوا بذلك ثم راجعوا طاعة اللَّه والندم عليها والاستغفار والتوبة منها من بعد ما سلف منهم ما سلف من ركوب المعصية وأصلح فعمل بما يحب اللَّه ويرضاه ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ يقول: إن ربك يا محمد من بعد توبتهم له ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾»[1].

قال الخازن: «المقصود من هذه الآية بيان فضل اللَّه وكرمه وسعة مغفرته ورحمته؛ لأن السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصي وكل ما لا ينبغي وكل من عمل السوء فإنما يفعله بجهالة؛ لأن العاقل لا يرضى بفعل القبيح فمن صدر عنه فعل قبيح من كفر أو معصية، فإنما يصدر عنه بسبب جهله إما لجهله بقدر ما يترتب عليه من العقاب أو لجهله بقدر من يعصيه، فثبت بهذا أن فعل السوء إنما يفعل بجهالة ثم إن اللَّه تعالى وعد من عمل سوءًا بجهالة ثم تاب، وأصلح العمل في المستقبل أن يتوب عليه ويرحمه وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، يعني من بعد عمل ذلك السوء ﴿وَأَصۡلَحُوٓا﴾ يعني أصلحوا العمل في المستقبل، وقيل معنى الإصلاح الاستقامة على التوبة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ يعني من بعد عمل السوء بالجهالة والتوبة منه ﴿لَغَفُورٞ﴾ يعني لمن تاب وآمن ﴿رَّحِيمٞ﴾ يعني بجميع المؤمنين والتائبين»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٤/ ١٩٠).
(٢) تفسير الخازن (٣/ ١٤٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قانتًا: القنوت: دوام الطاعة.

حنيفًا: الحنيف: المائل عن الباطل إلى الحق. جمعه حنفاء. وتحنف فلان: إذا تحرّى طريق الاستقامة.

اجتباه: اصطفاه واختاره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ خليل اللَّه كان مُعَلِّم خَيْر، يأتمّ به أهل الهدى ﴿قَانِتًا﴾، يقول: مطيعًا لله ﴿حَنِيفًا﴾: يقول: مستقيمًا على دين الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: ولم يك يُشرك باللَّه شيئًا، فيكون من أولياء أهل الشرك به، وهذا إعلام من اللَّه تعالى أهل الشرك به من قريش أن إبراهيم منهم بريء وأنهم منه برآء ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ يقول: كان يخلص الشكر لله فيما أنعم عليه، ولا يجعل معه في شكره في نعمه عليه شريكا من الآلهة والأنداد وغير ذلك، كما يفعل مشركو قريش ﴿اجْتَبَاهُ﴾ يقول: اصطفاه واختاره لخُلته ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يقول: وأرشده إلى الطريق المستقيم، وذلك دين الإسلام لا اليهودية ولا النصرانية»(١).

قال أبو السعود: «وهو رئيسُ أهل التوحيد، وقدوةُ أصحابِ التحقيق، جادل أهلَ الشرك وألقمهم الحجرَ، ببينات باهرةٍ لا تُبقي ولا تذر، وأبطل مذاهبَهم الزائغةَ، بالبراهين القاطعة والحُججِ الدامغة، أو لأنه ﷺ كان مؤمنًا وحده والناسُ

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٩٠-١٩١).

كلُّهم كفارٌ. وقيل: هي فُعْلة بمعنى مفعول كالرُّحلة والنُّخبة، مِن أَمّهُ إذا قصده أو اقتدى به، فإن الناسَ كانوا يقصِدونه ويقتدون بسيرته لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[1] وإيرادُ ذكره ﷺ عَقيبَ تزييفِ مذاهبِ المشركين من الشرك والطعنِ في النبوة، وتحريمِ ما أحله اللَّه تعالى للإيذان بأن حقِّيةَ دينِ الإسلام وبطلانَ الشرك وفروعِه أمرٌ ثابت لا ريب فيه، ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ مطيعًا له قائمًا بأمره، ﴿حَنِيفًا﴾ مائلًا عن كل دينٍ باطل إلى الدين الحقِّ، غيرَ زائلٍ عنه بحال ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في أمر من أمور دينهم أصلًا وفرعًا، صرح بذلك مع ظهوره لا ردًا على كفار قريشٍ فقط في قولهم: نحن على ملة أبينا إبراهيمَ، بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾[2] في افترائهم وادعائهم أنه -عليه الصلاة والسلام- كان علي ما هم عليه، كقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3] إذ به ينتظم أمر إيراد التحريم والسبت سابقًا ولاحقًا.

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ صفةٌ ثالثة لأمةً، وإنما أوثر صيغةُ جمعِ القلة للإيذان بأنه ﷺ كان لا يُخِلُّ بشكر النعمة القليلة، فكيف بالكثيرة. وللتصريح بكونه ﷺ على خلاف ما هم عليه من الكفرانَ بأنعم اللَّه تعالى حسبما بيّن ذلك بضرب المثل، ﴿اجْتَبَاهُ﴾ للنبوة ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصلٍ إليه سبحانه وهو ملةُ الإسلامِ، وليست نتيجةُ هذه الهدايةِ مجردَ اهتدائِه ﷺ بل مع إرشاد الخلقِ أيضًا بمعونة قرينةِ الاجتباء»[4].

قال الشنقيطي: «أثنى اللَّه -جل وعلا- في هاتين الآيتين الكريمتين على نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصَّلاة والسلام: بأنه أمة، أي إمام مقتدى به، يعلم الناس الخير. كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[5]، وأنه قانت لله، أي مطيع له، وأنه لم يكن من المشركين، وأنه شاكر لأنعم اللَّه، وأن اللَّه اجتباه، أي اختاره واصطفاه. وأنه هداه إلى صراط مستقيم.

وكرر هذا الثناء عليه في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾[6]، وقوله:

---

(١) البقرة: الآية (١٢٤).
(٢) التوبة: الآية (٣٠).
(٣) آل عمران: الآية (٦٧).
(٤) تفسير أبي السعود (٥/ ١٤٩).
(٥) البقرة: الآية (١٢٤).
(٦) النجم: الآية (٣٧).

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾[٣]، وقوله عنه: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٤]، وقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٥]، وقوله: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٦] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في الثناء عليه»[٧].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سيرة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-

* عن سمرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**أتاني الليلة آتيان، فأتينا على رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولًا، وإنه إبراهيم ﷺ**»[٨].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما -وذكروا له الدجال بين عينيه مكتوب (كافر) أو (ك ف ر)- قال: لم أسمعه ولكنه قال: أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فجعد آدم على جمل أحمر مخطوم بخلبة، كأني أنظر إليه انحدر في الوادي»[٩].

★ **غريب الحديث:**

الدجال: هو فعّال، بفتح أوله والتشديد، من الدَّجَل، وهو التغطية. وسمي الكذاب دجالًا لأنه يغطي الحق بباطله، ويقال: دجل البعير بالقطران: إذا غطاه، والإناء بالذهب: إذا طلاه.

(١) البقرة: الآية (١٢٤).
(٢) الأنبياء: الآية (٥١).
(٣) الأنعام: الآية (٧٥).
(٤) الأنعام: الآية (٧٩).
(٥) آل عمران: الآية (٦٧).
(٦) الصافات: الآيتان (٨٣-٨٤).
(٧) أضواء البيان (٣/ ٣٤٩-٣٥٠).
(٨) أخرجه: أحمد (٥/ ٨) بهذا اللفظ، وأخرجه مطولًا البخاري (٦/ ٤٧٧-٤٧٨/ ٣٣٥٤) و (١٢/ ٥٤٢-٥٤٤/ ٧٠٤٧)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩١-٣٩٢/ ٨٦٥٨).
(٩) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧٦-٢٧٧)، والبخاري (٦/ ٤٧٨/ ٣٣٥٥)، ومسلم (١/ ١٥٣/ ١٦٦[٢٧٠]).

فجعد: قال الكرماني: «قال صاحب التحرير: يحتمل معنيين: أحدهما: أن يراد به جعودة الشعر، ضد السبوطة، والثاني: جعودة الجسم، وهو اجتماعه واكتنازه، وهذا أصح؛ لأنه جاء في بعض الروايات أنه رجل الشعر». وقال القسطلاني: «مجتمع الجسم، وليس المراد جعودة شعره».

آدم: من الأدمة، وهي السمرة.

مخطوم بخلبة: أي: مزموم بالخُلبة، بضم الخاء المعجمة وسكون اللام وضمها وفتح الباء الموحدة، وهي الليفة. قال ابن شميل: الخِطام: كل حبل يُعلّق في حَلْقِ البعير ثم يُعقد على أنفه، كان من جلد أو صوف أو قِنّب، وما جعلت لشِفار بعيرك من حبل فهو خِطام، وجمعه: الخُطُم، يُفتل من اللِّيف والشعر والكتّان وغيره، فإذا ضُفِر من الأَدَم فهو جَرير».

الوادي: هو خلف أمج بينه وبين مكة ميل واحد. وأَمَجُ، بفتح الهمزة والميم وبالجيم: قرية ذات مزارع هناك.

* عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«اختتن إبراهيم ﵇ وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم»**(١).

★ غريب الحديث:

اختتن: يقال: خَتَنَ الغلامَ والجاريةَ، يختِنها ويختُنها ختنًا، والاسم الخِتان والخِتانة، وهو مختون. وأصل الختن: القطع. والختان موضع الختن من الذكر.

بالقدوم: قال الكرماني: روي بتخفيف الدال وتشديدها. واختلف في المراد به، فقيل: هو اسم مكان، وقيل: اسم آلة النجار، فعلى الثاني هو بالتخفيف لا غير، وعلى الأول ففيه اللغتان. ثم اختلف في المكان، فقيل: هي قرية بالشام، وقيل: ثنية بالسراة. قال الحافظ: والراجح أن المراد في الحديث الآلة.

★ فوائد الحديث:

- قال العيني: «ولما اختتن إبراهيم صار الختان سنة معمولًا بها في ذريته، وهو

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٨)، والبخاري (٦/ ٤٧٨/ ٣٣٥٦)، ومسلم (٤/ ١٨٣٩/ ٢٣٧٠).

حكم التوراة على بني إسرائيل كلهم، ولم يزالوا يختتنون إلى زمن عيسى -عليه الصلاة والسلام-، [حتى] غيرت طائفة من النصارى ما جاء في التوراة من ذلك، وقالوا: المقصود غلفة القلب لا غلفة الذكر، فتركوا المشروع من الختان بضرب من الهذيان»[١].

* عن أم شريك ﵄: «أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال: **كان ينفخ على إبراهيم ﵇**»[٢].

★ غريب الحديث:

الوزغ: سام أبرص، للذكر والأنثى، أو الوزغة الأنثى، والذكر الوزغ، جمع وزغ وأوزاغ ووزغان ووزاغ.

★ فوائد الحديث:

«من كان هذا حاله في معاداة المؤمنين وإيذائهم، ومعاونة الظالمين على إيذاء الصالحين، فإنه يستحق مصير الوزغ من المبادرة إلى قتله عند القدرة على ذلك مع أمن المفسدة، حتى وإن كان من المسلمين، وذلك بعد استفراغ الجهد في نصحه وإنذاره»[٣].

* عن ابن مسعود: «**أنه سئل: ما الأمّة؟ قال: الذي يعلّم الناس الخير، قالوا: فما القانت؟ قال: الذي يطيع الله ورسوله**»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال ابن العثيمين ﵀: «ويجب أن نعلم أن ثناء الله على أحد من خلقه لا يقصد منه أن يصل إلينا الثناء فقط، لكن يقصد منه أمران هامان:

---

(١) عمدة القاري (١١/ ٦١).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٤٧٩/ ٣٣٥٩) واللفظ له. وأخرجه دون ذكر الشطر الثاني منه: أحمد (٦/ ٤٢١)، ومسلم (٤/ ١٧٥٧/ ٢٢٣٧)، والنسائي (٥/ ٢٢٩-٢٣٠/ ٢٨٨٥)، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٦/ ٣٢٢٨).

(٣) إهداء الديباجة (٤/ ٣٩٩).

(٤) أخرجه: ابن جرير (٨/ ١٩١)، والحاكم (٢/ ٣٥٨) وقال: «هذا صحيح على شرط الشيخين» ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والطبراني (١٠/ ٥٩/ ٩٩٤٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٩): «رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح».

الأول: محبة هذا الذي أثنى اللَّه عليه خيرًا، كما أن من أثنى اللَّه عليه شرًا؛ فإننا نبغضه ونكرهه، فنحب إبراهيم عليه السلام؛ لأنه كان إمامًا حنيفًا قانتًا لله ولم يكن من المشركين، ونكره قومه؛ لأنهم كانوا ضالين، ونحب الملائكة وإن كانوا من غير جنسنا؛ لأنهم قائمون بأمر اللَّه، ونكره الشياطين؛ لأنهم عاصون لله وأعداء لنا ولله، ونكره أتباع الشياطين؛ لأنهم عاصون لله أيضًا وأعداء لله ولنا.

الثاني: أن نقتدي به في هذه الصفات التي أثنى اللَّه بها عليه؛ لأنها محل الثناء، ولنا من الثناء بقدر ما اقتدينا به فيها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[3].

وهذه مسألة مهمة؛ لأن الإنسان أحيانًا يغيب عن باله الغرض الأول، وهو محبة هذا الذي أثنى اللَّه عليه خيرًا، ولكن لا ينبغي أن يغيب؛ لأن الحب في اللَّه، والبغض في اللَّه من أوثق عرى الإيمان»[4].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «دخل النبي ﷺ البيت فوجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم فقال ﷺ: **أما هم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة، هذا إبراهيم مصور، فما له يستقسم؟**»[5].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام فقال: **قاتلهم اللَّه، واللَّه إن استقسما بالأزلام قط**»[6].

★ غريب الحديثين:

الأزلام: قال أبو عبيدة: واحد الأزلام: زَلَم، بفتحتين، وزُلَم بضم أوله وفتح ثانيه لغتان، وهو القِدْحُ، بكسر القاف وسكون الدال. وقال الفراء: الأزلام: سهام

---

(١) يوسف: الآية (١١١).
(٢) الممتحنة: الآية (٤).
(٣) الممتحنة: الآية (٦).
(٤) شرح كتاب التوحيد، ضمن مجموع فتاوى ابن عثيمين (٩/ ٨٢).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧٧)، والبخاري (٦/ ٤٧٧/ ٣٣٥١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٥٠٠/ ٩٧٧٢).
(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٣٦٥)، والبخاري (٦/ ٤٧٧/ ٣٣٥٢)، وأبو داود (٢/ ٥٢٥/ ٢٠٢٧).

كانت في الكعبة يقسمون بها في أمورهم.

استقسما: قال ابن الأثير: الاسْتِقْسام: طَلَب القِسْم الذي قُسم له وقُدِّر؛ مَّما لم يُقْسم ولم يُقَدَّر. وهو اسْتِفْعال منه، وكانوا إذا أراد أحدُهم سَفَرًا أو تَزْوِيجًا، أو نحو ذلك من المَهامّ ضَرَب بالأزلام وهي القِداح، وكان على بعضها مكتوب: أمَرَني ربي، وعلى الآخَر: نَهاني ربي، وعلى الآخر غُفْل. فإن خَرج (أمَرني) مَضَى لشأنه، وإن خرج (نهاني) أمْسَك، وإن خرج (الغُفْل) عاد، أجالَها وضَرب بها أخرى إلى أن يَخْرج الأمْرُ أو النهي».

★ فوائد الحديثين:

- فيهما تحريم الاستقسام بالأزلام.

قال ابن بطال: «الاستقسام: الاستفعال من قسم الرزق والحاجات، وذلك طلب أحدهم بالأزلام على ما قسم له في حاجته التي يلتمسها من نجاح أو حرمان، فأبطل اللَّه ذلك من فعلهم وأخبر أنه فسق، وإنما جعله فسقًا؛ لأنهم كانوا يستقسمون عند آلهتهم التي يعبدونها ويقولون: (يا إلهنا، أخرج الحق في ذلك)، ثم يعملون بما خرج فيه، فكان ذلك كفرًا باللَّه، لإضافتهم ما يكون من ذلك من صواب أو خطإ إلى أنه من قسم آلهتهم، فأخبر رسول اللَّه عن إبراهيم وإسماعيل أنهما لم يكونا يستقسمان بالأزلام، وإنما كانا يفوضان أمرهما إلى اللَّه الذي لا يخفى عليه علم ما كان وما هو كائن؛ لأن الآلهة لا تضر ولا تنفع»[1].

* عن هشيم عن حصين قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: حدثني ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: **«عرضت علي الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب. قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون. فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادع اللَّه أن**

---

(١) شرح صحيح البخاري (٤/ ٢٨٣-٢٨٤).

يجعلني منهم، قال: **اللهم اجعله منهم**. ثم قام إليه رجل آخر فقال: ادع اللَّه أن يجعلني منهم، قال: **سبقك بها عكاشة**»[١].

★ **غريب الحديث:**

الأمة: أي: العدد الكثير.

النفر: من ثلاثة إلى عشرة من الرجال.

لا يكتوون: من الكيّ، يقال: كوى كيًّا وكية؛ أي: أحرق جلده بحديدة محماة.

لا يسترقون: أي: لا يطلبون الرقية. والرقية: العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات.

لا يتطيرون: من الطِّيَرة، بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تسكن: هي التشاؤم بالشيء، وهو مصدر تطيّر. يقال: تطير طيرة. وأصله فيما يقال: التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما. وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه.

عُكّاشة: بضم المهملة وتشديد الكاف، ويجوز تخفيفها. وهو عكاشة ابن محصن الأسدي من السابقين إلى الإسلام، شهد بدرًا، وقتل في الردة مع خالد بن الوليد. يقال: عَكِش الشَّعرُ، ويعكَش كفرح: إذا التوى، وحكي أنه من (عكش القوم): إذا حمل عليهم، وقيل غير ذلك.

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**يمر معه الأمة**»: قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصل (الأُمّة): الصنف من الناس والجماعة، كقوله ﷻ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[٢]؛ أي: صنفًا واحدًا في الضلال ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

وكقوله ﷻ: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾[٣]؛ أي: أصناف، وكل صنف من الدواب

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧١)، والبخاري (١١/ ٤٩٤-٤٩٥/ ٦٥٤١)، ومسلم (١/ ١٩٩-٢٠٠/ ٢٢٠)، والترمذي (٤/ ٥٤٤-٥٤٥/ ٢٤٤٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٨/ ٧٦٠٤).

(٢) البقرة: الآية (٢١٣). (٣) الأنعام: الآية (٣٨).

والطير مثل بني آدم في المعرفة بالله، وطلب الغذاء. وتوقّي المهالك، والتماس الذَّرْء، مع أشباه لهذا كثيرة.

ثم تصير الأمة: الحين، كقوله ﷻ: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[1]. وكقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾[2]؛ أي: سنين معدودة.

كأن الأمة من الناس القَرن ينقرضون في حين، فتُقام (الأمة) مُقام (الحين).

ثم تصير الأمة: الإمام والرباني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾[3]؛ أي: إمامًا يقتدي به الناس؛ لأنه ومن اتبعه أمة، فسمي أمة لأنه سبب الاجتماع.

وقد يجوز أن يكون سُمّي أمة؛ لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمة. ومن هذا يقال: فلان أمةٌ وحدَهُ؛ أي: هو يقوم مقام أمة.

وقد تكون الأمة: جماعة العلماء، كقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾[4]؛ أي: يعلمون.

والأمة: الدِّين، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[5] أي: على دين. قال النابغة:

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِكَ ريبةً وهل يَأثَمَنْ ذو أمّةٍ وهو طائعُ؟

أي: ذو دين.

والأصل أنه يقال للقوم يجتمعون على دين واحد: أمة، فتُقام الأمة مُقام الدين، ولهذا قيل للمسلمين: أمة محمد ﷺ؛ لأنهم على أمر واحد، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[6] مجتمعة على دين وشريعة.

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[7] أي: مجتمعة على الإسلام»[8].

من اتصف بهذه الصفات الأربع المذكورة في الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ

---

(١) يوسف: الآية (٤٥).
(٢) هود: الآية (٨).
(٣) النحل: الآية (١٢٠).
(٤) آل عمران: الآية (١٠٤).
(٥) الزخرف: الآية (٢٢).
(٦) المؤمنون: الآية (٥٢).
(٧) النحل: الآية (٩٣).
(٨) تأويل مشكل القرآن (ص: ٤٤٥-٤٤٦).

أُمَّةً﴾ . . . فقد استحق الجنة كما استحقها إبراهيم بغير حساب ولا عقاب[١].

* عن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: «لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[٢] قلنا: يا رسول اللَّه، أيّنا لا يظلم نفسه؟ قال: **ليس كما تقولون، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾: بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٣]**»[٤].

★ غريب الحديث:

لم يلبسوا: أي: لم يخلطوا، تقول: لَبَسْتُ الأمرَ، بالتخفيف، أَلْبِسُهُ بالفتح في الماضي والكسر في المستقبل؛ أي: خلطته. وتقول: لَبِسْتُ الثوبَ أَلْبَسُهُ، بالكسر في الماضي والفتح في المستقبل.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن حجر: «قال الإسماعيلي: كذا أورد هذا الحديث في ترجمة إبراهيم، كذا قال، وخفي عليه أنه حكاية عن قول إبراهيم عليه السلام؛ لأنه سبحانه لما فرغ من حكاية قول إبراهيم في الكوكب والقمر والشمس ذكر محاجة قومه له، ثم حكى أنه قال لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾[٥] فهذا كله عن إبراهيم، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ خطاب لقومه، ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[٦] إلخ. يعني أن الذين هم أحق بالأمن هم الذين آمنوا، وقال بعد ذلك: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[٧] فظهر تعلق ذلك بترجمة إبراهيم»[٨].

* عن أبي عمار شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول: سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن اللَّه اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني**

---

(١) الجديد في شرح كتاب التوحيد (ص: ٤٦). (٢) الأنعام: الآية (٨٢).
(٣) لقمان: الآية (١٣).
(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٨)، والبخاري (٦/ ٤٧٩/ ٣٣٦٠)، ومسلم (١/ ١١٤-١١٥/ ١٢٤)، والترمذي (٥/ ٢٤٥/ ٣٠٦٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٧/ ١١٣٩٠).
(٥) الأنعام: الآية (٨١). (٦) الأنعام: الآية (٨٢).
(٧) الأنعام: الآية (٨٣). (٨) فتح الباري (٦/ ٤٨٦-٤٨٧).

كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[١].

★ غريب الحديث:

اصطفى: يقال: استصفى الشيء، واصطفاه: اختاره. والصفاء: مصافاة المودة والإخاء. والاصطفاء: الاختيار، افتعال من الصفوة.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠٧)، ومسلم (٤/ ١٧٨٢/ ٢٢٧٦)، والترمذي (٥/ ٥٤٤-٥٤٥/ ٣٦٠٥-٣٦٠٦) واللفظ له.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال قتادة: إن الله حببه إلى كل الخلق فكل أهل الأديان يقرون به، أما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر، وأما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم إلا به، وتحقيق الكلام أن الله أجاب دعاءه في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾[1] وقال آخرون: هو قول المصلي منا: «**كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم**»[2]، وقيل: الصدق، والوفاء والعبادة..

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ فإن قيل: لم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ولم يقل: وإنه في الآخرة في أعلى مقامات الصالحين؟

قلنا: لأنه تعالى حكى عنه أنه قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3] فقال ههنا: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تنبيهًا على أنه تعالى أجاب دعاءه. ثم إن كونه من الصالحين لا ينفي أن يكون في أعلى مقامات الصالحين، فإن الله تعالى بين ذلك في آية أخرى، وهي قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾[4]»[5].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وآتينا إبراهيم على قنوته لله، وشكره له على نعمه، وإخلاصه العبادة له في هذه الدنيا ذكرًا حسنًا، وثناءً جميلًا باقيًا على الأيام ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يقول: وإنه في الدار الآخرة يوم القيامة لممن صلح أمره وشأنه عند الله، وحَسُنت فيها منزلته وكرامته»[6].

---

(١) الشعراء: الآية (٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٤١) والبخاري (٦/ ٥٠٣/ ٣٣٧٠) ومسلم (١/ ٣٠٥/ ٤٠٦) وأبو داود (١/ ٥٩٨-٥٩٩/ ٩٧٦) والترمذي (٢/ ٣٥٢-٣٥٣/ ٤٨٣) والنسائي (٣/ ٥٤-٥٥/ ١٢٨٨) وابن ماجه (١/ ٢٩٣/ ٩٠٤) من حديث كعب بن عجرة ﷺ.

(٣) الشعراء: الآية (٨٣).

(٤) الأنعام: الآية (٨٣).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٣٨-١٣٩).

(٦) جامع البيان (١٤/ ١٩٢).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الآية؛ قال بعض العلماء: الحسنة التي آتاه اللَّه في الدنيا: الذرية الطيبة، والثناء الحسن. ويستأنس لهذا بأن اللَّه بين أنه أعطاه بسبب إخلاصه لله، واعتزاله أهل الشرك: الذرية الطيبة.

وأشار أيضًا لأنه جعل له ثناءً حسنًا باقيًا في الدنيا؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[1]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾[2]، وقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ﴾[3]»[4].

* * *

(١) مريم: الآيتان (٤٩-٥٠).
(٢) العنكبوت: الآية (٢٧).
(٣) الشعراء: الآية (٨٤).
(٤) أضواء البيان (٣/ ٣٥٠).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القاسمي: «﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي بعد هذه الكرامات والحسنات التي أعطيناه إياها في الدارين، شرفناه وكرمناه بأمرنا باتباعك إياه في التوحيد، وأصول الدين التي لا تتغير في الشرائع كأمر المبدإ والمعاد والحشر والجزاء وأمثالها، لا في فروع الشريعة وأوضاعها وأحكامها، فإنها تتغير بحسب المصالح واختلاف الأزمنة والطبائع وما عليه أحوال الناس من العادات والخلائق»[1].

قال ابن عاشور: «﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الرتبي المشير إلى أن مضمون الجملة المعطوفة متباعد في رتبة الرفعة على مضمون ما قبلها، تنويهًا جليلًا بشأن النبي ﷺ وبشريعة الإسلام، وزيادة في التّنويه بإبراهيم ﵇، أي جعلناك متّبعًا ملّة إبراهيم، وذلك أجلّ ما أوليناكما من الكرامة. وقد بيّنت آنفًا أن هذه الجملة هي المقصود، وأن جملة ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[2] الخ. تمهيد لها.

وزيد ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ للتنبيه على أن اتّباع محمد ملّة إبراهيم كان بوحي من الله وإرشاد صادق، تعريضًا بأن الذين زعموا اتباعهم ملّة إبراهيم من العرب من قبلُ قد أخطأوها بشبهة، مثل أميّةَ بن أبي الصَلت، وزيد بن عمرو بن نُفيل، أو بغير شبهة مثل مزاعم قريش في دينهم..

وتفسير فعل ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ بجملة ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تفسير بكلام جامع لما أوحَى الله به إلى محمد -عليه الصلاة والسلام- من شرائع الإسلام مع الإعلام

---

(١) محاسن التأويل (١٠/ ١٧٥).

(٢) النحل: الآية (١٢٠).

بأنها مقامة على أصول ملّة إبراهيم. وليس المراد أوحينا إليك كلمة ﴿أَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ لأن النبي ﷺ لا يعلم تفاصيل ملّة إبراهيم، فتعيّن أن المراد أن الموحى به إليه منبجس من شريعة إبراهيم عليه السلام.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هو مما أوحاه اللَّه إلى محمد ﷺ المحكي بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، وهو عطف على ﴿حَنِيفًا﴾ على كلا الوجهين في صاحب ذلك الحال، فعلى الوجه الأول يكون الحال زيادة تأكيد لقوله قبله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1]، وعلى الوجه الثاني يكون تنزيهًا لشريعة الإسلام المتبعَة لملّة إبراهيم من أن يخالطها شيء من الشرك.

ونُفي كونه من المشركين هنا بحرف (ما) النافية لأن (ما) إذا نفت فعل (كان) أفادت قوّة النفي ومباعدة المنفي. وحسبك أنها يبنى عليها الجحود في نحو: ما كان ليفعل كذا.

فحصل من قوله السابق ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ومن قوله هنا: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ثلاث فوائد: نفي الإشراك عن إبراهيم في جميع أزمنة الماضي، وتجدّد نفي الإشراك تجدّدًا مستمرًّا، وبراءته من الإشراك براءة تامة.

وقد علم من هذا أن دين الإسلام منزّه عن أن تتعلّق به شوائب الإشراك؛ لأنه جاء كما جاء إبراهيم معلنًا توحيدًا لله بالإلهية، ومجتثًّا لوشيج الشرك، والشرائعُ الإلهية كلها وإن كانت تحذّر من الإشراك فقد امتاز القرآن من بينها بسدّ المنافذ التي يتسلّل منها الإشراك بصراحة أقواله وفصاحة بيانه، وأنه لم يترك في ذلك كلامًا متشابهًا كما قد يوجد في بعض الكتب الأخرى، مثل ما جاء في التوراة من وصف اليهود بأبناء اللَّه، وما في الأناجيل من موهم بنوّة عيسى عليه السلام لله سبحانه عما يصفون»[2].

قال الرازي: «قال قوم: إن النبي ﷺ كان على شريعة إبراهيم عليه السلام، وليس له شرع هو به منفرد، بل المقصود من بعثته عليه السلام إحياء شرع إبراهيم عليه السلام، وعول في إثبات مذهبه على هذه الآية، وهذا القول ضعيف؛ لأنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام

---

(١) النحل: الآية (١٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٣١٨-٣١٩).

في هذه الآية بأنه ما كان من المشركين، فلما قال: ﴿أَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كان المراد ذلك. فإن قيل: إنما نفى النبي ﷺ الشرك وأثبت التوحيد بناء على الدلائل القطعية، وإذا كان كذلك لم يكن متابعًا له فيمتنع حمل قوله: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ﴾ على هذا المعنى، فوجب حمله على الشرائع التي يصح حصول المتابعة فيها.

قلنا: يحتمل أن يكون المراد الأمر بمتابعته في كيفية الدعوة إلى التوحيد، وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة على ما هو الطريقة المألوفة في القرآن»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه أوحى إلى نبيِّنا ﷺ الأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين.

وبين هذا أيضًا في غير الموضع كقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]، إلى قوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾[4] الآية، وقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[5] الآية، إلى غير ذلك من الآيات»[6].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٣٩).
(٢) الأنعام: الآية (١٦١).
(٣) الحج: الآية (٧٧).
(٤) الحج: الآية (٧٨).
(٥) الممتحنة: الآية (٤).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٣٥٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ أي: فُرض تعظيمُه والتخلي فيه للعبادة وتركُ الصيد فيه تحقيقٌ لذلك النفي الكليّ وتوضيحٌ له بإبطال ما عسى يُتوهم كونُه قادحًا في كلّيته حسبما سلف في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا﴾[1] الخ.

فإن اليهود كانوا يدّعون أن السبتَ من شعائر الإسلام وأن إبراهيمَ ﵇ كان محافظًا عليه، أي ليس السبتُ من شرائع إبراهيمَ وشعائرِ ملّته التي أُمرْتَ باتباعها حتى يكون بينه -عليه الصلاة والسلام- وبين بعض المشركين علاقةٌ في الجملة، وإنما شرُع ذلك لبني إسرائيل بعد مدةٍ طويلة، وإيرادُ الفعل مبنيًّا للمفعول جَرْيٌ على سنن الكبرياء وإيذانٌ بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة الإسنادِ إلى الغير، وقد قرئ على البناء للفاعل، وإنما عبّر عن ذلك بالجعل موصلًا بكلمة (على) وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم، فقيل: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ للإيذان بتضمنه للتشديد والابتلاءِ المؤدّي إلى العذاب، وبكونه معلّلًا باختلافهم في شأنه قبل الوقوع إيثارًا له على ما أمر اللَّه تعالى به، واختيارًا للعكس، لكن لا باعتبار شمولِ العلّية لطرفي الاختلاف وعمومِ الغائلةِ للفريقين، بل باعتبار حالِ منشأ الاختلافِ من الطرف المخالفِ للحق، وذلك أن موسى -عليه الصلاة والسلام- أمرَ اليهودَ أن يجعلوا في الأسبوع يومًا واحدًا للعبادة، وأن يكون ذلك يومَ الجمعة فأبَوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرَغ اللَّه تعالى فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت، إلا شرذمةً منهم قد رضُوا بالجمعة فأذِن اللَّه تعالى لهم في

(١) الأنعام: الآية (١٤٦).

السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاع أمرَ اللَّه تعالى الراضون بالجمعة فكانوا لا يَصيدون، وأعقابُهم لم يصبِروا عن الصيد فمسخهم اللَّه سبحانه قردةً دون أولئك المطيعين، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الفريقين المختلفَين فيه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يفصِل ما بينهما من الخصومة والاختلاف فيجازي كلّ فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضائل هذه الأمة

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فُرِض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا اللَّه له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا والنصارى بعد غد**»[٢].

* عن أبي هريرة وحذيفة بن اليمان ﷺ قالا: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أضل اللَّه عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء اللَّه بنا فهدانا اللَّه ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق**»[٣].

★ فوائد الحديثين:

قال ابن كثير: «لا شك أن اللَّه تعالى شرَع في كل ملة يوما من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذي أكمل اللَّه فيه الخليقة، واجتمعت الناس فيه، وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئًا من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه،

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ١٥٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٩)، والبخاري (٢/ ٤٥٠/ ٨٧٦)، ومسلم (٢/ ٥٨٥/ ٨٥٥)، والنسائي (٣/ ٩٥-٩٦/ ١٣٦٦).

(٣) أخرجه: مسلم (٢/ ٥٨٦/ ٨٥٦)، والنسائي (٣/ ٩٧/ ١٣٦٧)، وابن ماجه (١/ ٣٤٤/ ١٠٨٣).

مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه، وأخذِه مواثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾»[1].

قوله: «**نحن الآخرون السابقون**»: **قال الحافظ**: «في رواية ابن عيينة عن أبي الزناد عند مسلم: «**نحن الآخرون ونحن السابقون**» أي: الآخرون زمانًا الأولون منزلة، والمراد أن هذه الأمة وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية فهي سابقة لهم في الآخرة بأنهم أول من يحشر، وأول من يحاسب، وأول من يقضى بينهم، وأول من يدخل الجنة. وفي حديث حذيفة عند مسلم: «**نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق**» وقيل: المراد بالسبق هنا إحراز فضيلة اليوم السابق بالفضل وهو يوم الجمعة، ويوم الجمعة وإن كان مسبوقًا بسبت قبله أو أحد، لكن لا يتصور اجتماع الأيام الثلاثة متوالية إلا ويكون يوم الجمعة سابقًا. وقيل: المراد بالسبق أي: إلى القبول والطاعة التي حرمها أهل الكتاب فقالوا: سمعنا وعصينا، والأول أقوى»[2].

وقال: «قوله: «**ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم...**» المراد باليوم يوم الجمعة، والمراد باليوم بفرضه فرض تعظيمه، وأشير إليه بهذا لكونه ذكر في أول الكلام كما عند مسلم من طريق آخر عن أبي هريرة، ومن حديث حذيفة قالا: قال رسول اللّه ﷺ: «**أضل اللّه عن الجمعة من كان قبلنا**» الحديث. قال ابن بطال: ليس المراد أن يوم الجمعة فرض عليهم بعينه فتركوه؛ لأنه لا يجوز لأحد أن يترك ما فرض اللّه عليه وهو مؤمن، وإنما يدل واللّه أعلم- أنه فرض عليهم يوم من الجمعة وكل إلى اختيارهم ليقيموا فيه شريعتهم، فاختلفوا في أي الأيام هو ولم يهتدوا ليوم الجمعة، ومال عياض إلى هذا ورشحه بأنه لو كان فرض عليهم بعينه لقيل (فخالفوا) بدل (فاختلفوا). وقال النووي: يمكن أن يكونوا أمروا به صريحًا فاختلفوا هل يلزم تعينه أم يسوغ إبداله بيوم آخر فاجتهدوا في ذلك فأخطؤوا. انتهى. ويشهد له ما رواه الطبري بإسناد صحيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[3] قال: أرادوا الجمعة فأخطؤوا وأخذوا السبت مكانه. ويحتمل أن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦١٢).

(٢) فتح الباري (٢/ ٤٥١).

(٣) النحل: الآية (١٢٤).

يراد بالاختلاف اختلاف اليهود والنصارى في ذلك. . وليس ذلك بعجيب من مخالفتهم كما وقع لهم في قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾[1] وغير ذلك، وكيف لا وهم القائلون: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[2].

قوله: «**فهدانا اللَّه له**» يحتمل أن يراد بأن نص لنا عليه، وأن يراد الهداية إليه بالاجتهاد، ويشهد للثاني ما رواه عبد الرزاق[3] بإسناد صحيح عن محمد ابن سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها رسول اللَّه ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة، فقالت الأنصار: إن لليهود يومًا يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى كذلك، فهلمّ فلنجعل يومًا نجتمع في فنذكر اللَّه تعالى ونصلي ونشكره. فجعلوه يوم العروبة، واجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ، وأنزل اللَّه تعالى بعد ذلك: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾[4] الآية، وهذا وإن كان مرسلًا فله شاهد بإسناد حسن أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وصححه ابن خزيمة وغير واحد من حديث كعب بن مالك قال: «**كان أول من صلى بنا الجمعة قبل مقدم رسول اللَّه ﷺ المدينة أسعد بن زرارة**»[5] الحديث. فمرسل ابن سيرين يدل على أن أولئك الصحابة اختاروا يوم الجمعة بالاجتهاد، ولا يمنع ذلك أن يكون النبي ﷺ علمه بالوحي وهو بمكة فلم يتمكن من إقامتها، ثم فقد ورد فيه حديث عن ابن عباس عند الدارقطني، ولذلك جمع بهم أول ما قدم المدينة كما حكاه ابن إسحاق وغيره، وعلى هذا فقد حصلت الهداية للجمعة بجهتي البيان والتوفيق. وقيل في الحكمة في اختيارهم الجمعة وقوع خلق آدم فيه، والإنسان إنما خلق للعبادة فناسب أن يشتغل بالعبادة فيه، ولأن اللَّه تعالى أكمل فيه الموجودات وأوجد فيه الإنسان الذي ينتفع بها فناسب أن يشكر على ذلك بالعبادة فيه»[6].

---

(١) البقرة: الآية (٥٨).
(٢) البقرة: الآية (٩٣).
(٣) (٣/ ١٥٩/ ٥١٤٤).
(٤) الجمعة: الآية (٩).
(٥) أخرجه أبو داود (١/ ٦٤٥-٦٤٦/ ١٠٦٩) وابن ماجه (١/ ٣٤٣-٣٤٤/ ١٠٨٢) وفيه محمد بن إسحاق وهو صدوق يدلس، لكنه صرح بالتحديث عند البيهقي (٣/ ١٧٦-١٧٧) وقال: حسن الإسناد صحيح. وابن خزيمة (٣/ ١١٢-١١٣/ ١٧٢٧) وابن حبان (١٥/ ٤٧٧/ ٧٠١٣) والحاكم (١/ ٢٨١) وصححه بشرط مسلم ووافقه الذهبي.
(٦) فتح الباري (٢/ ٤٥٢-٤٥٣).

وقال: «فيه بيان واضح لمزيد فضل هذه الأمة على الأمم السابقة زادها اللّٰه تعالى»[1].

* * *

(١) فتح الباري (٢/ ٤٥٣).

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده.

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين اللَّه وإهانة من لم يقم به.

وإما بذكر ما أعد اللَّه للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعيه إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ علم السبب الذي أداه إلى

الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته وسيجازيه عليها.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم منَّ عليهم فاجتباهم»[١].

قال ابن القيم: «قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ فذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو؛ فإنه إما أن يكون طالبًا للحق راغبًا فيه محبًّا له مؤثرا له على غيره إذا عرفه؛ فهذا يُدعى بالحكمة ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال. وإما أن يكون مُعرِضا مشتغلًا بضد الحق، ولكن لو عُرِّفه عَرَفَه وآثره واتبعه؛ فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب. وإما أن يكون معاندًا معارضًا فهذا يجادل بالتي هي أحسن؛ فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد إن أمكن، فلمناظرة المبطل فائدتان:

أحدهما: أن يُرَدَّ عن باطله ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن يَنْكَفَّ شره وعداوته، ويتبين للناس أن الذي معه باطل، وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن ومناظرته للطوائف؛ فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله وتدبره ورزق فهما فيه، وحججه مع أنها في أعلى مراتب الحجج، وهي طريقة أخرى غير طريقة المتكلمين وأرباب الجدل والمعقولات؛ فهي أقرب شيء تناولًا، وأوضح دلالة، وأقوى برهانًا، وأبعد من كل شبهة وتشكيك، وأما طريق المتكلمين وأرباب الجدل فهي كما قال الخبير بها:

حججٌ تَهافت كالزجاج تَخالُها ... حَقّا وَكلٌّ كَاسِرٌ مَكسُور

وأخص أوصافها أنها تعطيك مناقضة الخصوم واضطراب أقوالهم، وأما أن تعطيك علما وهدى،

فإذا بَعَثْت إلى السِّبَاخ بِرائِد ... تَبْغي الرِّياض فَقد ظلمت الرائدا

وإذا كان هذا حالها وهي خير من طريق الفلاسفة، وأقرب إلى الحق؛ فكيف يعارض الوحي بهذه الطرق وهذه ثُم تُقَدَّم عليه»[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٥٥).

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٦-١٢٧٧).

وقال أيضًا: «جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة. والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة، والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن. هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية، لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان، وهي دعوة الخواص، والموعظة الحسنة قياس الخطابة، وهي دعوة العوام، والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات، وهذا باطل وهو مبني على أصول الفلسفة، وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها»[(١)].

وقال أيضًا: «المنتفع بالآيات من الناس نوعان: أحدهما: ذو القلب الواعي الزكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه، ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته، بل قلبه واع زكي قابل للهدى غير معرض عنه، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط، لكمال استعداده وصحة فطرته، فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله، كأنه كان مكتوبًا فيه، فهو قد أدركه مجملًا، ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملا، وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل، كما هي حال الصديق الأكبر ﷺ، والنوع الثاني من ليس له هذا الاستعداد والقبول، فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه، وأحضر قلبه، وجمع فكرته عليه، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله، وهذه طريقة أكثر المستجيبين، ولهم نوع ضرب الأمثال وإقامة الحجج وذكر المعارضات والأجوبة عنها، والأولون هم الذين يدعون بالحكمة، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة، فهؤلاء نوعا المستجيبين، وأما المعارضون المدعون للحق فنوعان: نوع يدعون بالمجادلة بالتي هي أحسن، فإن استجابوا وإلا فالمجادلة. فهؤلاء لا بد لهم من جدال أو جلاد. ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام، متناولة لها كلها، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فهؤلاء المدعوون بالكلام، وأما أهل الجلاد فهم الذين أمر الله قتالهم حتى

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٨٤/ ٤٨٥).

لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله»[١].

وقال أيضا: «إنما يشتد افتقار العبد إلى العظة وهي الترغيب والترهيب إذا ضعفت إنابته وتذكره، وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره؛ لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب، ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر النهي. والعظة يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة، ونفسُ الرَّغبة والرهبة. فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلى الأمر والنهي. والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب. والمعارض المتكبر شديد الحاجة إلى المجادلة، فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ أطلق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة إذ كلها حسنة، وَوَصْف الحُسْن لها ذاتي، وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان إذ ليس كل موعظةٍ حسنةً، وكذلك الجدال قد يكون بالتي هي أحسن، وقد يكون بغير ذلك، وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادَل وغلظته ولينه وحدّته ورفقه، فيكون مأمورًا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن. ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه وأدله على المقصود وأوصله إلى المطلوب.

والتحقيق أن الآية تتناول النوعين، وأما ما ذكره بعض المتأخرين أن هذا إشارة إلى أنواع القياسات: فالحكمة هي طريقة البرهان، و الموعظة الحسنة هي طريقة الخطابة، والمجادلة بالتي هي أحسن طريقة الجدل، فالأول: بذكر المقدمات البرهانية لمن لا يرضى إلا بالبرهان، ولا ينقاد إلا له، وهم خواص الناس. والثاني: بذكر المقدمات الخطابية التي تثير رغبة ورهبة لمن يقنع بالخطابة، وهم الجمهور. والثالث: بذكر المقدمات الجدلية للمعارض الذي يندفع بالجدل، وهم المخالفون؛ فتنزيل القرآن على قوانين أهل المنطق اليوناني واصطلاحهم، وذلك باطل قطعا من وجوه عديدة ليس هذا موضع ذكرها، وإنما ذكر هذا استطرادا لذكر العظة، وأن المنيب المتذكر لا تشتد حاجته إليها كحاجة الغافل المعرض، فإنه شديد الحاجة جدا إلى العظة ليتذكر ما قد نسيه، فينتفع بالتذكر»[٢].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥١٧-٥١٨).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤٥-٤٤٦).

قال الشنقيطي: «أمر الله -جل وعلا- نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أن يجادل خصومه بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة: من إيضاح الحق بالرفق واللين. وعن مجاهد ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ قال: أعرض عن أذاهم. وقد أشار إلى هذا المعنى في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[١] أي إلاّ الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجادلهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

ونظير ما ذكر هنا من المجادلة بالتي هي أحسن: قوله لموسى وهارون في شأن فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[٢]. ومن ذلك القول اللين: قول موسى له: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه أعلم بمن ضل عن سبيله؛ أي: زاغ عن طريق الصواب والحق، إلى طريق الكفر والضلال.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله في أول القلم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[٤]، وقوله في الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[٥]، وقوله في النجم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾[٦] والآيات لمثل ذلك كثيرة جدًّا.

والظاهر أن صيغة التفضيل التي هي ﴿أَعۡلَمُ﴾ في هذه الآيات يراد بها مطلق الوصف لا التفضيل؛ لأن الله لا يشاركه أحد في علم ما يصير إليه من شقاوة وسعادة»[٧].

* * *

(١) العنكبوت: الآية (٤٦).

(٢) طه: الآية (٤٤).

(٣) النازعات: الآيتان (١٨-١٩).

(٤) القلم: الآيتان (٧-٨).

(٥) الأنعام: الآية (١١٧).

(٦) النجم: الآية (٣٠).

(٧) أضواء البيان (٣/ ٣٥١-٣٥٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين: وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة، ولئن صبرتم عن عقوبته، واحتسبتم عند اللَّه ما نالكم به من الظلم، ووكلتم أمره إليه، حتى يكون هو المتولي عقوبته ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ يقول: للصبر عن عقوبته بذلك خير لأهل الصبر احتسابًا، وابتغاء ثواب اللَّه؛ لأن اللَّه يعوّضه مِنَ الذي أراد أن يناله بانتقامه من ظالمه على ظلمه إياه من لذّة الانتصار، وهو من قوله: ﴿لَهُوَ﴾ كناية عن الصبر، وحسن ذلك، وإن لم يكن ذكر قبل ذلك الصبر لدلالة قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عليه.

وقد اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله نزلت هذه الآية. وقيل: هي منسوخة أو محكمة، فقال بعضهم: نزلت من أجل أن رسول اللَّه ﷺ وأصحابه أقسموا حين فعل المُشركون يوم أُحد ما فعلوا بقتلى المسلمين من التمثيل بهم أن يجاوزوا فعلهم في المُثْلة بهم إن رزقوا الظفر عليهم يومًا، فنهاهم اللَّه عن ذلك بهذه الآية وأمرهم أن يقتصروا في التمثيل بهم إن هم ظفروا على مثل الذي كان منهم، ثم أمرهم بعد ذلك بترك التمثيل، وإيثار الصبر عنه بقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ فنسخ بذلك عندهم ما كان أذن لهم فيه من المُثلة..

وقال آخرون: نسخ ذلك بقوله في براءة: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[1] قالوا: وإنما قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ خبرًا من اللَّه للمؤمنين أن لا يبدءوهم بقتال حتى يبدءوهم به، فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ

---

(١) التوبة: الآية (٥).

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[١].

وقال آخرون: بل عنى اللَّه تعالى بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ نبيّ اللَّه خاصة دون سائر أصحابه، فكان الأمر بالصبر له عزيمة من اللَّه دونهم..

وقال آخرون: لم يُعْنَ بهاتين الآيتين شيء مما ذكر هؤلاء، وإنما عُنِيَ بهما أن من ظُلِم بظُلامة، فلا يحلّ له أن ينال ممن ظلمه أكثر مما نال الظالم منه، وقالوا: الآية محكمة غير منسوخة.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- أمر من عوقب من المؤمنين بعقوبة أن يعاقب من عاقبه بمثل الذي عوقب به، إن اختار عقوبته، وأعلمه أن الصبر على ترك عقوبته، على ما كان منه إليه خير وعزم على نبيه ﷺ أن يصبر، وذلك أن ذلك هو ظاهر التنزيل، والتأويلات التي ذكرناها عمن ذكروها عنه، تحتملها الآية كلها. فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن في الآية دلالة على أيّ ذلك عنى بها من خبر ولا عقل كان الواجب علينا الحكم بها إلى ناطق لا دلالة عليه؛ وأن يقال: هي آية محكمة أمر اللَّه -تعالى ذكره- عباده أن لا يتجاوزوا فيما وجب لهم قِبَل غيرهم من حقّ من مال أو نفس، الحقّ الذي جعله اللَّه لهم إلى غيره، وأنها غير منسوخة، إذ كان لا دلالة على نسخها، وأن للقول بأنها محكمة وجهًا صحيحًا مفهوما»[٢].

قال ابن عاشور: «في هذه الآية إيماء إلى أن اللَّه يُظهر المسلمين على المشركين ويجعلهم في قبضتهم، فلعلّ بعض الذين فتنهم المشركون يبعثه الحَنق على الإفراط في العقاب. فهي ناظرة إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾[٣].

ورغّبهم في الصبر على الأذى، أي بالإعراض عن أذى المشركين وبالعفو عنه؛ لأنه أجلب لقلوب الأعداء، فوصف بأنه خير، أي خير من الأخذ بالعقوبة، كقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[٤]،

---

(١) البقرة: الآية (١٩٠).
(٢) جامع البيان (١٤/ ١٩٥-١٩٧).
(٣) النحل: الآية (١١٠).
(٤) فصلت: الآية (٣٤).

وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[(١)]»[(٢)].

قال الشنقيطي: «الآية فيها جواز الانتقام والإرشاد إلى أفضلية العفو. وقد ذكر تعالى هذا المعنى في القرآن. كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾[(٣)] الآية، وقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[(٤)] إلى قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾[(٦)] إلى قوله: ﴿أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾[(٧)] كما قدمنا.

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة:

المسألة الأولى: يؤخذ من هذه الآية حكم مسألة الظفر، وهي أنك إن ظلمك إنسان: بأن أخذ شيئًا من مالك بغير الوجه الشرعي ولم يمكن لك إثباته، وقدرت له على مثل ما ظلمك به على وجه تأمن معه الفضيحة والعقوبة. فهل لك أن تأخذ قدر حقك أو لا؟

أصح القولين، وأجراهما على ظواهر النصوص وعلى القياس: أن لك أن تأخذ قدر حقك من غير زيادة. لقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ الآية، وقوله: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾[(٨)].

وممن قال بهذا القول: ابن سيرين وإبراهيم النخعي، وسفيان ومجاهد، وغيرهم.

وقالت طائفة من العلماء منهم مالك: لا يجوز ذلك. وعليه درج خليل ابن إسحاق المالكي في مختصره بقوله في الوديعة: وليس له الأخذ منها لمن ظلمه بمثلها.

المسألة الثانية: أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة المماثلة في القصاص. فمن قتل بحديدة قتل بها، ومن قتل بحجر قتل به. ويؤيده «رضه ﷺ

---

(١) الشورى: الآية (٤٠).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٣٣٦).
(٣) المائدة: الآية (٤٥).
(٤) الشورى: الآية (٤١).
(٥) الشورى: الآية (٤٣).
(٦) النساء: الآية (١٤٨).
(٧) النساء: الآية (١٤٩).
(٨) البقرة: الآية (١٩٤).

رأس يهودي بين حجرين قصاصًا لجارية فعل بها مثل ذلك»[1].

وهذا قول أكثر أهل العلم خلافًا لأبي حنيفة ومن وافقه، زاعمًا أن القتل بغير المحدد شبه عمد، لا عمد صريح حتى يجب فيه القصاص..

المسألة الثالثة: أطلق -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة اسم العقوبة على الجناية الأولى في قوله: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ والجناية الأولى ليست عقوبة؛ لأن القرآن بلسان عربي مبين. ومن أساليب اللغة العربية المشاكلة بين الألفاظ. فيؤدى لفظ بغير معناه الموضوع له مشاكلة للفظ آخر مقترن به في الكلام، كقول الشاعر:

قَالُوا اقْتَرِحْ شَيْئًا نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ ... قُلْتُ اطْبَخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصًا

أي خيطوا لي. وقال بعض العلماء: ومنه قول جرير:

هَذِي الأَرَامِلُ قَدْ قَضَّيْتُ حَاجَتَهَا ... فَمَنْ لِحَاجَةِ هَذَا الأَرْمَلِ الذَّكَرِ

بناء على القول بأن الأرامل لا تطلق في اللغة إلا على الإناث.

ونظير الآية الكريمة في إطلاق إحدى العقوبتين على ابتداء الفعل مشاكلة للفظ الآخر، قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾[2] الآية، ونحوه أيضًا قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[3] مع أن القصاص ليس بسيئة، وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾[4] الآية؛ لأن القصاص من المعتدي أيضًا ليس باعتداء كما هو ظاهر، وإنما أدي بغير لفظه للمشاكلة بين اللفظين»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من عدالة الإسلام عدم الاعتداء في العقاب

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاءت هند بنت عتبة بن ربيعة فقالت: يا رسول الله إن

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٧١)، والبخاري (١٢/ ٢٤٣/ ٦٨٧٦)، ومسلم (٣/ ١٢٩٩/ ١٦٧٢)، وأبو داود (٤/ ٦٦٦/ ٤٥٢٩)، وابن ماجه (٢/ ٨٨٨/ ٢٦٦٦)، والنسائي (٨/ ٣٥-٣٦/ ٤٧٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) الحج: الآية (٦٠).

(٣) الشورى: الآية (٤٠).

(٤) البقرة: الآية (١٩٤).

(٥) أضواء البيان (٣/ ٣٥٢-٣٥٤).

أبا سفيان رجل مِسِّيك، فهل عليّ حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ فقال: لا حرج عليك أن تطعميهم بالمعروف»(١).

★ غريب الحديث:

مسيك: قال ابن الأثير: المشهور في كتب اللغة الفتح والتخفيف؛ أي: بَخيلٌ يُمسِكُ ما في يديه لا يُعطيه أحدًا، وهو مِثْلُ البخيل وزنًا ومعنىً. والمشهور عند المحدّثين الكسر والتشديد، بوزن الخِمِّير والسِّكِّيرِ؛ أي شديدُ الإمساكِ لِمالِه، وهو من أبنيةِ المبالغة، واللَّه أعلم.

❋ عن عقبة بن عامر قال: «قلنا للنبي ﷺ: إنك تبعثنا بقوم لا يقروننا، فما ترى فيه؟ فقال لنا: **إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف**»(٢).

★ فوائد الحديثين:

بوب البخاري على هذين الحديثين: «باب قصاص المظلوم إذا وجد مال ظالمه» قال الحافظ: «أي: هل يأخذ منه بقدر الذي له ولو بغير حكم حاكم؟ وهي المسألة المعروفة بمسألة الظَّفَر، وقد جنح المصنف إلى اختياره، ولهذا أورد أثر ابن سيرين على عادته في الترجيح بالآثار»(٣).

قال العيني: «مطابقته للترجمة (يعني حديث هند ﵂) من حيث إذن النبي ﷺ لهند للأخذ من مال زوجها»(٤).

وقال أيضا: «مطابقته (يعني حديث عقبة بن عامر) للترجمة تؤخذ بالتكلف من قوله: «**فخذوا منهم حق الضيف**» فإنه أثبت فيه حقًّا للضيف، ولصاحب الحق أخذ حقه ممن يتعين في جهته، وفيه معنى قصاص المظلوم»(٥).

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٢٥)، والبخاري (٥/ ١٣٥/ ٢٤٦٠)، ومسلم (٣/ ١٣٣٨، ١٣٣٩/ ١٧١٤)، وأبو داود (٣/ ٨٠٤/ ٣٥٣٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٨/ ٩١٩٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٩)، والبخاري (٥/ ١٣٦/ ٢٤٦١)، ومسلم (٣/ ١٣٥٣/ ١٧٢٧)، وأبو داود (٤/ ١٣٠/ ٣٧٥٢)، والترمذي (٤/ ١٢٦/ ١٥٨٩) وقال: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه (٢/ ١٢١٢/ ٣٦٧٦).

(٣) الفتح (٥/ ١٣٦).

(٤) عمدة القاري (٩/ ٢١٢).

(٥) المصدر نفسه (٩/ ٢١٣).

قال ابن بطال: «اختلف العلماء في الذي يجحد وديعة غيره ثم يجد المودَعُ له مالًا، هل يأخذه عوضًا من حقه أم لا؟

اختلف قول مالك في ذلك، فروى ابن القاسم عن مالك أنه لا يفعل، واحتج بما روي عن النبي أنه قال: «**أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**»[١] وروى زياد عن مالك أن له أن يأخذ حقه إذا وجده من ماله، إذا لم يكن فيه شيء من الزيادة، وهو قول الشافعي واحتج بحديث هند. وروى ابن وهب عن مالك أنه إذا لم يكن على الجاحد للمال ديْن فله أن يأخذ مما يظفر له به من المال حقَّه، فإن كان عليه ديْن فليس له أن يأخذ إلا بمقدار ما يكون فيه أسوة الغرماء.

وقال أبو حنيفة: يأخذ من الذهب الذهب، ومن الفضة الفضة، ومن المكيل المكيل، ومن الموزون الموزون، ولا يأخذ غير ذلك. وقال زفر: له أن يأخذ العرض بالقيمة.

وأولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من أجاز الانتصاف من حقه إذا وجد مال من ظلمه، بدلالة الآية، ودلالة حديث هند، ألا ترى أن النبي -ﷺ- أجاز لها أن تطعم عيلة زوجها من ماله المعروف، عوض ما قصّر فيه من إطعامهم، فدخل في معنى ذلك كل من وجب عليه حق ولم يوفّه أو جحده أنه يجوز له الاقتصاص منه، وليس قوله ﷺ: «**أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**» بمخالف لهذا المعنى؛ لأن من أخذ حقه فلا يسمى خائنًا. وقوله: «**أد الأمانة إلى من ائتمنك**» معناه الخصوص، فكأنه قال: أد الأمانة إلى من ائتمنك إذا لم يكن غاصبًا لمالك ولا جاحدًا له، وأما من غصبك حقك و جحدك فليس يدخل فيمن أُمر بأداء الأمانة إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ ولدلالة حديث هند، وهذا التأويل ينفي التضاد عن الآثار ودليل القرآن. وأما حديث عقبة بن عامر فقال أكثر العلماء أنه كان في أول الإسلام، حين كانت المواساة واجبة، وهو منسوخ بقوله ﷺ: «**جائزته يوم وليلة**» قالوا: والجائزة تفضّل وليست بواجبة»[٢].

---

(١) أخرجه: أبو داود (٣/ ٨٠٥/ ٣٥٣٥)، والترمذي (٣/ ٥٦٤/ ١٢٦٤) وقال: «حسن غريب»، والحاكم (٢/ ٤٦) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) شرح البخاري (٦/ ٥٨٤-٥٨٥).

قال الحافظ معلقًا: «وهذا ضعيف لاحتمال أن يراد بالتفضل تمام اليوم والليلة لا أصل الضيافة، وفي حديث المقدام بن معد يكرب مرفوعًا: «**أيما رجل ضاف قوما فأصبح الضيف محروما؛ فإن نصره حق على كل مسلم حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله**»[1] أخرجه أبو داود، وهو محمول على ما إذا لم يظفر منه بشيء»[2].

قوله: «**فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف**» قال الحافظ: «وظاهر هذا الحديث أن قرى الضيف واجب، وأن المنزول عليه لو امتنع من الضيافة أخذت منه قهرًا، وقال به الليث مطلقًا، وخصّه أحمد بأهل البوادي دون القُرى»[3].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٣١)، وأبو داود (٤/ ١٢٩-١٣٠/ ٣٧٥١)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

(٢) الفتح (٥/ ١٣٧).

(٣) الفتح (٥/ ١٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واصبر يا محمد على ما أصابك من أذى في الله. ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ يقول: وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله، وتوفيقه إياك لذلك ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ولا تحزن على هؤلاء المشركين الذين يكذّبونك وينكرون ما جئتهم به في آن ولوا عنك وأعرضوا عما أتيتهم به من النصيحة ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ يقول: ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل، ونسبتهم ما جئتهم به إلى أنه سحر أو شعر أو كهانة، مما يمكرون: مما يحتالون بالخدع في الصّد عن سبيل الله، من أراد الإيمان بك، والتصديق بما أنزل الله إليك»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه ﷺ مأمور بالصبر، وأنه لا يمتثل ذلك الأمر بالصبر إلا بإعانة الله وتوفيقه. لقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وأشار لهذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٢] لأن قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ الآية، معناه أن خصلة الصبر لا يلقاها إلا من كان له عند الله الحظ الأكبر والنصيب الأوفر، بفضل الله عليه، وتيسير ذلك له»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (١٤/ ١٩٧).
(٢) فصلت: الآية (٣٥).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٣٥٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ اللَّه في محارمه فاجتنبوها، وخافوا عقابه عليها، فأحجموا عن التقدّم عليها ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ يقول: وهو مع الذين يحسنون رعاية فرائضه، والقيام بحقوقه، ولزوم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه مع عباده المتقين المحسنين. وقد تقدم إيضاح معنى التقوى والإحسان.

وهذه المعية خاصة بعباده المؤمنين، وهي بالإعانة والنَّصر والتوفيق. وكرر هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾[2]، وقوله: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾[3]، وقوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[4]، وقوله: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[5]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المعية العامة لجميع الخلق فهي بالإحاطة التامة والعلم، ونفوذ القدرة، وكون الجميع في قبضته -جل وعلا-: فالكائنات في يده -جل وعلا- أصغر من حبّة خردل، وهذه هي المذكورة أيضًا في آيات كثيرة. كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾[6] الآية، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾[7] الآية، وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾[8] وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا

---

(١) جامع البيان (١٤/ ١٩٨).

(٢) طه: الآية (٤٦).

(٣) الأنفال: الآية (١٢).

(٤) التوبة: الآية (٤٠).

(٥) الشعراء: الآية (٦٢).

(٦) المجادلة: الآية (٧).

(٧) الحديد: الآية (٤).

(٨) الأعراف: الآية (٧).

كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾[١] الآية إلى غير ذلك من الآيات.

فهو -جل وعلا- مستو على عرشه كما قال، على الكيفية اللائقة بكماله وجلاله، وهو محيط بخلقه، كلهم في قبضة يده، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين»[٢].

* * *

(١) يونس: الآية (٦١).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٣٥٤).

فهرس الموضوعات

سورة النحل

* * *